أعلام العرب
٢٩

أحمد زكي
الملقب بشيخ العروبة
حياته - آراؤه - آثاره

بقلم
أنور الجندي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

فى رحلة طويلة خلال البحث عن « معالم الأدب العربى المعاصر » منذ فجر النهضة الفكرية العربية التى بدأت قبيل منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٨٤٠ — ١٩٤٠) تبدو معالم شخصيات متعددة من أعلام الفكر والوطنية والكفاح السياسى والاجتماعى والأدبى .

ومن حق هؤلاء النوابغ علينا أن نكشف عنهم ، ونؤرخ لهم ، وندرس انتاجهم وآثارهم ، ونقدمهم لجيلنا المعاصر المتعطش الى صور البطولة فى مختلف الميادين ، والى روائع الفكر وبدائع الفنون الأدبية ، من مساجلات وتحقيقات . ولقد حفل تاريخنا فى هذه الفترة بأعلام بارعين صادقين فى ايمانهم بأمتهم ، وبلغتهم ، وبتاريخهم ، غير أن بعضهم آثر العمل دون الشهرة ، وبعضهم لمع لمعانا خاطفا خلال حياته ، فلما قضى غاب فى أعماق الأحداث ، ولم يجد من يؤرخ له ، أو يكشف عن فضله وأثره .

ولقد تابعت خلال بحثى الطويل عديدا من هؤلاء النوابغ الذين لم يلتفت اليهم حتى الآن أمثال : أحمد تيمور ، وعبد العزيز الثعالبى ، وفريد وجدى ، ومصطفى الغلايينى ، وأحمد شفيق ، ومحمد مسعود ، وداود بركات ، ورشيد رضا ، وشبلى شميل ،

وطاهر الجزائرى ، وعبد العـزيز جاويش ، وأمين الرافعى ، وعبد الحميد بن باديس ، ولطفى جمعـة ، ومارون عبـود ، ونقولا حداد ، وغيرهم .

ومن بين هؤلاء النوابغ أحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ العروبة ، والرائد المصرى الأول لاحياء الآداب العربية ، والبحث عن ذخائر المخطوطات وجمعها أو تصويرها بالفوتغرافيا وتحقيقها، والعلامة الباحث الذى حقق عشرات القضايا والمواقف والمواقع والأعلام وأسماء البلدان وكلمات اللغة .

وهو أول مصرى عربى فى العصر الحديث زار « الأندلس » وأطلق عليها ذلك الاسم الذى اشتهرت به من بعد (الفردوس الاسلامى المفقود) وصاحب المكتبة الزكية التى تضم ١٨ ألف مجلد ، وسكرتير الجامعة المصرية القديمة ، وأول من أدخـل « الترقيم » فى كتابتنا العربية الحديثة ، واختصر حروف الطباعة، والطوّاف الرحالة من الآستانة الى برلين الى باريس الى لندن من أجل التراث ، وصاحب النسخة الأولى أو الثانية على الأقل من عشرات الكتب العربية المفقودة ، والرجل الذى صعد الى القلاع فى كل بلد ألم بها وزار المساجد والكنائس والمقابر ، وقطع الأرض من طولها والعرض ، محققا للمواقع والآثار ، والذى فتح له قصر «طوب قبو» بعد أربعة قرون وستة أعوام لنقل المخطوطات العربية ، وصديق المستشرقين فى أنحاء المعمورة ، والعالم الصريح الذى لا يتابع ولا يمالىء .

وهو الى ذلك سكرتير مجلس النظار ، والمترجم الأبرع من

الفرنسية ، والمجيد لعديد من اللغات ، وداعية الأمة العربية من أجل الحفاظ على مقومات الفكر العربى ، وجعلها أساسا للنهضة الفكرية المتطورة مع الزمن ، المتصلة بالحضارة العالمية .

والكاتب المنشىء الغزير الانتاج ، الذى آثر الصحافة اليومية على المجلات والتأليف ، وصاحب الأسلوب الجامع بين العلم والطرافة والفكاهة والسخرية ، والذى فاجأ القراء فى خلال أربعين سنة بعشرات من الآراء المثيرة التى حققها ، والذى ترك أكثر من ألف مقالة مبعثرة فى بطون الصحف والمجلات .

ومن هنا كانت مشقة البحث ، فان أحمد زكى باشا لم يترك الا كتيبات صغيرة قليلة كتبها مبكرا ، وهى ليست أكثر من تقارير عن بعض أعماله ، أو محاضرات قليلة من آثاره ، لذلك كان لابد من البحث وراء نتاجه وتتبعه فى بطون الصحف اليومية والمجلات.

ولقد ظللت أكثر من خمسة عشر عاما ، وأنا أقرأ آراء متناثرة خلال بحثى فى (معالم الأدب المعاصر) واعداد موسوعتى عنه ، وكان دائما يلفت نظرى ، ويشعرنى بأثره الواضح ، فتحقيقاته دائما جديدة ، وآراؤه مثيرة ، وطريقته فى عرضها تلفت النظر ، وازدهاؤه وثقته بما يقول تترك أثرا فى نفس الباحث لا يذهب ، وهو الى ذلك قد توفى منذ عام ١٩٣٤ فلم تكتب عنه الا كلمات قليلة ، بعد وفاته مباشرة ، ثم مضت هذه السنوات دون أن يذكره ذاكر ، وانطوت آثاره التى لم يستكملها ، فلم يعن بها أحد أو يبحث عنها ، كل هذا دفعنى الى أن أرفع الركام والتراب عن وجه هذا الباحث العالم ، الذى ظل يكتب ويخطب ويحاضر أكثر

من أربعين عاما ، وكان مرجعا لكل باحث أو سائل ، وكان بيته قبلة كل رائد من العرب أو من أهل الشرق والغرب .

وقد أجهدنى البحث وراء آثاره ، لولا أن لدى فهرسا كاملا لأبحاث الأهرام ، أعاننى على مقالاته بها — وهى أغلب محصوله فى الحقيقة — وتابعت البحث وراءه فى المؤيد والمقطم والبلاغ ، كما تابعته فى مراجعة شاملة للهلال والمقتطف والمشرق والمقتبس ، ومخطوطات الخزانة الزكية وأضابيرها .. حتى تمكنت بحول الله أن أرسم هذه « الصورة » عن حياته وأدبه ، وأنا أعترف بعد أنها ليست الا رسما ضئيلا لنابغة عملاق ، وباحث محقق ، وهب كل حياته لعمله وعلمه ، وما محاولتى لايراد بعض النماذج لكتاباته وآرائه الا محاولة لالقاء الضوء على جانب ضخم غزير عميق من تراثنا الفكرى والتاريخى المعاصر المدفون الجدير بأن يكشف عنه فيجمع ويذاع فى الناس من جديد ، حتى ينتفع به الباحثون فى مجال اللغة العربية ، والتاريخ والجغرافيا والأعلام والآثار .

ولقد عشت أكثر من سبع سنوات أواصل هـذا البحث ، وأقطع عنه ، وأعود اليه من جديد ، محاولا أن لا يفوتنى قطاع من عمل الرجل ، أو تغيب عنى لمحة من لمحات حياته وتراثه ، ومع ذلك فقد ضاق البحث عن مئات التفاصيل والشرائح والأسانيد ، وان كنا قد حاولنا أن نجمع كل الخطوط والخيوط فى يد القارىء عسى أن يتجه باحث أو أكثر الى دراسة آثار الرجل دراسة موسوعية شاملة ، واستخراج آرائه وتحقيقاته التى أعتقد أنها مازالت تنبض بالحياة ، وهى فى مجموعها تخدم سعى امتنا

العربية اليوم الى العمل من أجل تأكيد دورنا فى الحضارة ، وحقنا فى بناء نهضتنا على أساس من قيمنا ، وابراز هــذه المعــانى ، وكشفها ، لنرد بها عادية خصوم الأمة العربية ودعاة التغريب ، والمخاصمين لأمجادنا وتراثنا .

وليس ثمة عيب يمكن أن يؤخذ على « أحمد زكى باشا » الا ايثاره نشر آرائه وابحاثه فى الصحف اليومية دون جمعهــا ، ولعله كان حريصا على ذلك ليحقق لها الدوى الكبير والصــدى الواسع والوصول السريع الى كل الأيدى فى العالم العربى ، وفى الامكان الآن أن يطبع أكثر من عشر مجلدات من آثاره موزعة على أبواب التحقيق العلمى المختلفة فى مجالات الادب واللغة والتاريخ والآثار .

* * *

وقد حدد أحمد زكى هدفه من عمله وحيــاته فى عبــارته المعروفة :

« ولى كل يوم موقف ومقالة »

وأعتقد ان تحقيقات أحمد زكى من العمق والأهمية بحيث تلفت نظر الباحثين المتخصصين ، ولاسيما معجمه اللغوى العربى الكبير الذى أخذ يعمل فيه سنواته الأخيرة ، وتوفى دون أن يتمه ، ومؤلفات أخرى أتمها منها كتابه عن (مدائن الاندلس) و (مجالس المعددات والندابات) ورحلته الى اليمن ومحاضراته المختلفة وخاصة محاضراته بالفرنسية التى ألقاها فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية .

وقد تردد اسم (أحمد زكى) كثيرا علما على كثير من الناس المشهورين والمغمورين حتى أصبح من الضرورى أن يحدد اسم « أحمد زكى » صاحب هذه الدراسة بعبارتين (باشا) و (شيخ العروبة) . فهناك (أحمد زكى) المترجم الأول من مدرسة رفاعة الطهطاوى ، وأحمد زكى (العدوى) المحقق اللغوى بدار الكتب، وأحمد زكى (الدكتور) رئيس تحرير مجلة العربى والدكتور أحمد زكى (تركى) وزير البحث العلمى .

* * *

وحياة أحمد زكى مرتبطة بآثاره الأدبية الى أبعد مدى ، فان يكن عمل موظفا فى الحكومة فان ذلك أعانه على العمل الأدبى ، وحقق له جاها أكبر فى الرحلة والحصـــول على ذخائر التراث وفرض الكلمات العربية واقصـــاء الدخيلة وتحـــرير الدواوين الحكومية من التعابير التركية والأجنبية على السواء ، وفى حياة أحمد زكى وأدبه جوانب القوة ، وجوانب الضعف ، ولكنه كان على كل حال باحثا علامة ، مشرق النفس ، جريئا مؤمنا برسالة ، عاش لها حياته كلها ، وهى ابراز مجد الأمة العربية ، والدفاع عنها وتحقيق تاريخها ، وفضح كل خطأ أو هوى يهدف الى الغض من شأنها أو محاولة لتزييف حقائق لغتها أو آثارها أو تاريخها .

هذه الحياة نقدمها اليوم ، مؤدين بعض الدين لهذا الرجل العظيم بعد أن ظلت مطوية سنوات وسنوات ، معتذرين لعملنا هذا عن عقوق من اتصلوا به ، وجهلوا قدره ، ولم يقوموا على آثاره باحيائها أو الكشف عنها .

ولعلنا نستطيع بعون الله أن نقدم من بعد صورا أخرى لهؤلاء الأعلام ، الأبرار ، الذين خدموا أمتهم وتاريخها ولغتها ، وألقى الزمن على حيواتهم ستارا من الاهمال والنسيان .

وبالله التوفيق ،

أنور الجندى

الهرم فى ٢١ ديسمبر ١٩٦٣ (القاهرة)

ملامح جيل ومطالع حياة

عاش أحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ العروبة حياة عريضة تبدت آثارها فى ذلك الانتاج الوافر من الأبحاث التى نشر أقلها فى كتيبات صغيرة فى مطالع حياته ، ونشر أغلبها فى الصحف ، وظل فى بطونها حتى اليوم فى خلال أكثر من خمسين عاما (١٨٩٢— ١٩٣٤) ، لا سبيل الى التعرف عليها الا بالبحث . حيث لم يترك أى فهارس عامة لهذه المقالات التى نشر أكثرها فى المؤيد والمقطم والأهرام والبلاغ .

ولقد كان فى الامكان أن يكون زكى باشا واحدا من أولئك الموظفين الكبار فى الدولة الذين عملوا فى القصر أو فى مجلس النظار من أمثال عثمان مرتضى (باشا) وحسين عاصم (باشا)

سنوات طويلة فى ظل هذا العمل الحكومى
رجما فى مجلس النظار وسكرتيرا (ثانيا)
فسكرتيرا عاما سنة ١٩١١ .

ولكن أحمد زكى باشا كان منذ مطالع حياته (مفكرا) مصريا عربيا قبل أن يكون موظفا حكوميا . يبدو هذا واضحا وبصورة صريحة لأول مرة فى انتدابه لتمثيل الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين ١٨٩٢ .

لقد بدأ زكى باشا حياته مترجما ، وكان هـذا العمل من الخطورة بمكان ، فقد كانت مدرسة رفاعة الطهطاوى بعيدة الأثر فى الثقافة المصرية العربية الحديثة بما نقلت الى اللغة العربية من مؤلفات بلغت فى عهد رفاعة نفسه ألفى مؤلف ...

وقد سار زكى باشا شوطا فى مجال الترجمة ، وكان هذا هو عمله الأساسى فى مجلس النظار أول الأمر ، ثم ظل جانبا من عمله فيما بعد ، والى نهاية مدة عمله .

ولكن زكى باشا لم يقف عند هذا الحد — بل تخطاه الى العمل فى مجال احياء التراث العربى وبعثه والتنقيب عنه ، فما الذى لفت نظره الى هذا العمل ؟

الواقع أن زكى باشا كان منذ مطالع شبابه كاتبا وخطيبا ، وأنه فى أيام الطلب كان يترجم بعض الآثار ، وينشر فى الصحف آراءه وملاحظاته ، كانت مكتبة شقيقه (محمد رشاد) القاضى ورئيس المحكمة الأهلية فيما بعد هى التى فتحت أمامه آفاق القراءة والبحث ، وقد أحس أنه كاتب بطبيعته ، فضلا عن تفوقه فى الترجمة تفوقا كان مضرب الأمثال ، فقد كان يقرأ الصحيفة من أى كتاب فرنسى ويترجمها أولا بأول باللغة العربية على نحـو يخلب الألباب .

هذا فضلا أنه بعد أن نال شهادة الحقوق عام ١٨٨٧ عمل محرراً فى الوقائع المصرية ، هذه البيئة التى عرفت من قبـل رفاعة الطهطاوى وفارس الشدياق ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سليمان .

كما اتصل زكى « باشا » بالمجمع العلمى المصرى ، وعرف مسيو ماسبيرو وزملاءه من رجال الآثار ، وفى جو هذا المجمع اتصل زكى « باشا » بعدد من المستشرقين وطالع أبحاثهم وشهد اهتمامهم بالبحث عن التراث العربى وطبعه فى مطابعهم .

كل هذا كون عنده (نقطة البدء) التى حددت مستقبل حياته كله وهى احياء التراث العربى ، ودراسته ، وبعثه ، وتحقيقه ، وكشف ذخائره ، والدفاع عنه ، والرد على كل من يحاول تحريفه أو تزويره .

وكان زكى باشا المغربى الأصل ، الفلسطينى المنبت ، المصرى الأرومة ، مستعدا استعدادا نفسيا كاملا للدفاع عن مقومات الفكر العربى والأمة العربية .

ولقد كان هذا مجالا جديدا لا نعرف أن أحدا ارتاده قبله ، ولم تظهر آثاره الا بعد وقت طويل ، ربما سنة ١٩١١ فى مشروع احياء الآداب العربية وربما بعد عام ١٩٢١ فى رحلاته الى سوريا والى اليمن والى القدس من أجل الدفاع عن القضية العربية .

وهذا هو الجانب الثانى فى حياة هذا المفكر ، الذى لم يقتصر همه على العمل فى ميدان الفكر وحده ، ولكنه تطلع الى العمل السياسى العربى أيضا ، وخطا فيه خطوات واسعة ، كان أبرز مظاهرها استقباله للعشرات من أعلام العرب والمسلمين ومحادثتهم ومراسلتهم ، وعقد الندوات لهم ، وتكريمهم سواء على طريقة السماط العربى فى بيته بجيزة الفسطاط على ضفاف النيل أو فى جروبى وغيره مما سنتحدث عنه فيما بعد .

ويمكن القول بأن « أحمد زكى » كان منذ مطالع شـبابه يتطلع الى عمل كبير له دوى ، فقد كان غاية فى الذكاء والحماسة والتوقد ، كشفته أمامه هذه العوامل المختلفة ، ودفعته اليـه حماسته وتطلعه ، وقد شاءت الظروف أن تضعه فى بيئة لهـا طابعها الذى عرف بها ، وهى بيئة الأمير : عباس حلمى الثـانى التى ضمت أحمد شوقى وأحمد شفيق وأحمد حافظ عوض ، والشيخ على يوسف ، وقد امتد حكم ذلك الخديوى من عام ١٨٩٢ الى عام ١٩١٤ .

لاشك كانت هذه البيئة على خلاف مع بيئات أخرى عاصرتها، منها بيئة الشيخ محمد عبده وتلاميذه الذين كانوا على خصومة مع الخديوى عباس واتصال باللورد كرومر .

وبيئة حزب الأمة وعلى رأسها لطفى السيد التى كانت تساير اتجاه اللورد كرومر .

أما بيئة الحزب الوطنى وعلى رأسها مصطفى كامل ومحمـد فريد فقد كان الخديوى متضامنا معها منذ تولى الحكم عام ١٨٨٢ الى استقالة كرومر ١٩٠٧ ، وحتى جاء المندوب البريطانى (الدون غورست) بما أطلق عليه سياسة الوفاق ، هنالك اختلف الخديوى مع الحركة الوطنية ، وأطلق عليها رجاله .

وقد شارك فى ذلك أحمد زكى وشوقى وحافظ عوض وعلى يوسف الذى تحول بالمؤيد من موالاة الحركة الوطنية الى موالاة الخديوى ومسايرة الانجليز .

وقد عمل أحمد زكى عام ١٩٠٦ « سر تشريفاتى الخديوى »

وفى عام ١٩٠٧ عين سكرتيرا لمجلس النظار ، وظل حتى عين سنة ١٩١١ سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء .

وشهد عباس حلمى (١٨٩٢ — ١٩١٤) والسلطان حسين (١٩١٤ — ١٩١٧) وفؤاد (١٩١٧ حتى أحيل على المعاش عام ١٩٢١) .

كما عمل مع النظار (رؤساء الوزراء) بطرس غالى ١٩٠٧ — محمد سعيد — حسين رشدى ١٩١٤ — ١٩١٧ يوسف وهبه ١٩١٩ توفيق نسيم (١٩٢٠) عدلى يكن (١٩٢١) .

وهكذا بَعُدَ زكى باشا بطبيعة عمله وتقلباته ، عن مجال الحركة الوطنية وعُدَّ من رجال الأمير ، ولكنه كان بحكم اتجاهاته الفكرية وكتاباته ومراجعاته معدودا فى طليعة بيئة المفكرين فى هذه الفترة .

هذه البيئة التى كانت تضم : أمين فكرى ومصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين وحفنى ناصف وفتحى زغلول ولطفى السيد واسماعيل صبرى وأحمد شوقى وعبد السلام ذهنى وعبد العزيز جاويش وعمر لطفى وأحمد حافظ عوض ومحمد عبده ويعقوب صروف وأحمد كمال وداود بركات وفارس نمر وجورجى زيدان وعلى يوسف ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى وابراهيم المويلحى ومحمد المويلحى وتوفيق البكرى وابراهيم اليازجى وشكيب أرسلان ومحمد كرد على وعبد القادر المغربى وأحمد تيمور وأحمد شفيق وأمين سامى ومحمد لبيب البتانونى .

ولعل اتجاه أحمد زكى قد تحدد فعلا ، ووجد نقطة البدء الحقيقية عندما اختاره الخديوى عباس لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين فى لندن (أغسطس ١٨٩٢) فقد عمقت هذه الرحلة جوانب شخصيته الفكرية ، وأعطتها دوافع الانطلاق .

أولا : زيارته لاوروبا وقضاؤه ستة أشهر فى أرجائها .

ثانيا : لقاؤه للمستشرقين ، وأحاديثه معهم ، واستماعه اليهم .

ثالثا : زيارته للمكتبات ، والبحث عن التراث العربى فى مكتبات أوروبا المختلفة .

رابعا : زيارته لاسبانيا ، ومراجعاته المتعددة للأندلس ، بلادها وأسمائها وتاريخها ، واطلاقه اسم « الفردوس الاسلامى المفقود » عليها .

وقد ظلت هذه الأعمال ممتدة طوال حياته ، فقد توالت رحلاته لآوروبا وتوالت مقابلاته للمستشرقين والباحثين وتوالى حضوره لمؤتمرات المستشرقين . وتوالى البحث عن المخطوطات العربية فى مكتبات الشرق والغرب ، وظلت الأندلس أنشودة حياته .

ومنذ هذه السفرة التى نشر فصولها فى الأهرام توثق اتصاله بهذه الصحيفة المعمرة ، فنشر فيها كتاباته حتى آخر سنوات حياته (١٨٩٢ — ١٩٣٤) .

ومن آيات نبوغ أحمد زكى أن أتيح له أن يمثل مصر فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى لندن عام ١٨٩٢ — بعد الاحتلال البريطانى بعشر سنوات — ولم تكن سنه تتجاوز الخامسة والعشرين .

ولعل زيارته للأندلس — ذلك الفردوس الاسلامى المفقود هى التى فتحت أمامه آفاق الحماسة للتراث العربى ، وأوقدت فى نفسه تلك الشعلة الروحية من أجل الدفاع عن أمجاد العرب والاسلام ، فظل يوالى عمله فى ميادين ثلاثة :

١ — احياء التراث العربى بالبحث عن المؤلفات والمخطوطات ونقلها بالفوتوغرافيا .

٢ — الآثار العربية والبحث عن القبور والمواقع والدعوة لتكريم أصحابها .

٣ — تصحيح أسماء الأعلام والبلاد والوقائع والأحداث فى مجال اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا .

وقد عاش زكى باشا مدرها يدافع عن تراث العرب وتاريخهم وأعلامهم ، يقظا لكل ما ينشر عنهم ، متحريا له ، دافعا أخطاء المستشرقين وأوهام الباحثين ، منقبا عن صحيح الآراء .

ويمكن القول بأن حياة زكى باشا قد مرت بمراحل ثلاث :

١ — المرحلة الأولى وهى مرحلة جمع التراث العربى من مكتبات الآستانه وأوروبا والمشرق والمغرب ونقله بالفوتغرافيا ومراجعته والتعليق عليه وطبعه وتشره .

٢ — مراجعة هذا التراث ودراسته واستيعابه ، وتكوين خزانته الزكية والتعليق على ما بها من مؤلفات ، واعداد أضابير وجذاذات فى مختلف فنون الادب والتاريخ والجغرافيا . والاتصال بالباحثين ومراجعتهم .

٣ — وهى المرحلة الأخيرة من حياته ، والتى تبدأ بعد احالته على المعاش سنة ١٩٢١ حتى وفاته سنة ١٩٣٤ ، وهى أخصب فترات حياته ، حيث نشر عشرات المقالات والأبحاث ، وتوسع فى صلاته بزعماء العالم العربى وتوسط فى الخلاف بين اليمن والسعودية وانتدب لتحقيق الخلاف بين العرب واليهود فى شأن حائط المبكى وقضية البراق .

* * *

وأبرز معالم حياة أحمد زكى تتمثل فى :

— عمله من أجل احياء الآداب العربية وتكوين « الخزانة الزكية » .
— رحلاته .
— تحقيقاته ومراجعاته فى الأدب والتاريخ والجغرافيا .
— معاركه ومساجلاته .
— عمله من أجل الكشف عن أمجاد العرب والاسلام .
— اهتمامه البارز بالأندلس .

* * *

ولد أحمد زكى عام ١٨٦٧ م ، فماذا يمثل هــذا العام فى « تاريخ مصر » .

لقد تولى اسماعيل الحكم ١٨٦٣ م وأمضى فيه ستة عشر عاما حتى عزل ١٨٧٩ وهذه سنوات شباب أحمد زكى ، الذى أحرز شهادة الحقوق (من مدرسة الادارة) عام ١٨٨٧ أى فى خلال حكم توفيق . وعندما وقع الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ ، كان عمره خمسة عشر عاما . وهكذا عاش أحمد زكى حياته كلها فى ظــل الاستعمار البريطانى لمصر ، وواجه فى مطالع حياته هذا النفوذ .

وفى عام ١٨٩٢ انتعشت الآمال بدعوة مصطفى كامل الى الوطنية .

وقد صدر المؤيد عام ١٨٨٩ ، صحيفة مصرية اسلامية الطابع، لتواجه المقطم الذى صدر قبلها بعام (١٨٨٨) .

ومن دفعة زكى (باشا) من مدرسة الحقوق عمــر لطفى ومحمد فريد .

وقد شق كل من الثلاثة طريقه على نحو من الأنحاء . فعمر كحل اقتصادى لمشاكل الفلاحين ، اما محمد فريد فقد بدأ حياته مؤرخا وكاتبا معنيــا بالقضايا السياسية الكبرى ، وأهمها مشكلة الاستعمار فى الشرق والقارة الأفريقية ، وكتب عشرات المقالات فى الصحف وفى مجلة (الموسوعات) .

أما زكى (باشا) فقد اتجه ، الى الترجمة وتنبه الى احياء التراث العربى . وأخذ الخط الذى اختطته المدرسة التى اتصلت ببيئات المستشرقين والباحثين الأجانب واكتفت بالعمل الفكرى كوسيلة من وسائل تنوير الأذهان ، ولعل أبرز من مضى فى هذا الاتجاه أحمد تيمور باشا الذى عكف على العمل من أجل جمع واحياء ومراجعة التراث العربى والشيخ طاهر الجزائرى (دمشق) والأب لويس شيخو اليسوعى (بيروت) ثم محمد كرد على (دمشق) والأب أنستاس الكرملى (بغداد) . فقد عملت هذه المدرسة فى العالم العربى على احياء التراث العربى الاسلامى .

وتيمور باشا المولود ١٨٧١ وزكى باشا المولود ١٨٦٧ كانا فى مصر فرسى رهان فى جمع نوادر المخطوطات ، وكنوز المؤلفات العربية القديمة . وقد اتصلا بمكتبات الآستانة والمغرب والحجاز واليمن . واستحضرا هذه الآثار بالتصوير الفوتغرافى من باريس ولندن وروما .

غير أن تيمور باشا كان ثريا يملك أربعة آلاف فدان من أجود الأطيان ، مما كان يعينه على دفع أى مبلغ ، بينما كان زكى باشا أقل ثروة ، ولكنه أبعد مدى وجرأة فى السفر والترحال والبحث، واسع الحيلة فى الحصول على الكتب والمخطوطات وقد كان تيمور باشا عاكفا على خزانته يعمل فى أناة وصمت ، بينما كان زكى باشا يوالى صيحاته على صفحات الصحف كلما عثر على كشف جديد ، أو رأى مثير . مع انشغال بالأعمال السياسية ،

وحب للظهور والتبريز ، يقابله تواضع وازورار على الناس عند تيمور باشا .

وقد كان من نتيجة هـذا أن ترك تيمور باشا عشرات من المؤلفات المخطوطة ، ما تزال تطبع حتى الآن ، بينما لم يترك زكى باشا الا مؤلفات قليلة ، وترك كل تراثه وآثاره مدفونة فى بطون الصحف والمجلات خلال أكثر من خمسين عاما .

ولا شك أن زكى باشا رائد فى مجال البعث والاحياء العربى أتاحت له اتصالاته بدوائر الباحثين والمستشرقين فى المجمع العلمى المصرى والجمعية الجغرافية الى اقتناص مكانة بارزة فى هـذا المجال والسير فيه ، على نحو استطاع معه خلال عام ١٩١١ أن يحقق نجاحا كبيرا ، حينما أذعنت (وزارة المعارف) له وأخذت برأيه وقررت اعتمادا لاحياء الآداب العربية ، وتولى زكى (باشا) هذا العمل وكان من قبل قد ساح فى الآستانة وأوروبا باحثا عن المخطوطات ، ناقلا اياها بالفوتوغرافية مما حقق أغناء الأدب العربى بآثاره الدفينة ونفع الأمة بها .

ولقد تأثر زكى باشا بحركات ثلاث سبقته :

الأولى — النهضة التى حمل لواءها رفاعة رافع الطهطاوى ى مجال الترجمة ونقل الآثار الأدبية والفكرية الفرنسية .

ثانيـا — النهضة التى قادها السيد جمال الدين الأفغانى فى تحرير الفكر والايمان بالشرق . وحقـه فى

الحرية والكرامة ، واستثارة أمجاده وتراثه وتاريخه المرتبط بالعروبة والاسلام .

ثالثا — النهضة التى تصدر لها محمد عبده فى تحرير الأسلوب العربى من التقليد وتوجيه الكتابة الى المضمون والهدف بدون مقدمات ولا سجع ولا زخارف أو محسنات لفظية .

وقد بلغت أصداء هذه النهضة زكى (باشا) فى مطالع شبابه فقد نفى جمال الدين من مصر عام ١٨٧٩ ، وظلت آثاره تدوى فى كل مكان ، وكانت الثورة العرابية من آثار صيحته . وقد عاش جمال الدين حتى توفى عام ١٨٩٣ ، ولم تنقطع خلال هذه الفترة أخباره عن مصر ، وهو يتنقل من مصر الى فرنسا الى روسيا الى بريطانيا حتى استقر به المقام فى استانبول .

وكانت آثاره الفكرية واضحة أشد الوضوح فى الصحافة المصرية ، وفى أفكار تلاميذه التى تبلورت فى على يوسف وسعد زغلول ومحمد عبده وابراهيم اللقانى ورشيد رضا وعبد العزيز جاويش وحفنى ناصف واسماعيل صبرى ورفيق العظم وشكيب أرسلان وأحمد تيمور وعبد القادر المغربى ، هذه الأفكار عاشت فى أعماق ، أحمد زكى على نحو ما ، وتبلورت فى هذا العمل الذى توفر عليه ، والذى تكشف من بعد عن اتجاه واضح ، ورسالة صريحة فى الدفاع عن مقدرات الأمة العربية ، وتراثها وثروتها الأدبية والتاريخية .

ويمكن القول بأن النهضة العربيــة التى أوقد جــذوتها جمال الدين الأفغانى قد كشفت عن ثلاثة ميادين للعمل :

١ — العمل لتحرير الوطن .

٢ — العمل لتحرير الدين .

٣ — العمل لبعث التراث العربى والتحقيق العلمى فى مجال اللغة العربية والتاريخ ، وقد كان زكى باشا من هذا الفريق .

وقائع حياته

١٨٦٧ [1]ولد بمدينة الاسكندرية .

١٨٨٧ نال أجازة الحقوق .

١٨٨٧ عين مترجما بمحافظة السويس .

١٨٨٩ عين مترجما لمجلس النظار .

١٨٩٠ اختير عضوا فى المجمع العلمى المصرى (الجمعية الجغرافية فيما بعد) .

١٨٩٢ حضر مؤتمر المستشرقين فى (لوندره) نائبا عن الحكومة المصرية .

١٨٩٢ زار الأندلس وطاف أوربا .

١٨٩٤ حضر مؤتمر المستشرقين فى جنيف .

١٨٩٧ عمل سكرتيرا ثانيا لمجلس النظار .

١٩٠٠ حضر معرض باريس وألف عنه كتابه «الدنيا فى باريس» .

---

(١) ذكر عيسى اسكندر المعلوف (مجلة المجمع العلمى العربى م ١٣ ــ ص ٣١٨) أنه ولد عام ١٨٦٦ ، وذكر يوسف أسعد داغر فى كتابه (مصادر الدراسة الأدبية) انه ولد عام ١٨٦٠ والذى عليه اجماع المؤرخين والكتاب انه ولد عام ١٨٦٧ م الموافق ١٢٨٤ هـ

١٩٠٢ حضر مؤتمر المستشرقين فى هامبورج بألمانيا واتفق مع المسابك لاختصار صندوق الحروف العربى .

١٩٠٤ رحلته الى باريس ، ومناقشاته مع المستشرقين (اقرأ تفاصيلها فى فصل رحلاته) .

١٩٠٦ عمل تشريفاتيا للجناب الخديو[٢] .

١٩٠٨ عين سكرتيرا عاما للجامعة المصرية (القديمة) ومدرسا لتاريخ الحضارة الاسلامية .

١٩٠٨ سافر الى الآستانة للبحث عن المخطوطات .

١٩٠٩ اختير عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق .

١٩١١ عمل سكرتيرا عاما لمجلس النظار .

١٩١١ نقل مكتبته الى دار الكتب (الخزانة الزكية) .

١٩١١ تولى مشروع احياء الآداب العربية .

١٩١٢ حضر مؤتمر المستشرقين فى أثينا رئيسا لوفد مصر .

١٩١٦ أنعم عليه بالباشوية .

١٩٢١ أحيل الى المعاش .

١٩٢٢ نقل مكتبته الى قبة الغورى .

١٩٢٤ زار الشام وحلب ودمشق .

---

(١) لا يذكر كثير من الباحثين هذا العمل فى وقائع حياته . وقد ذكره شفيق باشا فى موسوعته (مذكراتى) جـ ١

١٩٢٤ دعا الى تأليف الرابطة الشرقية .

١٩٢٦ سافر الى اليمن والحجاز مندوبا عن الرابطة الشرقية للسفارة بين ملكيها .

١٩٣٠ زار بيت المقدس .

١٩٣٣ زار فلسطين ومعه مسودة كتاب مسالك الأبصار .

١٩٣٤ توفى .

ى بن ابراهيم بن عبد الله
، ودفعته الى هـذا الطريق

زلوا ثغر يافا أولا ، ثم نزح
لتجارة . ووالدته من بيت
بدى البواب ، من ضواحى

شقيقه « محمود رشاد »
ة مصر الابتدائية الأهلية .
ية الأب ، مصرى من ناحية
ه فلسطينى الأصل .
القربية بالقـاهرة ، ثم فى
المسماة بالمدرسة الخديوية
الادارة — التى سميت من
بعد مدرسة الحقوق — وتكشف هذه الفترة من حياته عن عوامل كثيرة فى شخصيته ، كانت بعيدة الأثر فى حياته . فقد ظل وفيا لشقيقه « محمود رشاد » لا يذكره الا بالاجلال والاكبار ويعبر عن ذلك بقوله « والدى الشقيق » .

وقد كان محمود رشـــاد (المولود ١٨٥٤) والذى يكبر زكى باشا بثلاثة عشر عاما ، باحثا حقوقيا أديبا ، له رحلات وأبحاث عمل أول أمره ضابطا فى الجيش ، ثم مفتشا فى وزارة المعارف وقد اشترك فى مؤتمر المستشرقين الدولى بڤينا ، وكان من رجال المحاكم الأهلية ، ترقى الى أن أصبح رئيسا لمحكمة مصر .

وكانت له مكتبة ضخمة ، لعل أحمد زكى قد نظر فيها أول شبابه ، فقد نشأ فى هذا الجو الفكرى فتطلع اليه واتصل به ، ومضى فيه شوطا أطول من شوط شقيقه الوالد .

ولمحمود رشاد كتب متعددة منها بحث فى دار لقمان . وكنوز الذهب فى التربية والأدب ، ورحلة الى روسيا . وله مجموعة مقالات فى الأهرام تحت عنوان « المرسيليات » كتبها وهو فى مرسيليا .

وكان فى حياته العملية مثالا للنزاهة ، حتى أنه آثر الاستقالة فى ظرف أحس أن هنـــاك ضغطا على ضمير القـــاضى ، وذلك عندما قدمت الحكومة الكاتب الألمعى الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير العلم الى القضاء ، وكانت المعية الخديوية ودار الوكالة البريطانية تنتظران الحكم عليه وسجنه ، ولكن محمود رشاد أصدر حكمه ببراءته ، بناء على حيثيات وأسباب أوردها فى قرار الحكم ، دلت على صلابته فى الحق وشجاعته .

ويبدو أنه أحس عدم الرضا عنه فآثر الاستقالة من منصبه ، غير أن الجهات المسئولة خشيت أن تكشف هذه الاستقالة موقفها

فرجاه سعد زغلول وزير الحقانية — اذ ذاك — أن يرجع الى منصبه فألح فى الرفض .

وأرادت الحكومة استرضاءه بالانعام عليه بالباشوية ، فلما علم بذلك كتب يعتذر عن قبولها ، بل تجاوز الاعتذار الى التهديد، وقال انه اذا أصرت الحكومة على الانعام عليه فانه يغادر البلاد فورا .

وكتب الى داود بركات رئيس تحرير الأهرام فى خطاب خاص يقول كيف أقيد نفسى بهذه الرتبة ، وأتنازل عن حريتى ، فلا أتمكن من ركوب الترام فى الهواء الطلق بين الناس وأضطر الى ركوب الدرجة الأولى التى تضيق الصدر .

ثم ان الباشوية ستحرمنى أكل السمك اللطيف والطعمية اللذيذة بدكان الحاج حسين بشارع كلوت بك ...

وعكف محمود رشاد بعد اعتزاله القضاء على الرحلة ، فساح فى الشرق والغرب وكان رحلته الى روسيا والقوقاز دليلا على الجرأة وقوة العزيمة ، وكان ينشر خواطره فى جريدة المؤيد .

ثم ساح بعد الحرب العالمية الأولى فى أوربا ، وأرسل للأهرام فصولا وخواطر وكان الى ذلك راوية لأخبار العرب وأشعارهم ، عالما بتاريخهم ، سميرا لاخوانه ، فكه الحديث .

وقد كان فضله على زكى باشا بالغا ، فقد كفله ورباه وعلمه ، وكان زكى باشا وهو أرفع منصبا من شقيقه ، يجلس منه مجلس الابن من الوالد ، والتلميذ من الأستاذ ، بارا به .

ولا شك أن كل الخطوط العامة لاتجاه أحمد زكى الفكرى

تبدو واضحة فى محمود رشاد ، فهو بلا شك امتداد له على نحو أعمق وأوسع مجالا ، فى ميادين عدة :

١ — مطالعات أخبار العرب وتاريخهم .

٢ — الرحلة والسفر .

٣ — الفكاهة والسخرية .

٤ — الاعتزاز بالنفس ، والجرأة فى ابداء الرأى .

وقد صور أحمد زكى من خلال سطور من أبحاثه وكتاباته « صور العصر » ولون تلك الحياة التى كان يحياها فى هذه الفترة يقول : (١) دخلت الخديوية على أثر مجيئى من بنى سويف وكانت هى المدرسة التجهيزية الوحيدة فى القطر ، أما ذكرياتى عن نفسى فتتلخص فى تفوقى فى اللغة العربية ومهارتى فى حل أعاريبها . وانى لأذكر يوم طلب الى اعراب هذا البيت :

ألف الكتابة وهى بعض حروفها
لما استقام على الجميع تقدما

فأعربته ولكنى مع الأسف لم أعرف المعنى » وتحدث عما أسماه « غلبة الروح العابثة للشباب النزاعة الى اللهو والمجون ، على كل عواطفى » فقال : « كان من أصدقائى فى المدرسة الحاج على لبيب ، والدكتور بيومى فتحى ، وكنا نحن الثلاثة ننساق تحت شجرة « جميزة » ، وكانت فوق ساقية بفناء المدرسة ، وكان يحلو للدكتور بيومى النوم عليها فكنت أنتظره حتى ينام ، ثم

---

(١) فى حديث مع كمال حموده ١٩٣٤/٨/١٨ ــ الأهرام .

أدفعه فيقع على الأرض ، وقد ضبطنى الضابط محمود أفندى وهبى وأودعت الزنزانة .

... أما الليل فكنا نقضيه فى سماع مطـربى ذلك العصر : يوسف المنيلاوى وألمظ ، ومحمد عثمان ، والشنتورى . وكنا نعرف جميع أماكنهم بالذهاب الى تمثال ابراهيم باشا ، حيث يجلس هناك بائعو اللب والفول ، وهم خير من ينبئونك بأماكن هؤلاء ، عندما تشترى بالقرش ، وكنا نستمر فى الجلوس معجبين بهذا المطرب ، الى أن يقول لهم (الفجر لاح قوموا يا تجار النوم).

وهنا تعجب كيف يمكننا دخول المدرسة فى هذه الآونة ، فقد كنا عند خروجنا من المدرسة قد اتفقنا مع بعض الاخوان الذين سيبكرون فى العودة الى المدرسة حتى يكونوا على استعداد لمساعدتنا عند مجيئنا ، وعند الدخول تدلى الينا الملاءات المربوطة من أطرافها بالحبال، ويجلس فيها الشخص ثم يشد الاخوان الحبل من أعلى فيطلع اليهم سالما وهكذا حتى يطلع الجميع ، وعندنا يحضر الضابط النوبتجى يرى الجميع فى أماكنهم .

وقال زكى باشا ان (الزنزانة أكلت منى رات) وأنه تمتع بجميع العقوبات المدرسية : كالعيش الحاف ، والجلوس ديز ، والزنزانة .

وتكشف هذه « الاعترافات » عن ملامح شخصية أحمد زكى التى عرفت فيما بعد بوضوح ، فهو يصف دائما نفسه بأنه «ماكر».

وقد عرف عنه السـخرية والتهكم ، والتطلع الى المرح والفكاهة ، واحداث المقالب لأصدقائه .

وهذه صورة أخرى من مطالع حياته تكشف عن جانب آخر من شخصيته يقول : حكاية وقعت لى سنة ١٨٧٧ (فى سن العاشرة) كنت طفلا يرعانى أخى وسيدى وأستاذى (محمود رشاد بك) ، كنت أسكن معه فى شقة تطل على تحت الربع فاذا جن الليل كان أخى يجتمع مع أصدقائه ، سليم باخوص ، والشيخ محمد دياب ، والشيخ حفنى ناصف ، وأحمد حجازى (الذى عرف بأحمد أفندى سمير) ويحيى ابراهيم .

أما أنا فكنت أبادر بعد تناول العشاء الى قهوة الشاعر (شاعر أبو زيد الهلالى سلامة) ، فأجلس فى مكان بعيد ، أطرب مسامعى بصوت الرباب ، وأشنف آذانى بوقائع الحروب . على أن هذه (العادية) [٢] قد سببت لى لطمة لا أزال أذكرها من يد أخى وولى نعمتى .

ويقول : انه كان يدعى للجلوس مع أصحاب شقيقه الأكرمين على السماط ، وكانوا يدللونه ويعللونه بالمكافأة ، اذا أجاب على أسئلتهم ، فكان (أحمد سمير) يسأل عن معنى بيت من الشعر ، وكان (حفنى ناصف) يطالبه باعراب آية من القرآن ، وكان (الشيخ دياب) يطالبه بحل مسألة هندسية ، أما (سليم باخوس) فكان يمتحنه بترجمة جملة قصيرة من الافرنسية الى العربية ، أما يحيى ابراهيم فقد اختص بالجغرافية » يقول « فاذا أحسنت

---

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ١٩٣٠/٥/٢١ .

(٢) هكذا كتبها وهى العادة .

الاجابة أتحفنى شقيقى بقرش صاغ عن كل سؤال وهو شىء كثيرا جدا حتى توفر لدى ١٩ قرشا .

وقد تعرض مرة للحديث عن أبى زيد الهلالى سلامة وانتصر للزناتى خليفة ، يقول : فأخذت أعيد عليهم ما سمعته من الشاعر ، وأظهر تألمى لعدم انصافه (أى الزناتى) ، بينما كان أخى يتململ من الحديث ، وأنا مسترسل فى دفاعى مترنما ببيت من الشعر طالما ردده شاعر القهوة :

دنيا دنيـة لا أرشد الله بغالهـا

بتاخد وتعطى وما لها من يحاسب

واذا بشىء لم يكن فى الحساب ، وهى لطمة قوية خلت نفسى معها فى يوم الحشر والحساب » .

وتعطى هذه الصورة علامات الذكاء وبوارقه فى مطالع حياة أحمد زكى واتصال ذلك بالتاريخ العربى عن طريق الأسطورة .

* كما كشف أحمد زكى عن جانب آخر من حياته فى مدرسة الادارة يقول :

انهم[1] صححوا اسمها المغلوط سنة ١٨٨٦ فجعلوه مدرسة الحقوق . وفى هذه المدرسة التقى بالشاعر أحمد شوقى وعثمان مرتضى .

وكان أستاذهم الشيخ « محمد البسيونى البيبانى » من علماء

---

(١) ذكر هذه الألقاب على صدر رسالة الرق فى الاسلام التى ترجمها عام ١٨٩٢ ثم أضاف اليها عام ١٨٩٣ كلمة « وأحد أعضاء الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر التاسع لعلماء المشرقيات بلوندره » .

الأزهر المعدودين ، يدرس لهم فنون البلاغة ، وكان متخصصا فى نظم القصائد فى مدح الخديو توفيق .

والشيخ البسيونى — كما يروى زكى باشا — هو الذى تحدث الى الخديو عن نبوغ شوقى ، ويتصل بهذا نبوغه — أى أحمد زكى — فى الترجمة ، تقدم لامتحان وظيفة مترجم لمحافظة الاسماعيلية عام ١٨٨٧ (فى سن العشرين) ، وعين بمرتب قدره ١٣ جنيها ، ثم تقدم بعد ذلك بعامين (١٨٨٩) الى مسابقة أخرى لوظيفة مترجم فى مجلس النظار ، ففاز بالسبق ، وعين بمرتب قدره عشرون جنيها .

وبدخوله مجلس النظار مترجما امتدت حياته الوظيفية الى أن أصبح سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء حتى عام ١٩٢١ .

وقد جمع الى ذلك تدريس الترجمة فى المدرسة الخديوية ، وعضوية الجمعية الجغرافية ، وأستاذ اللغة العربية فى الارسالية العلمية الفرنساوية .

وكان نبوغه فى الترجمة مضرب الأمثال ، فقد كانوا يدعونه الى الاحتفالات ، حيث يتحدث بعض المستشرقين أو العلماء الغربيين باللغة الفرنسية ويقوم أحمد زكى بالترجمة أولا بأول .

ويشير (أحمد فهمى العمروسى) الى هذه الخلة من خلاله فيقول :

كنت طالبا فى مدرسة المعلمين التوفيقية ، وناظرها اذ ذاك مسيو (بينيه) وكان من دأبه أن يطالعنا من آن لآن بعظيم من عظماء الرجال من مختلف الأجناس ولشد ما كان مغتبطا اذ حضر

لنا ذات يوم ومعه شاب مصرى نشيط الحركة ، قوى البنية ، بهى الطلعة تبدو على ملامحه أمارات النبوغ ، وملامح العبقرية ، فقال ان هذا الشاب آية من آيات النبوغ فى الترجمة ، ويترجم أمامكم قطعة فرنسية الى العربية على البديهة وفى الحق أنه كان آية اعجاب ، اذ فتح كتابا فرنسيا كان فى أيدينا ، وأخذ يتلو علينا بمجرد النظر وعلى البديهة ما فيه بلسان عربى مبين .

وأشار العمروسى الى أنه فعل ذلك فى رثاء المستشرق الفرنسى (كازانوفا) بكنيسة القديس يوسف بالقاهرة من بضع سنوات ، اذ نهض بعد أن أتم قومه مراثيهم بالفرنسية من أوراق يتلونها فأبنه .

فى ميـــدان الفكر

عاش أحمد زكى (باشا) فى ميدان الحياة الفكرية والسياسية نيفا وأربعين عاما (١٨٩٢ — ١٩٣٤) واعتقد أن مجال حيـاته الفكرية قد تحدد بحضوره مؤتمر المستشرقين (التاسع) فى لندره عام ١٨٩٢ فى نفس العام الذى تولى فيه الخديو عباس زمـام السلطة ، وهو نفس العام الذى انتعشت فيـه الحياة الفكرية المصرية بظهور عدد كبير من الصحف والمجلات ، كما بدأت فيه مطالع اليقظة السياسية بظهور مصطفى كامل ودعوته الوطنيـة ذات الطابع الحماسى العاطفى الذى أيقظ النفوس ، ورد اليها الأمل فى كلمات متلألئة مشرقة وجدانية ..

وكان انتداب أحمد زكى لهذا العمل مسبوقا بجولات له فى الميدان ، أعدته لهذه المهمة ، وكان شقيقه (محمود رشاد) قد مثل مصر قبل ذلك بسنوات فى أحد هذه المؤتمرات ، التى كان يختار لها أهل العلم والفضل والقادرون على مواجهة المستشرقين والباحثين الغربيين .

ومن هذه النقطة بدأت صلات زكى (باشا) الواسعة المتعددة مع المستشرقين والباحثين الغربيين فى مختلف أنحـاء أوروبا ، فأخذ يراسلهم ويباحثهم فى المخطوطات العربية العديدة الموجودة فى مكتبات العالم المختلفة ، ومن هنا بدأ رحلته الطويلة للبحث

عن التراث العربى ، ونقله أو تصويره ، ومنها بدأ تكوينه للخزانة الزكية .

وبالجملة فان هدفه الذى عاش من أجله طوال حياته الفكرية قد تحدد متمثلا فى تحقيقات تاريخية وجغرافية ولغوية للتراث العربى كله ، وجمع ما أمكن الجمع لهذه المخطوطات ومراجعة دقيقة لها .

وقد أخلص زكى باشا الاخلاص كله لهذه الغاية وتجرد لها ، فكانت شغله الشاغل وعمله الأول والأخير ، ولم تحل أعباء العمل الرسمى الذى وكل اليه ، والذى اتسع فيما بعد دون هذه الغاية .

فقد كان يخرج من الديوان فى ساعات الظهر ميمما شـطر مكتبته الزكية فى بابها الخاص من دار الكتب ، فيمضى بقية يومه الى المساء ، يتناول طعام غذائه وقهوته ونرجيلته ، وهو قارىء باحث مراجع ، يكتب تعليقاته على هوامش الكتب ، أو ينقل منها فى جذاذاته التى تضخمت وتعددت ، والتى كانت عونه فى الاجابة فى مثل رد الطرف على ما يوجه اليه من أسئلة ، أو يجده مكتوبا فى الصحف من أسئلة وآراء أو برقيات .

وهكذا يمضى يومه حتى يعود منهكا الى داره فى المساء ، ليستقبل عشرات من الأصدقاء والأعلام القادمين من مختلف أنحاء العالمين العربى والاسلامى ، ليسمر معهم طويلا ، وليمتد بعد ذلك سماطه التقليدى بالعشاء .

وفى خـلال ذلك لا تتوقف المناقشات ولا الأبحـاث

ولا المراجعات حول أدق المسائل فى تاريخ العرب والاسـلام ، وأسماء الأعلام والبلدان ، ودقائق اللغة .

فاذا أقبل الصيف كان زكى (باشا) قد أعد عدته لرحلة الى الآستانة أو أوربا بحثا وراء المخطوطات ، ومعه « الفوتغرافية » ينقل بها ما يشاء من هذه المؤلفات ويدفع غاليا فى سبيل الحصول عليها . وليس هو بالرجل الثرى ولكنها الهمة والايمان بالعمل الذى تصدى له ، والذى ظل مكبا عليه ، حتى تحقق له عام ١٩١١ أن تذعن الدولة لرأيه ، وأن يجد فى (أحمد حشمت باشا) وزير المعارف اذ ذاك مجيبا لدعوته الى احياء الآداب العربية ، فيأخذ المشروع طريقه ويحقق نجاحا كبيرا فى طبع عدد كبير من المؤلفات العربيـة .

ويواصل (زكى باشا) عمله من أجل الأحياء ، فهو متطلع كل صباح الى الأهرام ، يقرأ الوفيات فما أن يعلم بوفاة واحد من الكبار أو الثراة حتى يبحث عن آثاره وكتبه فيشـتريها بالاشتراك مع صاحب مكتبة الخانجى ، ويضم الصالح منها الى مكتبته التى تضخمت حتى بلغت عام ١٩١٩ أكثر من ألفى مجلد وزادت بعد ذلك حتى بلغت ١٨ ألفا .

وقد شغل هذا العمل (زكى باشا) طوال حياته ، وكان أعظم ما فيه هو مراجعة هذه الآثار الأدبية وقراءتها ، واسـتيعابها ، واستخراج النصوص المختلفة فى فنونها وموضوعاتها فى جذاذات بلغت الألوف ، كان يعدها زكى باشا فى أدراج خاصة ويضيف

اليها ، ويجعلها عدته فى مراجعة الباحثين فيبزهم بالجديد والمثير مما لا يصلون اليه ، لأنه لا يوجد الا فى مكتبته هو .

وحقق لزكى باشا الاستمرار فى هذا العمل والاتفاق عليه أمران هامان هما ميراثه لتركة شقيقه (محمود رشاد) التى بلغت فيما يقال أكثر من اثنى عشر ألفا من الجنيهات وثروة زوجته التى كانت من أسرة عريقــة ثرية هى أسرة « طوسون زعيم زادة » سر تجار الجيزة .

وقد عنى (زكى باشا) بأن يكشف بين آن وآن جانبا من جوانب هذه الحقائق العلمية التى كان يصل اليها فى مراجعاته ، فى مقالات مثيرة أو محاضرات مستفيضة يكتبها فى الأهرام أو المقطم أو المؤيد أو يلقيها فى الجمعية الجغرافية أو أى ناد آخر .

وهو فى كشفه عن هذه « الجوانب الغامضة » لا يتحرج من أن يقدمها بروح الازدهاء والتفاخر ، ومع قدر كبير من الفكاهة والتشويق والتبسط ، بل يمكن القول أن عمل زكى باشا فى مجال الفكر والتحقيق العلمى كان مرتبطا الى حد كبير بالكشف عن الجوانب الغامضة ، واثارة القضايا الضخمة ذات الدوى العاصف ، والتى ما أن تذاع حتى تحدث ضجة كبرى ، وتعليقات متعددة ، ومراجعات وانتقادات .

ثم لا يلبث زكى باشا بعد أن تهدأ الضجة أن يثير ضــجة أخرى بكشف علمى آخر أو تحقيق آخر .

وهكذا كأنه موكل بأن يذكر الناس به ، ويحدث الضــجة

التى تدور حول ما يستطيع أن يسبق به ويحرزه من علم ونصوص توجد عنده وحده ولا توجد عند غيره .

من أجل هذا استطارت شهرته فى كل مكان ودوى اسمه فى أنحاء العالم الاسلامى والعربى ، وراسله الكثير من الأعلام ، سائلين عما غمض من تاريخ العرب والاسلام ، وكان يجيب هؤلاء وهؤلاء مزدهيا قائلا :

« عنى وعنى وحدى خذوا الخبر الصادق » ..

وقد كان زكى باشا حتى عام ١٩٢١ مقلا فى هذه المراجعات والمساجلات ، حيث كانت تشغله أعباء عمله الوظيفى ، ومطالعاته المتصلة ومراجعاته ، واعداد جذاذاته ونصوصه ، وشراء الكتب ونسخها ونقلها بالفوتغرافيا ، فما أن أتيح له أن يتفرغ بالاحالة على المعاش حتى سفر عن هذا الجانب ، وألقى بكل ثقله فى ميدان البحث العلمى فما تكاد تخلو صحيفة أو مجلة من بحث له أو معه ، ومن قضية مثارة ، أو مسألة له فيها رأى ، وكانت صحيفة الأهرام فى هذه الفترة مجاله الأوسع ، وميدانه الطليق . ففى صفحتها الأولى كانت تنشر مقالاته وتعليقاته التى كان يرسلها الى الجريدة فى أى وقت حتى منتصف الليل .

وعلى صفحات هذه الجريدة — التى كتب فيها منذ عام ١٨٩٢ فصول رحلته الى أوربا والأندلس أول مرة — أثيرت عشرات التحقيقات ، ودقائق الأبحاث .

ومع ذلك فقد كتب (زكى باشا) فى المقطم والبلاغ والمؤيد من قبل فصولا متعددة وفى مجلات الهلال والمقتطف والمعرفة

والشورى والمجمع العلمى العربى (دمشق) والمجلة الجديدة وغيرها عشرات الأبحاث .

وجملة القول أن زكى باشا عالج مئات الموضوعات وصحح عشرات الأخطاء وراجع ألوف أسماء الأعلام والمدن ، ولكنه لم يعالج موضوعا كاملا من موضوعات العلم أو بحثا شاملا من أبحاث التاريخ أو اللغة حتى بلغ من أمره ابان معركة اللغة العربية عام (١٩٠٧ وما بعدها) أنه لم يدل بدلوه أو يتحدث عن هـذه القضية على النحو الذى يدل على أنه مشغول بها فقد كانت تستغرقه فى هذه السنوات أعمال احياء التراث ومراجعة ما أخرجه منه وما أعاد طبعه ، وهو كثير . وقد تكلف جهدا ضخما شهد به كل من عاصره أو قرأه من بعد .

ويمكن القول بأن « همّ » زكى (باشا) كان فى الأغلب هو الكشف عن نوادر الكتب ثم الكشف عن المدفون من الآراء والأفكار والتواريخ والوقائع واعلانها فى ضجة كبرى ، وتأكيد القول بأنه سبق العلماء الى ابرازها وتحقيقها ، وكان فى ابراز هذه الحقائق جريئا لا يبالى اذا ما صدمت هذه الحقائق ما تواضع الناس عليه من معتقدات أو عرف أو تقاليد أو موروثات .

العمل الفكرى

يمكن تقسيم عمل زكى (باشا) الأدبى الى مراحل متصلة بمراحل حياته ذاتها . فقد بدأ عمله الفكرى بالترجمة واحياء التراث والتأليف فيما يتصل بالتحقيق التاريخى واللغوى للأعلام والمدن وغير ذلك . وكان أبرز أعماله فى هذه الفترة اختصار حروف الطباعة وادخال نظام الترقيم الغربى الى الكتابة العربية ، وقد أتيح له أن يحضر فى هذه الفترة عددا من مؤتمرات المستشرقين ، كما توالت رحلاته فى سبيل البحث عن المخطوطات ونقلها بالفوتغرافيا ، واتصل بهذا عمله فى الجامعة المصرية القديمة ، سكرتيرا عاما لها وتدريسه مادة الحضارة الاسلامية عاما واحدا ، وقد كانت هذه هى فرصة تكوين الخزانة الزكية وتنميتها .

ثم توقفت حياة زكى باشا العملية بعد أن بلغ منصب السكرتير العام لمجلس النظار فى عام ١٩٢١ ، فانتهت بهذا المرحلة الأولى من هذه الحياة ، وهى متصلة متماسكة .

وهناك مرحلة أخرى بدأت فى خلال الفترة الأولى ، ولكنها برزت على نحو واضح منذ عام ١٩٢١ حتى آخر حياته ، وهى مرحلة التوسع فى التحقيقات التاريخية واللغوية وأسماء الأعلام ، وتاريخ الأندلس وما يتصل به . وهى مرحلة عريضة خصبة بعيدة المدى ، نشر فيها زكى (باشا) عشرات المقالات فى الأهرام والمقطم ،

وكثير من المجلات الشهرية والأسبوعية فى مصر وفى العالم العربى.

واتسمت هذه المرحلة ببروز جانب المساجلة والمعارك ، فيما يتعلق بالقضايا التى كان يعرض لها ، والزوايا التاريخية التى كان يكشفها ، مما كان يثير ضجة وجدلا كبيرين .

وسنتحدث عن هذه الجوانب من أعماله الفكرية فى أبواب متعددة هى :

١ — الترجمـة .
٢ — التأليف .
٣ — احياء التراث .
٤ — حروف الطباعة والترقيم .
٥ — اصلاح لغة الدواوين .
٦ — مؤتمرات المستشرقين .
٧ — فى الجامعة .
٨ — الرحـلة .
٩ — (الفردوس الاسلامى المفقود) .
١٠— المكتبة الزكية .

ثم تفرد بابا كبيرا لعمله فى المرحلة الأخيرة من حياته يتكون من فصلين :

١ — التحقيقات التاريخية واللغوية .
٢ — مساجلاته ومعاركه .

١ ـ الترجمـــة

كانت الترجمة من أعمال أحمد زكى الأولى التى استهل بها حياته ، وقد قدم للغة العربية عددا من المؤلفات أهمها :

١ — أربعة عشر يوما سعيدا فى خلافة الأمير عبد الرحمن الأندلسى (عن الفرنسية) مصر سنة ١٨٨٦ .

٢ — نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الاسلام (تأليف محمود باشا الفلكى) ١٨٨٨ .

٣ — رسالة المعــارف العمومية فى الديار المصرية ما يلزم ادخاله من الاصلاحات الضرورية (تأليف محمد سعيد) ١٨٨٨ (مصر ١٣٠٥ هـ) .

٤ — الرق فى الاسلام (تأليف أحمد شفيق) ١٨٩٢ (بولاق ١٣٠٩) هـ .

٥ — مصر الجغرافية (بولاق ١٣١٠ هـ) تأليف الدكتور فريدريك نوبتولا سنة ١٨٩٣ .

٦ — تاريخ المشرق (تأليف ماسبيرو) ١٨٩٧ .

وهذه الأبحاث ترجمها فى الفترة ما بين (١٨٨٦ — ١٨٩٧) ثم أتيح له بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات أن يعود الى الترجمة حين دعى الى تقديم بعض انتاجه الى جريدة (الجريدة) عند صدورها ، فاختار ترجمة قصتين على رفرف الجريدة ، الأولى « السفر الى القمر » لجول فرن ، بدأت الجريدة نشرها فى العدد الأول (٩ مارس سنة ١٩٠٧) .

والأخرى قصة « قبيل الاعدام » لفيكتور هيجو ، بدأ نشرها يوم ١٠ مارس ١٩٠٧ واستمرت القصتان تنشران يوميا .

والمعروف أن أحمد زكى كان يجيد الفرنسية اجادة تامة وأنه بدأ عمله الرسمى مترجما وكانت له براعة فائقة شهد بها الكثيرون وهو يقرأ الصفحة المكتوبة بالفرنسية فينقلها على لسانه باللغة العربية الفصحى .

وقد لقيت ترجماته تقديرا وافرا من النقاد والباحثين ، وتناولتها الصحف والمجلات اذ ذاك ، وعنى بها المقتطف عناية كبرى ، وكان أبرز ما فى هذه الترجمات الدقة والتعليق وتصحيح الأسماء .

وقد أشار أحمد زكى (الذى تدرج خلال هذه الترجمات من مترجم أول فى ادارة الجرائد الرسمية ١٨٨٨ الى مترجم مجلس النظار ١٨٩٢ الى سكرتير ثان لمجلس النظار ١٨٩٩) الى خطته فى الترجمة فى مقدمة كتاب « تاريخ المشرق » حيث قال :

« بذلت فى تعريب الخرط ، وضبط أسماء المواقع الجغرافية عناية وتعبا ، لا يشعر بشىء منهما ، الا من كابد مثل هذا العمل الشاق ، الذى يوجب ضياع الأيام بحثا فى المطولات المتنوعة ، والتراجم المتعددة للوقوف على حقيقة اسم واحد ، خصوصا وان هذه الخرط أغلبها يختص ببلاد الشرق ، وقد نقل الافرنج أسماءها محرفة مشوهة أو تعارفوها مختلة معتلة فكان ارجاعها الى أصلها موجبا لتعب كبير ، قد لا يخلو الخائض عبابة من الزلل والتقصير » .

وفى كتاب « الرق فى الاسلام » تحدث عن عمله فى الترجمة فأبان أنه حافظ على المعنى تمام المحافظة ، مع مراعاة القواعد الانشائية العربية والأساليب القولية الكلامية التى تجعلها أهلا للقبول عند الناطقين بالضاد فى جميع البلاد .

وأبرز ما فى هذه الترجمات اللغة العربية الدقيقة ، فالمؤلف قادر على الأداء باللغة العربية ، وهو فى نفس الوقت قادر على استيعاب النص .

وقد علق على هوامش الكتب بشروح وحواش (تاريخية وجغرافية ولغوية) أضاف بها كثيرا من التفصيلات وجلا بها كثيرا من الغوامض ، وهى حواش « ضمت كثيرا من الفوائد المشتتة فى كتب العرب مما اعتاد الناقلون من ألسنة الأعاجم فى هذا الزمان اهمالها » .

وفى كتاب « الرق فى الاسلام » عنى بمراجعات حول الآيات القرآنية والأحاديث والنصوص الفقهية .

ولم يجد كتاب (تاريخ المشرق) من نقد المقتطف غير أن المؤلف كان قليل التدقيق أحيانا فى الترجمة والتحرير ، وأنه ترك ما كتبه المؤلف من فخر زائد بنسبة الفضل فى البحث عن آثار الشرق الى فرنسا وقال أنه كان يجمل بالذين وقفوا على هذا أن يحذفوه اسوة بما فعلوا عندما حذفوا تاريخ بنى اسرائيل » .

ولم يفت أحمد زكى أن يواصل طريقه فى الهوامش حين ترجم القصتين اللتين نشرتهما الجريدة ، فأخذ يضيف معلومات لغوية وتاريخية على هامش الرفرف ، وفى هذه الهوامش فائدة كبيرة

حيث يعرض المؤلف للكلمة الفرنسية وترجمتها باللغة العربية .
ومما يذكر فى هذا الصدد أن بعض هذه الكتب كانت تترجم لتقرر على الطلاب فى المدارس ، ومن ذلك كتاب تاريخ المشرق الذى ترجمه بتكليف من يعقوب آرتين وكيل نظارة المعارف ، وقد عاد زكى باشا بعد ذلك بسنوات طويلة فأشار الى أن فى هذا الكتاب أخطاء وتحريفا ، وهكذا كان تاريخ مصر يكتبه الأجانب من وجهة نظرهم ، ويفرض على الطلاب دون تصحيح لما يرد فيه من مغالطات الا بعد سنوات طويلة .

٢ — التـــأليف

أما جانب التأليف عند أحمد زكى فهو أكثر اتساعا ، وان كانت مؤلفات أحمد زكى باشا لا تعدو أن تكون أبحاثا صغيرة محدودة ، وهى فى مجموعها أشبه بالتقارير ، وقد توقفت تماما عند ١٩١٢ ، فلم يصدر بعد ذلك مؤلفا ، واكتفى بالفصول التى كان ينشرها فى الصحف .

وقد بلغت هذه المؤلفات — وكلمة مؤلف هنا تســتعمل تجوزا — ٣١ كتابا أحصاها « كرد عــلى » فى مجلة المقتبس عام ١٩١٢ .

وأغلب هذه الأبحاث قطاعات من التاريخ ، أراد أن يكشف بها بعض الجوانب الغامضة ، وقد تعمد أن يؤلف بعضها بالفرنسية كاختراع البارود ، وبلاد الفيوم ، وتسامح المسلمين ، والفنون والصنائع الاسلامية فى مصر ، وعلاقات المصرية بالأندلســية ، وأهل الكهف ، وسراديب الخلفــاء الفــاطميين ، والطيران فى الاسلام ، والتجارة فى الاسلام ، ومواساة العميــان ، والعرب واكتشاف أمريكا ، وبقايا العرب الخالدة فى أوربا .

وبعض هذه الأبحاث محاضرات ألقاها أحمد زكى فى الجمعية الجغرافية التى كان عضوا فيها أو فى مجتمعات أخرى .

وله كتابان عن رحلتين هما : (الســفر الى المؤتمر) وهو قصــة رحلته الى أوربا وأســبانيا عام ١٨٩٢ لشهــود مؤتمر

المستشرقين فى باريس ، والثانى (الدنيا فى باريس) وهو عن معرض باريس ١٩٠٠ .

وتضم هذه الأبحاث تخطيطا لعمل زكى باشا فى مجال احياء التراث العربى مثل كتبه :

* موسوعات العلوم العربية .
* تقرير عن الكتب التى خلفها العرب بالأندلس .
* الوسائل الموصلة الى احياء الآداب العربية بالديار المصرية .
* الترقيم وعلاماته باللغة العربية .
* قاموس الجغرافية القديمة .

ثم هناك خطبة فى افتتاح الجامعة ، ودروسه عن الحضارة الاسلامية التى ألقاها عام ١٩٠٨ ، وتبدو فى هذه المؤلفات معالم اتجاهات أحمد زكى فى مختلف ميادين الفكر التى خاضها خلال حياته كلها وخلال عشرين عاما بعد هذه الكتب وهى :

* احياء التراث العربى .
* التحقيقات التاريخية والجغرافية واللغوية .
* الرحـــلة .

ويعد (قاموس الجغرافية القديمة) الصادر سنة ١٩٠١ من أهم هذه الأعمال وهو علامة على أعماله المتصلة بعد ذلك فى ضبط الأعلام العربية وايراد ما يقابل الأعلام القديمة من أســماء ، وتصحيح لعشرات من الأعلام التى حرفها الافرنج ومسخوها ، وظل أحمد زكى يعمل على تصحيحها حتى اللحظات الأخيرة من حياته ، وقد رد كثيرا من الكلمات الى أصولها كالمدينة المسماة

عند الافرنج (موبسوبوست) فانها بالعربية (المصيصة) والجهة المسماة (رد كاسين) فانها بالعربية (رأس التين) وجبل (أرارات) فانه فى العربية جبل الحرث ، ومدينة (الأبيد) أو العبيد فانها بالعربية (الأبيض) .

وفى هذا الكتاب أعلن أحمد زكى أنه يعد معجما كبيرا وافيا فى هذا الموضوع (وأنه اذا نال هذا استحسانا فان ذلك سيشدد عزيمتى لابراز المعجم الكبير الوافى الذى جمعته فى هذ الموضوع المعقـد) .

ومع أن الكتاب لقى تقدير مختلف الدوائر فان أحمد زكى لم يخرج معجمه الكبير حتى توفى ، وما زال مدفونا فى غرفة مظلمة فى عيادة الدكتور زكى بدر بجوار وزارة الأوقاف حتى الآن ، وربما الى أمد طويل .

وقد انتقد (حبيب غزالة) اسم الكتاب (المقتطف مجلد ٢٦ سنة ١٩٠١ ص ٥٣٧) وقال انه لا يحسن اطلاقا التسمية بوجه التعميم (ان جميع ما حواه القاموس انما هو أعلام قديمة أصلها مصرى أو فنيقى أو يونانى مكتوبة فقط بالحروف اللاتينيـة التى هى حروف كل اللغات الأوربية ، كما أورد له عـددا من التصحيحات (مقتطف يونيو ١٩٠١) .

وان كان قد أشار الى أن القاموس لا يستغنى عنه عالم أو أديب وأنه من الضروريات وأن اللغة العربية كانت فى حاجة الى قاموس من هذا النوع .

ويمثل كتاب (موسوعات العلوم العربية) الصادر سنة ١٨٩١

خطة أحمد زكى فى العمل من أجل الكتب ، فقد بحث مزايا علم (الببلوغرافيا) وهو علم وصف الكتب واتقان الافرنج له ، وأسماء الذين فتحوا بابه من المؤلفين فى اللغة العربية أمثال صاحب الفهرست ، وصاحب كشف الظنون ، كما عرض كلمة (انسكلوبيديا) وتعريبها وقد اختار لها كلمة (موسوعات العلوم) التى أطلقها من قبل « الملا حسن بن مصطفى » على كتابه « مفتاح السعادة » .

وأفاض أحمد زكى فى التحدث عن الموسوعات العامة ، ووصف كتاب « احصاء العلوم وترتيبها » لأبى نصر الفارابى ، وكتاب وصف العلوم وأنواعها لأبى حاتم البستى وطبقات العلوم للأبيوردى ، وحدائق الأنوار للرازى .

كما تحدث عن الموسوعات الخاصة ، ووصف كثيرا من الكتب الجامعة لأشتات العلوم ، وتطلع الى طبع هذه المؤلفات .

وفى ختام الكتاب تحدث فى فصل مسهب عن رسائل اخوان الصفا ، وقد نفى أنها من تأليف المجريطى ببيان واف .

وقد دعا أحمد زكى باشا فى كتابه الحكومة الى تخصيص مبلغ من المال لطبع ما لم يطبع من هذه الكتب قبل أن يسلب من البلاد الشرقية أو تحل به نكبة أخرى من نكبات الزمن » ، وقد جاءت هذه الدعوة عام ١٨٩١ وتحققت عام ١٩١١ .

وأعتقد أن لأحمد زكى أبحاثا أخرى لم يضمها هذا الثبت منها (ملحق الأغانى) الذى جمع فيه مافات صاحب الأغانى ومن جاء بعده (وهو لم يطبع) .

ورسالته عن مجالس « المعددات والندابات » فى مصر ، وهو الموضوع الذى قدمه الى مؤتمر المستشرقين ...

وقد حاولت الحصول على هذه الرسالة غير أننى لم أجدها فى دار الكتب وقد جمع أحمد زكى أشعارهن ومراثيهن ، وقال : هذا الموضوع محفوف بالهموم والأحـــزان ، ولكن البحث فيه يكشف القناع لأرباب الاطلاع من علماء الأخلاقيات على بعض أمور تهمهم ...

ربما كان نساء العامة فى مصر المتفردات بالعمل بهذه المواعظ البالغة ومراعاتها بكل دقة ، كأنما هى فرض من الفروض ، وذلك لأنهن فى كل خميس (وهو يوم تجدد الحداد) يتجمعن زرافات زرافات ويسعين فى بعض أزقة العاصمة ساكتات ساكنات كأنما على رؤوسهن الطير حتى يصلن الى دار صديقتهن التى طرق الموت بابها ، واختطف واحدا من أربابها وكلهن يتدثرن بملابس سوداء، ويضعن على رؤوسهن مناديل زرقاء ، فان ذلك هو اللبس الرسمى المقرر عندهن فى مجالس العزاء » .

وأشار زكى باشا الى أن المعددات والندابات فى مصر طائفة منتظمة ما زالت محافظة على مالها من الحظوة والتأثير ، والمرأة منهن تشابه غيرها من النساء ، ولكنها متى تفرغت لوظيفتها دبت فيها حياة أخرى ، وظهرت فى نشأة ثانية بمظهر جديد .

وقال : ان الذى دعانى للاهتمام بهذا الموضوع ما رأيته من عناية أهل البحث والتدقيق من الافرنج بكل ما له صلة بأحوال المشرق ، ولما كان كثير منهم قد يقع فى الخطأ ويجعل للأمور عللا

وأسبابا يعزوها الى الدين الاسلامى عن قصور فهم أو تتبادر الى مخيلته بحسب ما يصوره له الوهم من غير أن يكون له من المعرفة .

فقد أحببت أن أستوفى فى هــذه النبذة كل ما وصــل اليه علمى من بعض عادات قومى فضلا عن الفائدة الأدبية الجليلة ، وهى المحافظة على الأشعار التى تبوح بها المعددات والندابات أثناء الرثاء ، فان فى كثير منها معانى دقيقــة وأفكارا حكيمة ، قد لا يجدها الباحث فى المراثى الشهيرة التى يعمل الشعراء فيهــا فكرتهم ويمضون الأوقات الطويلة فى سبكها ... » .

وقد جمع أحمد زكى فى هذه الرسالة أكثر من ألفى بيت من مراثيهن ولا تزال هذه الرسالة مخطوطة لم تطبع .

وليس شك فى أن مؤلفات زكى باشا فى هذه الفترة — وهى لا تمثل كل اتجاه ولا تطور تفكيره وآرائه من بعد ، تعطى صورة واضحة لمقدرته الفكرية وتطلعاته العلمية . فهى تمثل جميع الجوانب التى خاضها أحمد زكى بتوسع : تحقيق التراجــم ، والمدن والجغرافيا ، والتوسع فى الدعوة الى أمجاد العــرب والكشف عن تراثهم . وفيها صورة رحلاته وأصدقائه ومعارفه وجوه العلمى كله .

ويمكن القول بأن أسلوبه فى الكتابة فى هذه الفترة قد غلب عليه السجع والزخرف وهو ما لم يتخلص منه أحمد زكى الى آخر أيامه تخلصا نهائيا ، وان تخفف منه كثيرا .

وفى كتابة الرحلة حاول أن يدخل أسلوبا جــديدا لم يكن

معروفا من قبل وهو الفكاهة والسخرية والانطلاق بالقارىء فى أجواء بعيدة عن البحث العلمى الصرف . وتلك سنة سار عليها من بعد . ايمانا منه بأن الأبحاث العلمية الخالصة تزعج القراء فى الكتب أو السامعين فى المحاضرات فتصرفهم عنها . لذلك كان حفيا بأن يضيف شيئا من توابل الفكاهة والسخرية وادخال روح المرح على القارىء والسامع دون أن يتعدى بذلك نطاق العلم أو يؤثر فى منطق الحقائق العلمية ذاتها .

وقد نشأ أحمد زكى فى بيئة السجع والزخرف المعروفة فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكنه لم يكن عبدا لهذا النهج . فقد أعانته ثقافته الفرنسية — بالاضافة الى طلوع فجر الأسلوب الجديد الذى عرف به محمد عبده وابراهيم المويلحى وعبد الله فكرى وغيرهم — الى أن يتحرر أسلوبه رويدا وأن يأخذ طابعا خاصا عرف به ، قوامه الدعابة والعاطفة فى طريقة العرض وربما كانت الحماسة غالبة على المضمون دائما ولكن مع ايراد الأسانيد والمصادر العلمية .

ولا شك تعطى مؤلفاته حتى عام ١٩١٢ — وهى فى الأغلب — كل ما طبع له الا النادر القليل مما لم نصل اليه — تعطى صورة العالم الباحث المنطلق الى غاية كبرى قوامها :

* اطلاع علماء الغرب على حقيقة لا شك فيها وهى سبق العرب وفضلهم فى كثير من المجالات ولذلك كانت أغلب هذه المؤلفات بالفرنسية أو بالفرنسية والعربية وكان هدفه من ذلك أن تصل الى هؤلاء العلماء بلغتهم .

* ابراز جانب الاهتمام بالمخطوطات والاحياء الأدبى للتراث العــربى .
* تصحيح أســماء الأعــلام والأماكن والمواقع التاريخية والجغرافيــة .
* العناية بجوانب التاريخ العربى الاسلامى واللغة العربية.
* اصلاح المطبعة وادخال الترقيم .

مؤلفات أحمد زكى

كما أوردها « كرد على » فى مجلة « المقتبس » سنة ١٩١٢

١ — موسوعات العلوم العربية ، وبحث على رسائل اخوان الصفا .

٢ — الدنيا فى باريس (رحلة معرض ١٩٠٠) .

٣ — السفر الى المؤتمر (رحلة أوربا ١٨٩٢) .

٤ — بحث عن اختراع البارود والمدافع وما قاله العرب فى ذلك (بالفرنسية) .

٥ — نقد العهدة النبوية (الموجود صورتها فى دير الطور) بالفرنسية .

٦ — بيان الوسائل الموصلة الى احياء الآداب العربية بالديار المصرية (بالفرنسية) .

٧ — بحث فى طريقة احياء الفنون والصنائع الاسلامية بديار مصر (بالفرنسية) .

٨ — تقرير عن الكتب التى خلفها العرب بالأندلس .

٩ — بحث فى الترجمة العربيـة لكتاب الفيلسوف بمسطوس الذى حاول تجديد الوثنية وعبادة الأصنام (بالفرنسية).

١٠ — بحث عن الفيوم وبلاده فى أيام الأيوبيين (بالفرنسية) .

١١ — كلمة عن محمد على الكبير بمناسبة عيده المئوى .
١٢ — سيرة فخرى باشا .
١٣ — سيرة رياض باشا .
١٤ — تسامح المسلمين مع أهل الأديان الأخرى (المقتبس) .
١٥ — الترقيم وعلاماته باللغة العربية .
١٦ — غرام العرب بالكتب (المقتبس) .
١٧ — قاموس الجغرافيا القديمة .
١٨ — بحث فى علاقات المصريين مع الأندلسيين (بالفرنسية) .
١٩ — تحقيق جغرافى تاريخى عن أهل الكهف (بالفرنسية) .
٢٠ — دروس فى الحضارة الاسلامية .
٢١ — خطبة افتتاح الجامعة المصرية .
٢٢ — فى الأسباب التى ارتقى بها الأسلام .
٢٣ — تاريخ المشرق فى الأزمان القديمة (بالفرنسية) .
٢٤ — بحث عن سراديب الخلفاء الفاطميين بالقاهرة (بالفرنسية).
٢٥ — الطيران فى الاسلام (بالفرنسية) .
٢٦ — محاضرة ارتجالية عن التجارة فى الاسلام (المقتبس) .
٢٧ — محاضرة عن الشام والحرية (المقتبس) .
٢٨ — بحث عن مؤاساة العميان فى دول الاسلام (بالفرنسية).
٢٩ — مصر والجغرافيا (عن الفرنسية) .
٣٠ — العرب وأمريكا (محاضرة) .
٣١ — بقايا العرب الخالدة فى أدرنة والدلائل اللغوية المؤيدة لذلك .

ومع ضخامة عدد هـذه المؤلفات فانها عبارة عن كتيبات وقطاعات مختلفة من الأبحاث لا تمثل عملا أدبيا ضخما كما كان يتوقع أن يقوم به أحمد زكى غير أن أبحاثه التى نشرها فى الصحف والتى تبلغ أكثر من ألف مقال وبحث يمكن أن تكون موسوعة ضخمة فى تحقيقات التاريخ والجغرافيا واللغة .

٣ ــ إحياء التراث

هذا هو العمل الضخم الذى وهب له أحمد زكى نفسه منذ مطالع حياته ، والذى بذل له من اهتمامه وماله كل ما يملك ، وفوق ما يملك . فقد ظل مدينا من جراء شراء الكتب .

وقد كان هذا العمل متمثلا فى الحصول على المخطوطات العربية من روائع التراث العربى المفقودة ، التى حملها الغربيون معهم من الشرق بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد اخراج العرب منها ، هذه المخطوطات التى تعد بالألوف ، والتى هربت الى الغرب ، وتجمعت فى مكتبات عواصم أوربا ، والتى سبق المستشرقون والباحثون الغربيون الى تحقيق عدد كبير منها ، وطبعها بعد اعداد فهارس مفصلة لها ، دراسات شاملة عن موضوعها ومؤلفها .

وقد رأى أحمد زكى بعض هذه المخطوطات التى طبعها المستشرقون ، وتطلع الى أن يقوم بمثل هذا العمل ، وامتلأت نفسه بالرغبة فى أن يقوم بالبحث عن هذه المخطوطات ومراجعتها وتنقيحها وطبعها ، كما امتلأت نفسه باحساس صادق بالغيرة على هذا التراث الضخم المفقود ، والمتناثر فى مكتبات الغرب دون أن ينتفع به أصحابه وأحفاد كتابه .

من أجل هذا ملأت نفسه الرغبة فى أن يقوم بجهد فى هذا الاتجاه ، واستهل جهده هذا حين قدم لمؤتمر المستشرقين فى لندره عام ١٨٩٢ عشرة كتب قديمة نقحها وصححها .

وقد أتيح له أن يزور مكتبة الأسكوريال خلال زيارته لأسبانيا (الفردوس الاسلامى المفقود) وأعد تقريرا شاملا عن هذه المؤلفات .

ومضى أحمد زكى يواصل عمله ذلك من خلال رحلاته المتوالية الى عواصم أوربا وحضوره مؤتمرات المستشرقين وزيارة دور الكتب فى باريس ولندن وأثينا ، وينفق من أجل الحصول على نوادر التراث العربى .

وقد استطاع بعد الانقلاب العثمانى عام ١٩٠٩ أن يسافر الى الآستانة وأن يحقق نجاحا كبيرا فى هذا المجال ، كما استطاع بنفوذ صديقه المرحوم حسن حلمى باشا الصدر الأعظم أن يدخل قصر أندرون ، حيث توجد أنفس خزانة للكتب . هذه الخزانة التى كان محظورا على أفراد الشعب أن يدخلوها ولم يدخلها سوى الخليفة ، حيث يوجد ما وصفه أحمد زكى بنوادر الجواهر وغوالى الذخائر بعد أن كانت موصدة فى وجه الجميع ، منذ أربعة قرون وستة أعوام .

وقد أقام أحمد زكى فى هذه الخزانة أربعة شهور متوالية ، ومعه — على حد تعبيره — جيش من المصورين بالفوتغرافية من أتراك وأرامنة وأروام .

وهكذا واصل أحمد زكى عمله فى سبيل البحث عن المخطوطات واحياء التراث ، وهى المهمة التى جرد نفسه لها ووصفها بقوله : « ما كان يرتضى بشىء سوى ما فيه تصديع الدماغ ووجع القلب وتعب العين فى التوفر على مغازلة الكتب المخطوطة » .

وكان اتجاهه الى استخدام التصوير الشمسى فى نقل هذه المؤلفات عملا جديدا خطيرا لم يسبقه اليه سابق من العرب .

ولم يمض الا القليل حتى استطاع أن يقدم مشروع احياء الآداب العربية الى وزير المعارف (أحمد حشمت باشا) الذى كان حفيا بهذا العمل مقدرا له ، كما قدم كشفا بأسماء الكتب التى تتخذ نواة للمشروع .

واستطاع أن يجعل مجلس النظار يعتمد للمشروع ٩٣٩٢ جنيها فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٠ ، وذلك لاحراز واستنساخ وطبع ٢٧ كتابا من المخطوطات العربية ، على ما جاء فى مذكرة أحمد زكى بك السكرتير العام لمجلس النظار ، التى تقدم بها لرئاسة المجلس والمحالة على وزير المعارف سعادة أحمد حشمت باشا » .

وبرز مشروع احياء الآداب العربية ، وصار من حق المجلس الأعلى لدار الكتب الاشراف عليه ، وفعلا بدأت العمل بطبع موسوعتى « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى « ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمرى .

ومضى أحمد زكى يعمل من أجل مشروعه عملا متواصلا ، وتوالت أسفاره ورحلاته الى مكتبات استانبول وباريس ، وقد حقق هذا المشروع طبع أكثر من خمسة وخمسين مؤلفا وتوقف . يقول محمد كرد على « أنه أحب أن ينفرد وحده بهذا العمل ، ولما كان يحب التدقيق ولا يثق بتحقيقات غيره أبطأ بالطبيعة فى اخراج العمل فاسترجع المبلغ .

ولكن زكى باشا مضى فى عمله ، فنقل بضعة عشر ألفا من

الكتب بالتصوير الشمسى ومضى يحقق هذه الكتب ويراجعها ويقدمها للطبع ، بعد التنقيح والاعداد ، مضافا اليها تعليقات وشروح .

وبلغ من اهتمامه أنه سافر الى فلسطين ، ومعه مسودة (مسالك الأبصار لابن فضل الله) فكان يقرؤها على بعض علماء القدس الأثريين ، ويقارن بين ما ورد فيها من وصف آثار القدس وما هو موجود اليوم .

كما أنه أثار فى مؤتمر المستشرقين فى أثينا سنة ١٩١٩ مسألة هامة فى تحقيق التراث ، وهى أمانة النقل عن الأسلاف ، وهل يجوز لطابع كتبهم القديمة أن يتصرف فى نقله بالحذف والاصلاح والتهذيب أو يبقى الأصل كما ورد ، واستقر الرأى على ضرورة بقاء كتب التراث على حالها الأصلى .

وكان زكى باشا قد طبع كتاب (نكت الهميان فى نكت العميان) فأثار ذلك ضجة لما ورد فيه من عبارات اعتبرت مكشوفة لا تلائم آداب العصر ، كما كاشف العلماء فى احدى هذه المؤتمرات بكتاب (الأصنام) لأبى المنذر هشام بن محمد ، وأطلعهم على كتاب مفقود ولا توجد منه الا هذه النسخة .

ومضى زكى باشا فى كل مكان يبحث فوجد فى دمشق كتاب « مثالب العرب » لابن أبى المنذر ، وفى اليمن أحرز كتاب الاكليل للهمذانى .

وقد أثارت مختلف المخطوطات التى أحياها زكى باشا وطبعها اهتمام الباحثين ، فقد قدم لهذه المؤلفات بدراسة عن المؤلف

وسيرته وتأليفه ، وعن الأعلام الذين وردت أسماؤهم فى الكتاب ، وعلق على الكتب تعليقات تاريخية وشروح لغوية .

وكان فى مقدمة هذه الكتب : الأدب الصغير لابن المقفع سنة ١٩١١ م وكان قد نشره نقلا عن مخطوط ظفر به فى احدى مكاتب الآستانة ، كما نشر كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد بن سائب بن بشر الكلبى ، وكان لبعث هذا الكتاب أهمية كبرى ، وقد ضمنه فهارس وجداول وأتبعه بأسماء الأصنام التى لم يذكرها ابن الكلبى .

ومن هذه المخطوطات التى أثارت مناقشات متعددة ، كتاب التاج فى أخلاق الملوك ، الذى نشره عام ١٩١٤ ونسبه الى الجاحظ ، وخدمه من حيث التعليق على متنه ، وتحقيق رواياته ، واثبات أجدرها بالاعتماد ، وتفسير مبهماته ، مع مقدمة باللغة الفرنسية ذكر فيها فضائل الجاحظ وقال انه فى الأدب العربى كفولتير ورينان فى الأدب الفرنسى .

مخطوطات نقلها بالتصوير الفوتغرافي
كنواة لمشروع إحياء الآداب العربية

* **موسوعات** : نهاية الأرب في فنون العرب (لشهاب الدين النويرى) طبع منه ٦ أجزاء .
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (لأبى فضل الله العمرى) جـ ١ .
جوامع العلوم لعريفين تلميذ أبى زبيد أحمد بن سهيل البلخى .
* **أدب وبلاغة** : الفاخر : للمفضل الضبى .
ديوان الحماسة الصغرى : المعروف بالوحشيات (لأبى تمام) .
سر الفصاحة : لأبى سنان الخفاجى .
التسهيل بالتمثيل وهو المعروف بتسهيل السبيل الى تسليم الترسيل ، للحميدى .
رسائل وخطب وأشعار السلطان الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبى .
مجموعة ترسل القاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى ، معروفة بالدر النظيم فى ترسل عبد الرحيم .

* **حديث** : فنون العجائب (فى الحديث) .
اكرام الضيف .

* **آداب الملوك** : كتاب التاج للجاحظ (طبعه بتحقيقات وصور).
مجلس الملوك للجاحظ .
رسائل الملوك ومن يصلح للسفارة لأبى على الحسن المعروف بابن الفراء .
تنبيه الملوك وسياستهم فى تدبير الأمم والممالك.

* **التاريخ** : المغتالون من الأشراف فى الجاهلية والاسلام لمحمد بن حبيب البصرى .
ذيل تجارب الأمم وتعاقب الهمم فى وقائع العرب والعجم لابن مسكويه ، تأليف أبى شجاع ، أحد وزراء الدولة العباسية .
درر التيجان ، وغرر تواريخ الزمان ، لأبى بكر ابن عبد الله بن أيبك الداودارى المصرى .
كنز الدرر وجامع الغرر (له أيضا) .

* **التراجم** : أنباء الرواة على أنباء النحاة للقاضى الأكرم الوزير القفطى المصرى .
نزهة الألباب فى الألقاب (لابن حجر العسقلانى).
التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر (لابن عريشاه المصرى) .
هدية العبد القاصر ، الى الملك الناصر أبى

السعادات محمد بن السلطان الملك الأشرف ، لعبد الصمد الصالحى .
سبك النضار وكسب المفاخر ونثر الدرر ونظم الجواهر فى سيرة المعز الأشرف السيقى اقباى الأسد الظافر ، لعبد الله بن محمد بن عبد الله الزكى .

* **النسب** : شجرة النسب النبوى الشريف (تأليف السلطان الملك الأشرف أبى النضر قانصــوه الغورى المعروفة بسلسلة الأنساب .

* **الجغرافيا** : صور الأقاليم الاسلامية : (لأبى زيد أحمد بن سهل البلخى) بالخرط .
صورة الأرض وصفة أشكالها ، ومقدارها فى الطول والعرض وأقاليم البلدان ، ومحل العامر منها ، والعمران فى جميع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة اليهــا هيئة أشكال الأرض مع صــورها بالطــول والعرض .

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق : المعروف بكتاب رجار للشريف الادريسى بالخرط .
رحلة الأمير يشبك الظاهرى وهو أحد جنــود رحلة للجنود المصرية وفتوحاتهم .
كمال الغرض فى دفع السموم وحفظ الصــحة

للقوصونى الطبيب فى عصر السلطان قانصوه .

* علم طبيعة : سرور النفس بمدارك الحواس الخمس (لابن المكرم صاحب لسان العرب ابن منظور المصرى.
الباهر فى علم الجواهر .
الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل.
الدر المطابق فى علم السوابق فى طب الخيل .
طب الطيور : مستخرج من خزانة الرشيد .

* المعادن : الجماهر فى الجواهر لأبى الريحانى البيرونى .
أزهار الأفكار فى جواهر الأحمار للتيفاشى شيخ أبى المكرم بن منظور المصرى صاحب لسان العرب .

* علم الفلك : التفهيم لصناعة التنجيم لأبى الريحان البيرونى.
علم الساعات والعمل بها لرضوان بن محمد الخراسانى .
كتاب العود والملاهى : (للمفضل الضبى) .
كشف الغموم والكروب بشرح اله الطربه (بالصور) .

* علم الحرب : الغزو والمنافع للمجاهدين بآلات البارود والمدافع (لابن غانم الأندلسى) (بالأشكال) .
الأنيق فى المناجيق (بالصور والأشكال) .
التذكرة الهروية فى الحيل الحربية للسائح الهروى .

* **ديانات قديمة :** فلسفة الوثنيين ، وهى قطعـة بقيت من كتاب تمسطس .
كتاب الأصنام لابن الكلبى (حققه أحمد زكى).
* **فنون متنوعة :** أطائف المعارف للنيسابورى .
عين السمع مختصر طرد السبع للصلاح الصفدى.
الالمام بآداب دخول الحمام للقوصونى المصرى.
الكوكب الدرى فى أجوبة السلطان الغورى .
نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الأسرار ، لجمعية من العلماء فى عصر السلطان الغورى وهو من جملتهم .
الترقيق فى العطر : للفيلسوف الكندى .
كتاب الأطعمة المستعملة فى عهد سلاطين المماليك لمؤلف عيّن نسبه الى أحد ملوك مصر ، ولم يذكر اسمه .
الوصلة الى الحبيب فى وصف الطيبات والطيب (لم يذكر مؤلفه) .

(٥٥) كتابا

٤ ـ اختصار حروف الطباعة والترقيم

أولى أحمد زكى اهتمامه لجوانب دقيقة ذات أهمية كبرى في مجال تحسين المطبعة العربية ، وادخال انماط جديدة من الحروف والعلامات عليها ، وكان له في ذلك جهد ضخم تمثل في عمل تاريخى ما زال باقيا الى اليوم . فحروف المطبعة العربية التى كانت ٩٠٥ شكلا استطاع أحمد زكى أن يختصرها الى ١٣٢ شكلا شاملة قواعدها فى الرقعة والثلث ، وذلك على بعض الروايات .

وكان ذلك من المشروعات التى أثارها وأشرك معه فيها حمزة فتح الله ، وأمين سامى بعد أن تبين أن مطبعة بولاق الأميرية ظلت محتفظة حتى أوائل هذا القرن بأشكالها الأولى ، عندما أنشئت فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر .

وقد سافر أحمد زكى (السكرتير الثانى لمجلس النظار اذ ذاك) الى أوربا مع شيلو بك مدير المطبعة الأميرية ، حيث طافا مطابع ومسابك استانبول وفيينا وليبزج وبرلين ولندن وأكسفورد وباريس للنظر فى الوسيلة العملية لاختصار صندوق الطباعة ، وتسهيل جمع الحروف ، وقد قام أحمد زكى بعمل تجارب واختبارات يومية فى مطبعة بولاق استمرت ثلاثة شهور كاملة ، وجاءت نتيجتها كما عبر عنها المقتطف (أبريل ١٩٠٣) ناطقة بأفصح بيان على أن الطريقة التى اختارها — أحمد زكى — تكفى من كل وجه لجمع أى عبارة عربية أو تركية أو فارسية مهما كانت صعوباتها الخطية والمطبعية وقد نشر أحمد زكى مذكرة

ضافية فى هذا الصدد ذكر فيها أنه أمكن الاقتصار على ١٣٢ حرفا و ٤٦ علامة بدلا من الحروف التسعمائة التى تستعمل فى مطبعة بولاق . وأشار الى أن اعتماد الطريقة الجديدة فى مطبعة بولاق سيعود بفوائد كبيرة أقلها حصول وفر فى المصنعية لا يقل عن ٢٥ فى المائة .

علامات الترقيم

وكانت لأحمد زكى جولة أخرى فى هذه الميادين البكر ، هى ادخال علامات الترقيم على الكتابة العربية وفق النسق المستعمل فى كتابة اللغات الأوربية ، وكان القارىء قبل استعمال هـذه العلامات — على حد تعبير الدكتور أحمد عيسى — يعتمد دائما فى حركات القراءة والوقوف على الذهن والقريحة ، وليس أمامه اشارات أو علامات ترشده الى ذلك ، وقد يترتب على ذلك أن يعيد القارىء بعض الجمل حتى تستقيم القراءة .

ومن أجل هذا فكر أحمد زكى فى ادخال هذه العلامات ، وقد فصل ذلك فى رسالة أصدرها عام ١٩١٢ جاء فيها :

« دلت المشاهدة وعززها الاختبار على أن السامع والقارىء يكونان على الدوام فى أشد الاحتياج الى نبرات خاصة فى الصوت أو رموز مرقومة فى الكتابة يحصل بها تسهيل الفهم والادراك .

ولقد شعرت الأمم التى سبقت فى ميادين الحضارة بهـذه الحاجة الماسة فتواضع علماؤها على علامات مخصوصة لفصل الجمل وتقسيمها حتى يستعين القارىء بها عند النظر اليها على تنويع الصوت بما يناسب كل مقام من مقامات الفصل والوصل أو الابتداء الى ما هنالك من المواضع الأخرى التى يجب فيها تمييز القول بما يناسبه من تعجب واستفهام .

وأول من اهتدى الى ذلك رجل من علماء النحو من روم القسطنطينية اسمه (ارسطوفان) من أهل القرن الثانى قبـل

الميلاد . ثم توفرت أمم الافرنج من بعـده على تحسين هـذا الاصطلاح واتقانه الى الغاية التى وصلوا اليها فى عهدنا الحاضر ».

* وأشار الى أن اللسان العربى لا يزال مضطرا رغم أنفه الى التعثر والتسكع على الدوام والى مراجعة نفسه بنفسـه ، ومهما بلغ درجة من العلم لا يتسنى له فى أكثر الأحيان أن يتعرف مواقع فصل الجمل وتقسيم العبارات أو الوقوف على المواضع التى يحسن السكوت عندها .

ورأى أن الوقت قد حان لادخال هذا النظام فى كتابتنا الحالية مطبوعة أو مخطوطة تسهيلا لتناول العلوم .

* وأشار الى فضل « أحمد حشمت » (وزير المعارف اذ ذاك) فى تدارك النقص الحاصل فى تلاوة الكتابة العربية ونسب اليه الفضل فى طلب استنباط طريقة لوضع العلامات التى تساعد على فهم الكلام بفصل أجزائه بعضها عن بعض .

فبدأ زكى باشا بمراجعة الكتب العربية التى وضعها النابغون من السلف الصالح فى الوقف والامتداد ورجع الى ما تواضع عليه الافرنج فى هذا المعنى ، وما كتبه العلامة (ده ساسى) فوجد أن الطريقة العربية القديمة التى أشار اليها السرنجاوى والشاطبى لا تختلف عن الطريقة الغربية الا فى جزئيات طفيفة .

واصطلح على تسمية هذا العمل بالترقيم لأن هذه المادة تدل على العلامات والاشارات والنقوش التى توضع فى الكتابة وفى تطريز المنسوجات .

وعلامات الترقيم هى :

الشـــولة	،
الشولة المنقوطة	؛
النقطـــة	.
علامة الاســتفهام	؟
علامة الانفعــال	!
النقطتـــان	:
نقط الحذف والاضمار	...
الشرطة	—
التضبيب	« ... »
القوســان	( )

وقال أن (، ؛ . : ؟ !) لا توضع فى أول الكلام .

وأضاف اصطلاحات فى كيفية رسم بعض الحروف ووضع الحركات واختزال بعض الكلمات والجمل الدعائية الشائعة التى يحذف فيها حرف الألف :

الـــه	—	الاه
أولئـــك	—	أولائك
بسم الله الرحمن الرحيم	—	باسم اللاه الرحمن الرحيم
السموات	—	السماوات
هـــذا	—	هــاذا
هـــؤلاء	—	هاؤلاء

لكن	— لاكن
اللهـم	— اللاهـم

كما أورد صورة الاختزال فى الكلمات الكثيرة الشيوع :

الـخ	— الى آخره
انـا	— أنبـأنا
آه	— انتهى
ثنـا	— حدثنـا
رحـه	— رحمه الله
رضـه	— رضى الله عنه
نـا	— أخبرنا

طريقة الاختزال

وكان من همه أيضا ادخال طريقة الاختزال فى الكتابة العربية للمساعدة فى نقل الخطب وغيرها بالسرعة والدقة لصيانة الأقوال عن الضياع ، ووضع لذلك جائزة قدرها خمسون جنيها لمن ينبغ من المصريين فى هذا الفن .

ولكنه لم يوفق للعثور على من يحسن الاختزال .

٥ ـ إصلاح لغـــة الدواوين

عمل أحمد زكى فى مجلس النظار منذ أن عين مترجما بها عام ١٨٩٢ الى أن أحيل الى المعاش عام ١٩٢٢ ، أى أنه أمضى ثلاثين عاما كاملة فى مجال الرسائل الديوانية ، وقد كان له خلال هذه الفترة أكبر الأثر فى مجالى الترجمة وتهذيب لغة الدواوين وتخليصها من العبارات التركية والاصطلاحات القديمة ، وقد كان عمله هذا بمثابة انقلاب فى اللغة الحكومية ، فقد أدخـل عشرات من الألفاظ العربية السهلة فى مكان الألفاظ التركية ، أو الألفاظ الأجنبية .

وكان اليه المرجع فى هذه الفترة فى كل ما يتعلق بالرسائل والخطابات الديوانية التى ترد من مختلف الوزارات والمصالح ومشاريع الميزانيات ، ولذلك استطاع أن يؤدى عملا ايجابيا فى مجلس النظار خلال هذه الفترة باشرافه وتصحيحه وكان لا ينى يوجه الكتاب فى النظارات المختلفة الى الانتفاع بأسلوبه ومنهجه فى كتابة رسائلهم .

وقد كون مدرسة فى مختلف النظارات تنهج نهجه فى تنحية اللفظ التركى والعامى والأجنبى ، واحلال اللفظ العربى محله ، وكان الى ذلك يسخر من اللغة العربية المعقدة ، ويتناول طريقة الشيخ حمزة فتح الله وغيره بمزيد من التهكم والنقد .

وكان دائما من المؤمنين بتطوير العبارة العربية ، والبعد عن ما أسماه « قعر القاموس » . وقد حمل حملات نارية على

الكتاب الذين كانوا يسرفون فى استعمال الألفاظ المغربة ، وكان عمله فى تنقيح التراكيب الديوانية جزءا من عمله الكبير فى تصحيح الأعلام العربية وأسماء المدن والبلاد .

وقد اقترح أحمد زكى نصوصا عربية لكثير من الكلمات الأجنبية ومن أهمها كلمة السيارة بدلا من (الأوتوموبيل) وكلمة صحافة لتعريب كلمة (Parsse) دلالة على مجموع الجرائد ، من باب الجنس ، و (صحافى) للقائم بخدمة الجرائد ، ودراجة : للعجلة (البسكليت)[1] .

وكان قد دعا الى اختيار لفظ (السيارة) عام ١٩٠١ لاستعماله بدلا من كلمة (الأوتوموبيل) التى معناها (المتحركة بنفسها) أو (الجارية من نفسها) وقال ان كلمة السيارة قد تجمعت فيها كل المعانى التى يشملها اللفظ الأفرنكى وكافة الدلالات المقصودة[2] .

وقد ذكر زكى باشا فى بعض كتاباته من بعد أنه استطاع أنه يفرض كلمة (السيارة) وذلك بادخالها فى نصوص قوانين النقل، وأن يلزم الناس بها بقوة السلطان .

وقد جعل دعوته دائما الغيرة على اللغة العربية ، ووضع الألفاظ العربية بدلا من الكلمات الدخيلة ودعوة الكتاب « للتكاتف لرفع شأن اللغة العربية والسير بها فى طريق التقدم العصرى ، لتكون وافية بحاجاتنا فى التفاهم والبيان » .

---

(١) المقتطف ــ أغسطس ١٩٠١ .

(٢) نفس المصدر .

وجملة ما يقال أنه كان له أثر بعيد فى نهذيب لغة الدواوين وتخليصها من العبارات الركيكة والاصطلاحات القديمة والمسميات الأعجمية وان له الفضل فى الارتقاء بها الى مستوى ممتاز .

وكان لزكى باشا دور هام فى أعمال الوثائق السياسية بحكم عمله سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، وقد أشار الدكتور أحمد عيسى الى هذا الدور فقال : انه حين أعلنت الحرب الكبرى عام ١٩١٤ كان أحمد زكى الساعد الأيمن للحكومة فيما تحتاج من وثائق سياسية وأبحاث تاريخية لها اتصال بنظام الحكم ، وترتيب الدواوين ، والرتب والألقاب الديوانية العويصة ، التى لا يمكن أن يقوم بأعبائها الا أحمد زكى ، لفهمه وتدقيقه فى المسائل التاريخية الخاصة بالحكومات الاسلامية[1] .

وقد وصفه مصطفى عبد الرازق بأنه « كاد يعيد لمصر ديوان الانشاء فى عهد الأيوبيين برونقه وجلاله » .

---

(١) نفس المصدر .

٦ ــ عمله فى الجامعة

اشترك أحمد زكى فى مشروع انشاء الجامعة المصرية (القديمة) وأتيح له بحكم عمله سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، ولكفايته العلمية أن يلى منصب السكرتير العام للجامعة وأستاذ تاريخ الحضارة الاسلامية فيها . غير أن عمله هذا لم يستمر أكثر من عام واحد .

وقد بدأ عمله فى الجامعة برحلة الى الشام (فلسطين وسوريا) على طريقة العلماء فى التحقيق العلمى ، بالسفر الى حيث الأماكن التاريخية التى تتناولها الدراسة .

وقد ألقى محاضرات على طلبة الجامعة فى العام الأول عن أحوال الأمة العربية قبل الاسلام .

وقد صور الدكتور طه حسين هذه المرحلة من حياة أحمد زكى فقال :

« عرفت زكى باشا منذ نيف وعشرين سنة ، حين افتتحت الجامعة المصرية القديمة سمعت له محاضرته الأولى وأعجبت به حين بدأ المحاضرة قائلا : أحييكم بتحية الاسلام فأقول : السلام عليكم ورحمة الله .

وقد أعجبتنى جدة ما كنت أسمع بالقياس الىّ أنا الأزهرى الذى لم يكن يعرف فى ذلك الوقت الا النحو والصرف والمنطق والتوحيد والفقه والأصول .

ثم يريد الله أن ألقى هذا الرجل بعد افتتاح الجامعة بأيام

فأنصرف عنه مبغضا له أشد البغض ، محنقا عليه أشد الحنق ، ويشير طه حسين الى غلامه الأسود الذى كان يدخل معه قاعة الدرس ، ومنع زكى باشا له ، فلما حدثه فى ذلك قال له :

وماذا تريد من استماع العلم اذا كان الله لم يرد لك أن تسمعه وحدك .

يقول طه حســين : هنالك هززت له كتفى ، وخرجت من غرفته » ، ثم يصور دروس أحمد زكى فى الجامعة فيقول :

« كنت منذ ذلك اليوم أسمع لدروس هذا الرجل راضيا عنها وكارها لصاحبها حتى وقع ذات مساء الى الحديث عن الفتح الاسلامى ، وأن الغرض منه انما كان الاستعمار ، فهممت أن أجادله فى ذلك كما كنا نجادل شيوخنا فى الأزهر ، ولكنه ردنى ردا عنيفا ، ونبهنى الى أن الحوار ان كان مباحا فى حلقات الأزهر ، فهو محظور فى غرفات الجامعة ، فانصرفت الى دارى واجدا عليه أشد الوجد ، ولم أكد أبلغها حتى كتبت له كتابا شديد اللهجة قاسى العبارة ، ثم أرسلت الكتاب من الليل ، ونمت بعد ذلك مستريحا .. » .

وقد أشار الدكتور زكى مبارك — وكان من تلاميــذه فى الجامعة المصرية القديمة — الى أنه كان الخطيب الثالث فى حفل افتتاح الجامعة بمحكمة الاستئناف فى ديسمبر ١٩٠٨ ، وقد سبقه فؤاد وثروت .

وأنه أول من اشتغل بالتدريس من بين الأعضاء المؤسسين وقال مبارك انه بدأ محاضراته على هذا النحو :

« جل ما يصيبكم مما أحمله اليكم من العلم بهذه المحاضرات هو ضوء مصباح يضيء لكم مواضع أقدامكم فتبصرون الطريق التى تسلكونها للوصول الى الغاية المطلوبة ، وما المعلمون الا مرشدون وهادون ، فعليكم بالبحث والتنقيب والدرس ومساءلة أهل الذكر فان النبوغ فى الفنون لا يكون الا بهذا ، فالمدارس مهما علا شأنها ونمت منزلتها لا يمكنها أن تعلم الناس النبوغ فى الفنون ، وانما منتهى ما تصل اليه الجامعات التى هى أرقى مدارس الهيئة الاجتماعية انما هو هداية الطلاب الى طريق النبوغ » .

وقال مبارك « انه أشار فى محاضرة أخرى الى ضرورة الرجوع الى الصواب اذا ظهر — على حد تعبيره — والذى يفضل به بعض الناس بعضا انما هو قلة الخطأ ، والرجوع الى الصواب متى وضحت محجته ، وأضيئت منارته ، والانسان لا يعلم أنه مخطىء حين يخطىء ، ولابد أن ينبه بعض الناس بعضا الى الخطأ » .

وأشار زكى باشا الى أنه زار الشام قبل أن يحدث الطلبة عن حضارة الأمويين وقال تعليقا على ذلك « أردت وانى أحد أساتذة الجامعة المصرية أن أحيى أكبر سنة من سنن سلفنا الصالح وهى الرحلة فى طلب العلم لاقتناص فوائده وجمع شوارده بالبحث والمشاهدة ومشافهة أهل الذكر ، فاغتنمت الفرصة لأضم الى علمى الكتابى الضئيل علما حسيا أشاهده بعينى وأسمعه بأذنى .. » .

ولم يطل عمل أحمد زكى فى الجامعة ، فقد كان للسياسة دورها ، وكان خلافه مع الحزب الوطنى باعتباره أحد رجال

الخديو فى تلك الفترة كان من عوامل أبعـاده عنها ، ذلك أن أحمد زكى كان قد ألقى كلمة فى المبعوثين المسافرين الى الخارج وطلب اليهم — كما طلب الى أبناء الجامعة — الالتفات الى الدرس وتجنب العمل السياسى كما هاجم الأحزاب السياسية ، مما أغرى به صحف الحزب الوطنى فحملت عليه حملة شعواء اضطرته الى تقديم استقالته من الجامعة ... [1] .

---

(١) الصحف عام ١٩٠٨ وكتاب الشوقيات المجهولة للدكتـور محمد صبرى ص ٢٩٨ ج ٢

٧ — الرحلة من أجل البحث

لا ريب أن « الرحلة » من أجل البحث العلمى من أبرز جوانب حياة أحمد زكى ، وقد امتدت خلال حياته كلها منذ مطالعها حتى آخر رحلاته الى فلسطين قبل وفاته بسنوات قليلة ، وقد أمكن حصر بعض هذه الرحلات ، وان كنا نعتقد أنها ليست كل رحلاته :

١٨٩٢	رحلة لندرة وباريس والأندلس (مؤتمر المستشرقين فى لندره) .
١٨٩٤	رحلة جنيف (مؤتمر المستشرقين) .
١٨٩٩	رحلة باريس .
١٩٠٠	رحلة باريس .
١٩٠٢	رحلة همبورج (ألمانيا) مؤتمر المستشرقين .
١٩٠٤	رحلة الآستانة وباريس .
١٩٠٨	رحلة الشام (لدراسات الجامعة) .
١٩٠٩	رحلة استانبول (تركيا) .
١٩١٢	رحلة أثينا (اليونان) مؤتمر المستشرقين ومؤتمر العميان .
١٩٢٢	زيارة القدس .
١٩٢٣	الشام وبيت المقدس .
١٩٢٤و١٩٢٥	رحلة الشام .
١٩٢٦	رحلة اليمن ، رحلة باريس .

١٩٢٧ رحلة قبرص .

١٩٣١ رحلة المسجد الأقصى (فلسطين) .

والمعروف أنه سافر الى استانبول مرات عدة ، وأن هدف هذه الرحلات يتمثل فى أعمال ثلاثة :

* حضور مؤتمرات المستشرقين .
* البحث عن المخطوطات والآثار العربية .
* السفارة من أجل قضايا الأمة العربية .

ولا شك كان لهذه الرحلات آثار بعيدة المدى فى تفكير أحمد زكى وحياته وآرائه ودراساته ، فقد أتيح له خلالها أن يزور عشرات من المكتبات وينقل مئات من المخطوطات ويطلع على عديد من المؤلفات ، ويقابل أعلام الفكر فى الشرق والغرب ، ويتحدث اليهم ويتبادل معهم المعلومات والآراء فى عشرات من المسائل والقضايا فى مجال تاريخ الأمة العربية وجغرافيتها والحضارة العربية والاسلامية واللغة العربية وأسماء الأعلام والأماكن .

وقد ظل زكى باشا يتناول أدق المسائل خلال حياته الطويلة ، فيواجهها مواجهة الفاحص العارف ، الذى رأى وشاهد وعرف ، فاذا تناولت احدى الصحف اسم احدى مدن الأندلس محرفا رفع صوته بالاسم الصحيح ، واذا ذكر مكان من الأمكنة أو قطر من الأقطار أو نهر من الأنهار مغلوطا ، قدم زكى باشا البيان الصحيح عن شىء يعرفه تمام المعرفة ، واذا سرق الفرنسيون

محرابا من أحد المساجد أورد بيانات مسهبة عن صفته وتاريخه ، وذكر كل ما يتصل به .

وقد اجتمعت له من هذه الرحـــلات حصيلة ضـــخمة من المشاهدات للمساجد والمتاحف والقصور والكنائس ، وأتيح له أن يصعد فوق قبة المسجد الأقصى ، وقمة الهـــرم الأكبر ، ومسجد أيا صوفيا بالقسطنطينية ، ولأعلى كنائس بطرس برومة ، وبولس بلندرة ، وسيدة العمود بسرقسطة .

واحتمل زكى باشا فى هذه الرحلات جهدا وتعبا ، وأنفق مالا كثيرا ، وصادفته عشرات من العقبات والأزمات .

يقول عن رحلته ١٨٩٢ (لاقيت فيها حر أوروبا وحمارته كأشد ما يكون ، وقاسيت بردها ، وصبارته فوق ما يقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوربا لأول مرة) .

وفى هذه الرحلة زار خمسا من عواصم أوربا ، وهى رومة وباريس ولوندرة ومدريد ولشبونه ، وزار أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق ، وتعلم لغة أهل الأندلس حتى توصل الى الكتابة والخطابة بها « على قدر امكان » .

وزار مناجم الفحم فى أوربا وبلاد الأندلس ، كما زار ثلاث مدائن مخصصة لطلبة العلم ، وهى أكسفورد فى انجلترا ، وقلمرية فى البرتغال ، وشلمنقه فى أسبانيا وحضر عيد الميلاد فى مدريد ، ورأس السنة فى لشبونة ، وأكل الفول المدمس ، وحضر جلسات مجلس النواب والشيوخ فى فرنسا ، وشاهد قتال الثـــوار فى

أسبانيا ؛ واعتصاب الخبازين فى مرسيليا . والاحتفال بالكرنفال (المرافع) فى نيقه ، رورميه ، وغير ذلك .

وقد تحدث زكى باشا عن طرائف رحلاته ، من ذلك ما حدث له من غفلة عن فروق العملة : يقول لما جئت بلاد البرتغال ونزلت فى لشبونة ، اكتريت عربة أوصلتنى الى الفندق ، ولما نزلت منها سألت ترجمان الفندق عن الأجرة فقال لى ٦٠٠ ريال ، فقلت فى نفسى هذه الطامة الكبرى ، وكيف أتظاهر الآن بتعارف الجاهل وليس معى ورقة تساوى هذه الثروة الجسيمة ، ومع ذلك تجلدت وصبرت على مضض الأيام ، واتقيت الله لعله يسهل لى سبيل الخلاص من هذه الورطة ، فقلت له بصوت مبحوح : وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق وصعدت الى غرفتى أضرب أخماسا بأسداس .

ولما أصبح الصباح كان أول شيء طلبته هو الحساب ، فجاءنى بعشرات الآلاف ، فقلت وأنا خائف واجم ، وكم يساوى هذا كله من الفرنكات ؟ فقيل ان الفرنك مائتا ريال فكدت أخر لله ساجدا وصرفت الغلام لأتضرع الى الله بالشكر منفردا » .

وقص من طرائف رحلاته أكلة الفول المدمس فى أسبانيا عندما رأى بعض النساء يحملن شيئا شبيها بطست نحاس (مفرطع)[1]، جدرانه مرتفعة قليلا ، ففرجتنى على ما فى الطست واذا به الفول المدمس ، ففرحت به كثيرا ، ووطنت نفسى على أكلة مصرية فى بلاد أوربا » .

---

(١) هكذا كتبها . وهى مفرطح .

فلما رجع الى الفندق أوصى صاحبه بأن يحضر له مقدارا منه، يقول « وأردت أن تكون الأكلة مصرية محضة ، وعلى الأسلوب المتبع عند عموم المصريين ، فلبثت فى غرفة النوم وأقفلتها بعد أن استحضرت البصل .. » .

أما قصته مع أكلة الضفادع فى باريس فيرويها بأسلوبه على نحو مثير : يقول :

« ... فوسوس الى ابليس بالتجربة . وانضمت اليه النفس الخبيثة (وهى أمارة بالسوء) ولكن طبعى بقى مصرا على العناد والنفور . فاشتبكت المحاورة والمناظرة بين الطرفين ، وأنت تعلم أن « ضعيفين يغلبان قويا » فما بالك اذا كانا من القوة والبأس ، بمكان ابليس والنفس . وكان خصمهما من الضعف بدرجة الطبع، وكان غلابا فهاهو أصبح مغلوبا .

والخلاصة أننى طلبت الخادم وأمرته باحضار هذا الطعام ، نعم نعم . طلبت هذا اللون ، وأعنى به أبا هبيرة ، أو العلجوم ، فأحضر لى طبقا فى وسطه شىء مشتبك مرتبك ، يشبه العقرب ، سوى أنه أبيض عظام دقيقة صغيرة ، تكسو أطرافها لحوم خفيفة مستديرة ، وكلها على شكل مختلط مختبـط يزيد فى الكراهة والنفـور .

فاصطكت أسنانى ، وانطبقت أجفانى ، وحولت وجهى برعدة فى رأسى ، فجاء أبو مره وقال لى : جرب هـذه المرة فى الترك أو معاود الكرة » .

وتآمرت معه نفسى ، فجاءت من الجهة الأخـرى تدفعنى ،

وتصيح فى أذنى ، قد وجب عليك الثمن ، فما بالك لا تمتحن وأنت تعلم أنه عند الامتحان يكرم المرء أو يهان وما زالا ينقان على هذا المنوال حتى أعدت صفحة وجهى بالتدريج الى تلك الصفحة ثم أغمضت عينى ، ومددت يدى وأخذت قطعة منها وأنا أفكر فى الألوان الشهية التى أسمع عنها ، ثم رميت بالقطعة من الضفدعة فى فمى ، وصرت آكل قليلا قليلا وأنا أفكر فى أصناف لذيذة ، قرأت أسماءها فى الكتب .

وصرت آكل من الضفدعة بصفتها ضفدعة حتى أتيت على كل ما فى الطبق والحمد لله أولا وآخرا » .

ثم أخذ يعلل أكل الضفادع متسائلا عن المانع الشرعى والعقلى ؟ ويعرض لحالات مشابهة ، البدوى يتلذذ بالتهام الجراد ، الرفاعية بالثعابين ، الرشيدى يتفكه بأكل أم الخلول ، الاسكندرى يهيم غراما ببراغيث البحر (الجمبرى) ، ساكنوا السويس لهم تجارة كبيرة بالسرطان (أبو جلمبو) الفلاح فى الصعيد يصطاد (فأر الغيط) ... » ا . هـ

وقد صور زكى باشا مشاعره ساعات الانفصال عن الوطن ، فوصفها بأنها بعيدة عن اللوعة ، وأنه من ذلك النوع الذى يحب السفر ويهواه ، وقد خصص بعض أسفاره — على حد تعبيره — لذاته ونفسه ، ولمتعته ومسراته . غير أنه ربما انقبض من السفر يوم الجمعة أو يوم ١٣ من الشهر .

يقول فى مقدمة كتابه « الدنيا فى باريس : أو أيامى الثالثة فى أوربا عن رحلته سنة ١٩٠٠ » قد أعلم من نفسى . ويشهد الله

لأن هذا الاكتئاب لم يكن مصدره فراق الأوطان والأصحاب ، بل كنت بعيدا عن معاناة هذه اللوعة ، لأن هـذه المرة ليست أول غربة ، فقد بارحت مصر عام ١٨٩٢ ، وعام ١٨٩٤ ، وهذه هى الثالثة .

وقد طبع البارى هذا المخلوق الضعيف القوى على حب الأثرة والميل للأنانية ولذلك لم أتعد الناموس العام ، فخصصت سفرتى الثانية لنفسى وشخصى .

أما اليوم فقد قضى على واجب الجنسية والوطن أن أخـدم الناطقين بالضاد فى هذه الرحلة الثالثة ، وهكذا يكون العهـد بينى وبينهم ، عام لى ، وعام لهم ، فمرة أتعبهم وأتعب نفسى ، ومرة أروح بشرط أن أريح وأستريح » ..

وقد صور فى كتابه معرض باريس مفصلا جوانبه المختلفة ، ومشاعره تجاه باريس وعظمة الفن والحضارة .

وكان معرض باريس دائما ملتقى أعلام الشرق والغرب من ملوك وأمراء وكتاب ، ومن قبل سافر جمال الدين الأفغانى من الشرق ليشـاهد معـرض باريس ، ويلتقى بالملوك والعظمـاء الزائرين له .

وقد وصف أحمد زكى باريس فى رحلته الأولى والثالثـة بأنها (فردوس الفراديس) .

وقد ذكر أحمد شفيق فى كتابه (أعمالى بعـد مذكراتى) رحلات اشترك فيها مع أحمد زكى ، وكانا قديما من رجال الخديو عباس — منها رحلة باريس ١٨٨٩ ، وذكر كيف ذهبا معا لمشاهدة

ســاره برنار فى رواية « غادة الكاميليا » ، وأشــار الى رحلة سنة ١٩٠٠ حين سافرا معا ومعهم حسن عاصم باشا (وهو أيضا من رجال الخديو عباس) على باخرة خاصة الى أنفرس .

وقد كانت رحلات زكى باشا المتعددة الى أوربا والأستانة واستانبول تجمــع بين البحث عن الكتب والمخطوطات العربيــة والارتياض ولقاء الأصدقاء والعلماء وحضور بعض المؤتمرات .

وقد أثر عن كل البارزين فى هذه الفترة ضرورة الرحلة فى الصيف خارج مصر ، وقد عرف ذلك عن محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد وقاسم أمين وغيرهم ... وكانت رحلاتهم بين استانبول وسويسرا وباريس .

رحلات العالم العربي

أتيح لزكى باشا أن يطوف بالعالم العربى فى رحلات متعددة ، الى الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) شمالا ، والى اليمن والحجاز جنوبا .

كان بعض هذه الرحلات من أجل البحث والاستقصاء العلمى ، والبحث عن المخطوطات وبعضها الآخر من أجل العمل السياسى الذى تفرغ له أحمد زكى بعد عام ١٩٢١ وتصدر ، وعوض به مجدا بمجد ، فقد كان سكرتيرا عاما لمجلس النظار ، فلما استقال (أشبه بالاقالة) عوض ذلك بأن أصبح شيخا للعروبة ، وزعيما من زعماء العالم العربى الذين يشركون فى كل قضاياه .

وفى الشام كانت زيارته عام ١٩٠٨ و ١٩٢٤ من أجل الدراسات التاريخية وقد طوف فى مختلف العواصم دمشق ، حمص ، حلب ، وكان كبير الاهتمام بزيارة مرج دابق ، التى انتهت عندها — على حد تعبيره — الامبراطورية المصرية ، والتى قتل فيها صديقه « السلطان الغورى »[1] عام ٩٢٢ و « نصيبين » حيث حقق الموقعة الكبرى بين ابراهيم باشا والجيش التركى عام ١٨٣٩ .

---

(١) لا يذكر أحمد زكى (السلطان الغورى) الا بلفظة (صديقى) ومقصده أنه نقل مكتبته سنوات طويلة الى قبة الغورى ، فالتمس من ذلك معنى الصداقة .

كما زار صيدا للبحث عن كتاب « نهاية الأرب فى فنون العرب » وقد صور سامى الكيالى رحلته الثانية الى سوريا ؛ وكيف يطوف بحلب « وكان وهو يسير فى ساحات حلب ويزور جوامعها ومدارسها وأثرياتها كأنما يتفقد عصبة من صحبه الذين عاشرهم على صفحات الكتب ، فكان يذكر المتنبى ، ويسأل عن سيف الدولة ، ويتحدث عن الفارابى وابن خالويه ، وأبى العلاء ، والبحترى ، وأبى فراس ..

« ولن أنسى قط ليلة سحر ، كانت أنغام الموسيقى تتراقص فى نفوسنا عذبة حلوة وأصوات المغنين تهز القلوب ، وتثير فى الأفئدة ذكريات وأحاسيس جميلة ، وكان مرحا شديد الطرب .

وأحب أن يسمع أنغاما بلدية بحتة ، فسمع منها ما أعجبه وأرقصه ، وطلب أن ينشدوه قصيدة أبى فراس الحمدانى (أراك عصى الدمع شيمتك الصبر) فلما لم يجد من المنشدين من استطاع أن يغنيها ، ثارت فى نفس (الباشا) ثورة عاصفة من الحنق ، وتساءل أيجوز أن تخلو عاصمة الحمدانيين ومدينة الموسيقى والغناء من منشد لهذه القصيدة العصماء .

وأسمعنيها كلها أو أكثرها ،وكان رحمه الله يرقص ويدور عند مقاطع القصيدة ويقول هذا أسمى ما ينبض به قلب حى من الشعر الوجدانى .. » [1] .

وقد زار قلعة حلب القديمة ، وتفرج على أسوارها ومخابئها ،

---

(١) مجلة الحديث م ١٩٣٥ .

واستعرض تاريخها القديم ، وكتب الى جنرال الموقع — باعتبار أن القلعة محتلة من الجيش الفرنسى — اذ ذاك — لافتا نظره الى ضرورة صيانة أثريات القلعة .

ولما حاول السفر الى (نصيبين) كان الأمن مضطربا ، والعصابات التركية تشن الغارة على الأطراف ، ولكنه صمم على السفر فى جرأة بالغة وقال : ماذا يعمل رجال الغزو معى ، ليس فى جيبى غير بضع جنيهات وساعة ذات سلسلة ذهبية وثيابى ، وفى سبيل غايتى مستعد أن أتنازل عن أكثر من هذا ، أما الآجال فعند الله .. » .

أما رحلة اليمن والحجاز فتدخل فى عمله السياسى . أما الجانب الفكرى منها فانه حصل على اجـازة رواية كتاب « الكامل » لابن الأثير فى التاريخ مـع سلسلة من تلقى الامام عنهـم ذلك الكتاب الى المؤلف .

وقد جاء فى هذه الاجازة « انه لما قدم علينا الانسان الكامل ، والندب الحلاحل ، فارس الانتقاد ، والمجلى فى مضمار الاطلاع . والعرفان المستجاد ، علامة الأدب والتاريخ ، القاعد على منصة التشييخ ، أحمد زكى باشا المصرى الدار ، أتحفه الله بألطافه وتوفيقه ...

« وقد ألفيناه كبير النفس ، عالى الهمة ، كثير الصبوة بالبحث عن الحقائق التاريخية والآداب المهمة . ذا يد طولى فى الوقوف على الحقائق وحسن التنقيب ، التمس منا — عافاه الله — الاجازة فيما اتصلت لنا روايته من كتب التاريخ وأسفاره

الجليلة الحافلة بأخبار الصلاح والفلاح وعمارة الأرضين .. »[1].

وحصل فى اليمن على كتاب « الاكليل » للهمذانى ، وصوره فى دار الكتب ، كما طوف مدن اليمن ، وراجع تاريخها القديم ، كما استنسخ ما رأى نفسه فى حاجة اليه ، من كتب وجذاذات مفيدة فى أسماء بلاد اليمن وارجاعها الى أصولها القديمة .

وله رحلات الى فلسطين أولاها عام ١٩٢٢ وأهمها عام ١٩٣١ من أجل الدفاع عن البراق الشريف ، قدم فيها تقريرا شاملا دحض به ادعاءات اليهود الى اللجنة التى استقدمتها عصبة الأمم الى بيت المقدس لتتولى التحقيق .

ولنترك رحلته السياسية عام ١٩٣١ الى مكانها فى تاريخ المترجم له ، ولنذهب وراء عمله الفكرى ، حين قام برحلته الأولى ووصل الى أعلى نقطة فوق المسجد الأقصى فوق القبة التى شادها عبد الملك بن مروان على الصخرة ، الى حيث العمود الخارجى الذى يعلوه الهلال .

يقول « جاد لى الزمان بفرصة لم يهتبلها غيرى ، وساعفنى حظ قد لا تتوفر أسبابه لأحد من بعدى ، ذلك أننى كنت فى القدس سنة ١٩٢٢ عندما شرع المجلس الاسلامى الأعلى فى أعمال التجديد والترميم ، لمنع تداعيها المتوالى ، ولحفظها من السقوط النهائى ..

هناك حدثتنى نفسى بالصعود الى أعلى ذروة على هذه القبة

---

(١) مجلة الزهراء م ٣ ص ٣٣٤ .

وكنت قد بلغت من العمر السنة الثانية والخمسين بالحساب الشمسى ، وكاشفت بهذه الأمنية صديقى ، فتفضل الحاج أمين الحسينى فأرصد جماعة من العمال لمرافقتى . أردت أن أرقى رقيا ما رقته الأنبياء ، لأن هذه القبة لم تكن موجودة فى أيام الأنبياء .

أردت أن يكون لى على قدر قيمتى الضئيلة ، وبنسبة همتى الضعيفة ، معراج على متن الأقدام لأعلى صهوة البراق .

سبقت الفجر الصادق ، فتسللت الى أحساء الشدادات [1] ، وتدخلت فى تضاعيف الروابط ، واندسست فى تجاويف (البراطيم) المتشابكة ، والكمرات المتراكبة ثم انقلبت الى خارج القبة ، فازدلفت فى ممشاة ضيقة ، يحف بها درابزين ضئيل من قضبان الحديد الرفيع ، لا يراها الواقف فى ساحة الحرم ، مهما كان حديد البصر ، فكنت على قول شاعر العرب كريشة فى مهب الريح ، مثل دودة من دود على عود كما قال عمرو بن العاص ، لكننى كنت فى لجة من الهواء ، فى سماء الفضاء وفضاء السماء فلم أر — بسبب الارتفاع الشاهق — سوى خليط من أشباح ضئيلة تطيف بقبة الصخرة ، قبة المعراج ، وفيه السلسلة وما اليها ، كانت متضامنة [2] الى الأرض ، هى تلك القباب الأنيقة الرشيقة التى كلها كأعجاز نخل خاوية ، فى قرار الهاوية . وتمتعت بالمطاف حول القبة ، ولكننى لم أقنع بهذه الرتبة ، بل حدثتنى نفسى

---

(١) الشدادات — اى الأخشاب التى تنصب حول المبانى لترميمها .

(٢) هكذا كتبها ، والمعنى قريبة الى الأرض .

باستكمال الصعود الى نهاية الذروة حتى ألمس بيدى ذلك الهلال ، هلال القبة ، لا هلال السماء ، فقد كان دخل فى المحاق وابتلعته السماء » .

واستكمل زكى باشا رحلته حتى صعد الى القبة وأشرف بالفكر على الطور ، وعلى البحر المسحور ، « فكانت مكة على يمينى تناجينى بما يقوى يقينى ، وكانت بغداد أمامى ، ودمشق عن يسارى ، أما البحر فكان من ورائى ، ومن خلفه النيل ، وفى أقصى الأفق لمحت الفردوس الاسلامى المفقود ، وان فى الأندلس لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .. » .

ولم تكن هذه أول مغامرة جريئة لزكى باشا فى رحلاته وأسفاره ، فقد كان شغوفا بصعود المناورات ، لم يغادر فى الاسكندرية ودمياط ورشيد والسويس منارا رفيعا الا صعد اليه ، ولا جبلا شامخا أو مسجدا سامقا أو معبدا شاهقا فى أرض أوربا أو آسيا الا دخله وزاره .

وقد أشار زكى باشا الى هذا فقال « قبل ذلك بأعوام وأعوام صعدت الى قمة أكبر الأهرام ، أيام كنت أرفل فى حلل الشباب ، أيام كنت طالبا فى المدرسة التجهيزية بدرب الجماميز بالقاهرة ، فى تلك السنة المشئومة على مصر : سنة الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ السوداء ..

حقق أحمد زكى مكاسب كبيرة خلال رحلاته . مكاسب كبيرة فى مجال المخطوطات والآثار ، وفى رحلة اليمن استطاع أن يحصل على عديد من التحف النادرة والدرر الفريدة ، منها رأس

فسقية عجيبة تسمى بالشدروان ، على هيئة هلال المنارة ، يصعد الماء اليها على فروع كهيئة الشمعدان اذ يحركها الماء المتصاعد من فروعها فيدور بسرعة غريبة .

ومنها شيشة (مداعه) قديمة العهد ، وقنديلان موشيان بالذهب ، ومنها سيف متوسط الحجم يرجع الى ٥٥٠ سنة ، وسبعة أحجار حميرية مكتوب عليها باللغة الحميرية القديمة ، وقنديل تتوسطه ٤ شمعدانات ترجع الى ٤٠٠ سنة .

كما حصل على عدد من الكتب القديمة منها ، كتاب العبر والاعتبار للجاحظ وأجزاء من الاكليل فى محامد اليمن للهمذانى ، ومسند الامام ابن عبد الحق وجواهر الاكليل ، وتخريج المهذب .

وحصل كذلك على مجموعة من الدنانير القديمة منذ عهد سليمان القانونى .

وقد عثر هناك على عدد من الكتب النادرة ، وكان يرى أن نقلها يتطلب تصويرها وكانت معه « فوتغرافيا » تركها فى ميناء الحديدة اتقاء الريبة — على حد قوله — ولكنه وفق الى مصور مصرى فى صنعاء رسم له كثيرا من المواقع والخطوط ..

ومن هذه المواقع شباكان فى أحد المساجد قال له أهل صنعاء انهما نقلا من أنقاض (سد مأرب) .

ولم يستطع السفر الى (منطقة مأرب) نظرا لظروف الخلاف ، ولكنه حصل على حجر كان لدى الامام (يسند به الباب) من حجارة سد مأرب ، وابتاع حجرين آخرين كانا فى أحد المساجد ، واستطاع أن يجمع على الجملة سبعة حجارة عليها رسوم وآثار .

وقد نقل هذه الثروة الى مصر لتحقيق الحروف القديمة .

كما أهدى اليه الامام يحيى ألف حبة من العقيق اليمانى ، وبعض أحجار أخرى ذات قيمة وقد زين بها قبلة مسجده .

وقد خاطب أحمد زكى « العقيق » عندما ورد اليه فقال :

« قد تفتحت بسببك الأشداق ، وسالت الأفواه ، واشرأبت الأعناق فلا يرانى انسان دون أن يطالبنى بحجر أو حجرين ، وما أنا راحم ولا وهو رحيم .. » .

ثم أعلن أنه لا يجوز التصرف فى هذه الذخيرة « لغير زينة المنبر والمحراب ، وأن أحجار العقيق التى قاربت الألف وجاءت فوق المرام ووراء الأحلام ، هى أجمل حلية يزدان بها مسجدى الصغير بجيزة الفسطاط ، كما قد تحلى ظاهره بذلك الحجر الوحيد الباقى مرقوما منقوشا من قصر غمدان .. » (١) .

ولم ينس زكى باشا فى هذه المناسبة أن يذكر أن مدينة الجيزة ، بناها بنى همدان ويافع ، من كرام اليمن فى أول الاسلام .

* * *

وقد صور متاعبه فى رحلة اليمن ، ولم ينس التحقيقات التاريخية :

« بعد ساعة نرسو على الحديدة ، وننزل بها لاستئناف الرحلة على متون المطايا فى حزون التهاتم ، ثم فى شعاب الجبال ..

خرجت من جهنم عدن ، وقد أسفت عليها كل الأسف ، فكان

---

(١) الأهرام – ١٩٣٣/١٠/٣ .

فيها الثلج الصناعى وهم يسمونه البرد ، وفيها الماء العذب الفرات ، وان كانوا انما يعتصرونه بطريق الاستقطار من الملح الأجاج .

أما البويخرة البخراء التى ركبتها ، فقد جعلتنى شديد الأسف على عدن وجهنم عدن .

.. وبالأمس وقفنا أمام (مخا) فاذا هى مدينة بيضاء فيها مبان كثيرة من الحجر ، ولكنها اليوم بلقع .

كان سكانها أيام احتلال المصريين فى عهد محمد على يزيد عن ٢٠ ألف نسمة ، فلما استولى الانجليز على مفتاح البحر الهندى (مدينة عدن) حولوا اليها الحركة والتجارة وكل المياه ، فأخذت (مخا) تتضاءل قليلا قليلا وسكانها لا يزيدون اليوم عن أربعمائة نسمة ، حتى اننا عندما فارقناها بالليل لم ير فيها الا نورا واحدا منبعثا من مصباح واحد ، لعله بيت العامل ..

رحلة الأندلس
(الفردوس الإسلامى المفقود)

كانت رحلته الى أسبانيا لزيارة آثار العرب فى الأندلس ، ذات أثر بعيد بلغ أعماق نفسه فقد عاش حياته كلها يخفق قلبه بذكر الأندلس ، ويجرى قلمه باسمها ، معددا وجوه عظمتها ، وعوامل انهيار مجدها !

وهو يصور مشاعره تجاهها فى عبارة عذبة رائعة :

« قلبى بأندلس مدله ، وعقلى بأطلاله موله ، وهيامى بأهله حديث قديم ، وغرامى بساكنيه مقعد مقيم ، وحنينى اليه متجدد حينا بعد حين ، ونحيبى عليه يحبب لى فيه الأنس والحنين ، فاعذرونى على هذا الهوى العذرى ، فقد خاننى شعرى ولم يساعفنى نثرى ، على أننى أعلل نفسى بأن تستمعوا لهمسى ، وتعاونونى على احياء أندلسى ، فذلك الهوس هوسى ، وقد لازمنى فى حلمى وفى حسى ، واستمكن من عقلى واستولى على نفسى .. » .

وكانت زيارة أحمد زكى للأندلس فى مطالع حياته عام ١٨٩٢، وهو فى سن الخامسة والعشرين تقريبا ، ومع ذلك فقد طوف بجميع أقطار الأندلس ، وابتدع لها اسما ظل علما عليها ، يردده

فى كل مقالاته عن الأندلس ، وهو « الفردوس الاسلامى المفقود »
ولا يمكن احصاء كتابات أحمد زكى فيما بعد عن الأندلس فى خلال
أربعين عاما أو يزيد ، مصححا أسماء مدنها وأعلامها ، كلما ذكرتها
برقيات الصحف خطأ ، أو ترجمها الصحفيون على غير وجهها ،
أو تعرض لها كاتب عربى أو مستشرق .

وهو يصور رحلته فى كتابه (السفر الى المؤتمر) بأسلوبه
الجزل المشرق المسجوع ، الذى تغير بعد ذلك وتطور فيقول :

لم أصل الى تخـوم أسبانيا الا بعد أن أمضيت فى القطار
السريع أربعا وعشرين ساعة لم يكتحل فيها عينى بأثمد الكرى ،
حتى أجهدنى السير ، وأضنانى السرى ، ولكنى تجددت فى القوى
حينما شممت عبير الأندلس ، واستنشقت نفحاته .

« وحينئذ شطحت مع تيار الأفكار ، ولكنى ما لبثت أن
انقبض صدرى وعلتنى الكآبة وتولانى الانزعاج ، اذ أحاطت بى
جيوش من اللوعة والأسف ، والحسرة واللهف ، لأنى تفكرت
ما ناله الاسلام من العز والاقتدار ، فى هاتيك الديار ، أيام تخفق
فوق الأندلس أعلامه ، وتجول فيه أقوامه ، ناشرة ألوية الفخار
والحضارة ، أيام كانت المآذن قائمة فى أعاليه وروابيه ، تشق
أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن الى عنان السماء .

أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها فى الشرق بما احتاطت
به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان ، حتى كانت ملوك أوربا
تتزلف الى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم .

« وكنت وأنا فى باريس درست نحو اللغة الاسبانية ، للاستعانة

على مخاطبة القوم ، ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ، ولكنى لما حضرت وتكلمت ، تحقق لى أن درس النحو شيء ، ومعرفة اللسان شيء آخر .

وأشار (أحمد زكى أفندى) الى أنه اول من زار جميع الأندلس من المسلمين والمصريين ، خصوصا من أبناء هذا الجيل ، وكتب ما رآه ، وقارن بين حاليها .

وقد اطلع على كتب عربية نادرة جدا ، وتعلم فيها الكلام باللغة الاسبانس (سرقسطة) ، وكان يتحدث معهم بالايطالية أو بالفرنسوية ، فاذا عجزوا عن فهم تحدث معهم باللغة (الاشارية) التى يفهمها جميع بنى آدم .

وزار مدن الأندلس الشهيرة : طليطلة وتسمى عند العرب مدينة الأملاك أى الملوك ، وقد ورد اسمها فى بعض كتابات العرب (توليطة) ، ومدريد ، وسرقسطة وزار بلاد البورتقال — وهذا هو اسمها فى كتب العرب (لابورتغال أو بغير واو) . وزار عاصمتها المعروفة باسم (بلسيون) والتى يذكرها العرب باسم لشبونة أو اشبونة أو الاشبونة كما زار أشبيلية . وغرناطة المعروفة باسم (اغرناطة) وتسميها العرب دمشق من باب التشبيه .

وفى سرقسطة زار جميع آثارها العربية وغير العربية ، وصعد الى قمة البرج المائل .

وطالع فى مكتبة الدون يابلدخيل كتبا عربية كثيرة أغلبها باللغة التى يسمونها (الخميادو) (Aljamiado) وهى

اللغة التى اتخذوها بعد أن فرض عليهم اهمال اللغة العربية ، وصارت اللغة القشتالية (أى الأسبانية) ملكة متوارثة فيهم ، فكتبوا علومهم بها ، ولكن بحروف عربية ، وسموها (الخميادو) .

وزار المعرض الأوربى الأسبانى ، وفيه كثير من الآثار العربية الأندلسية (التى تبعث فى النفس فخارا ، وفى القلب أحزانا)[1].

وزار جميع آثار (أشبيلية) وصعد الى قمة المنارة الاسلامية الضخمة البديعة ، التى كانت فى أحد المساجد ، فأصبحت الآن مقرا للناقوس ، وزار القصر الذى أنشأه الاسلاميون ، وقال معلقا « أنسانى كل ما رأيته من العمائر الجميلة والآثار الجليلة التى رأيتها فى أعظم مدن أوربا » .

وزار الحمراء (alhambra) وقصرها ومساجدها ، ورأى نقوشها ورسومها وزخارفها « التى تذهب بالجنـان ، وتأتى بالجنون ، فوقفت باهتا حائرا فاقد اللب والرشاد ، من هذا الاتفاق الذى لم يكن يخطر على قلبى ، مع ما سمعته عنها من الأوصاف ، وما شدهدته من غرائب المبانى غير هذه الدار » .

وفى رحلته الىأسبانيا والبرتقال ، زار الملكة كريستينا الوصية على ولدها الفونس الثالث عشر ، وأنعمت عليه بوسام ايزابيلا الكاثوليكية .

وقد عاش حياته مفاخرا بهذه الرحلة ، وهذا اللقاء ، متحدثا عنه على نحو من الازدهاء ، مصورا ذلك الفتى المصرى وهـو

---

(1) الأهرام ١٩٢٩/٢/٩ .

يطوف ربوع الفردوس الاسلامى المفقود ويقول [1] « لاطفتنى وتكلمت معى فى أشتات العلوم والأدبيات حتى بهرتنى من كثرة اطلاعها ، دار الحديث مليا على اللغة العربية وآثار العرب فى أسبانيا .

« بربك يا فتى العرب أفلو كان الله ينعم عليك بمثل موقفى مع مثل هذه السيدة الجميلة ، وهذه الملكة الجليلة ، أفلا تكون مغتبطا كل الاغتباط ، بسماع الحديث المعسول والنظر الى الوجه الذى حوت ملامحه والحلاوة والبشر والايناس ، « أكان عجبا للناس أن أتحامل فى اطالة الحديث عن القديم والحديث ؟ وأن أتلمس ذكر العرب فى بواديهم المقفرة ، للاشادة بذكرهم فى نواديهم العامرة بربوع الأندلس الزاهرة ؟ وهكذا توسلت بكل ما فى المقدور والميسور والموسوع للتفنن فى التنقل من موضوع الى موضوع ومن شرق الى غرب ومن عرب الى عجم ..

« وفيما هى تكلمنى عن الأندلس ومآثره ، رأيت الفرصة سانحة فتصديتها ، وعرضت على جلالتها أن تسعى بكل ما لديها من قوة فعلية فى سبيل كشف الغطاء عن بقايا مدينة (الزهراء) التى أنشأها أكبر خليفة اسلامى ، وهو عبد الرحمن الناصر الذى جلس على عرش الأندلس قبلها بسبعة قرون ونصف قرن وثلاث عشرة سنة .

فأجابتنى بما بهرنى بل بما زادنى اعجابا بها من الوجهين ان كان هناك مكان للمزيد .

قالت لى ما معناه : ان الأسبانيين وان كانت لهم فى القرون

الوسطى جنايات على الحضارة العربية فليس لهم يد فى هـدم (الزهراء) ولا فى تدمير الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر ، بل الجريمة كلها فى هذا الباب واقعة على ناصية المسلمين من عرب وبربر .

وذلك حق والله ، فان ما وقع بين العرب والبربر من فتن ومحن ، ومن شقاق وانشقاق ، عندما أذن الله بزوال الخلافة من أرض الأندلس ، كان ذلك سببا فى جعل هاتين المدينتين أثرا بعد عين .

وحدثتنى الملكة عن العرب وحضارتهم ، فكأنها ورثت علم ابن رشد ، وابن الطفيل وابن حزم ، وكأنها درست فى جوامع قرطبة وطليطلة وغرناطة ، على أشياخ الاسلام الذين أرسلوا شعاعا وهاجا من الضياء على كل بلاد أوربا .

ثم وضعت يدها الكريمة على صدرى ، وربطت شارة النشان الأسبانى فى عروة السترة التى كنت متشحا بها ، وهكذا أصبح العربى المسلم الشريف فارسا من فرسان ايزابيلا الكاثوليكية ، من يد الملكة كريستينيا ملكة أسبانيا .. » .

مؤتمرات المستشرقين

وفى مؤتمرات المستشرقين كان « أحمد زكى » علما تسلط عليه الأضواء ، فقد مثل الحكومة المصرية فى أربع مؤتمرات :

عام ١٨٩٢ فى لندرة ، و ١٨٩٤ فى جنيف ، و ١٩٠٢ فى همبورج ، و ١٩١٢ فى أثينا [١] ، وفى كل من هذه المؤتمرات كان يخطب ويتحدث ويقدم مخطوطات قديمة وأبحاثا جديدة .

ففى مؤتمر أثينا قدم عشرة كتب قديمة نقحها وصححها ، وستة كتب من تأليفه منها مفتاح القرآن ، وموسوعات العلوم ، معجم الكلمات المقنعة ، معجم الكلمات الكلية ، معجم تحرير وضبط الأعلام الجغرافية (عربى — فرنسى) ، وصف مجالس الندابات ، ومجموعة فيها أكثر من ألفى بيت من مراثيهن .

وكان موضع تقدير العلماء والباحثين فى هذه المؤتمرات حيث كانوا يحيطون به ويسألونه عن عشرات من المسائل والقضايا .

---

(١) عقد مؤتمر أثينا فى ابريل ١٩١٢ ، وقد قرأت تفاصيل أعماله يوما بيوم فى المؤيد ويخطىء الكثيرون فى كتابة تاريخه الصحيح ، فيقول محمود ابراهيم انه عام ١٩١٠ (الأهرام ١٩٣٤/٧/١١) ويكرر هذا الخطأ محمد كرد على ، وعيسى اسكندر المعلوف .

وفى مؤتمر عام ١٨٩٢ دعا المستشرقين الى عقد دورتهم فى المشرق :

« أشكر مسعاكم عن ذلك الشرق الذى لم يقدره القوم حق قدره ، حتى جاءت أعمالكم ، وزحزحت عنه ستار الاعتقادات الباطلة ، وأنتم تعلمون أن قومكم كانوا يجهلون قدر ما عندنا ، ويحكمون علينا بما نحن براء منه ، حتى وقعت الألفة العلمية ، وانكشف لكم ما انطوى عليه العالم الاسلامى من جليل الشعائر المنبثقة عن الطوية الخالصة » .

ودعا أن يكون الاجتماع القادم فى احدى مدائن الشرق « حتى يتيسر لعلمائنا أن يروا بأنفسهم مزايا هذه الأعمال ، ويقدروا ما ينجم عنها من الفوائد لبنى الانسان ، فينضم الى هذه العصابة التى هى طليعة الأفكار السامية والمقاصد النبيلة الفاخرة .

وفى مؤتمر أثينا استفتى العلماء فى مسألة أمانة النقل من الأسلاف ، وهل يجوز لطابع كتبهم القديمة أن يتصرف فى نقلها بالحذف والاصلاح والتهذيب ، أو يبقى الأصل كما ورد .

كما كاشف العلماء بكتاب مخطوط لا توجد منه غير نسخة واحدة فى العالم كله ، هو كتاب « الأصنام » لأبى المنذر هشام ابن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، وقال : « انى لا أود اظهار هذا الكتاب الى الوجود لأن الأستاذ (نولدكه) قال بأنه لا يريد أن يموت أو يرى كتاب الأصنام ، وأنا أخشى

أن يفى بوعده ويحرم العـلم من ثمرات كده وجده ، ولذلك فأنا أخيره بين خطتين ، اما أن أؤخر اظهار هذا الكتاب واما أن يبحث عن كتاب آخر ، ويعلق على وجوده ذلك الشرط الذى اشترطه على نفسه » .

وكان فى خلال هذه المؤتمرات يرتجـل محاضراته العلمية واللغوية بالعربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى .

وسعى فى مؤتمر أثينا لجعل اللغة العربية من لغات المؤتمر الرسمية ، حتى اذا تحقق له ذلك بدأ خطبته باللغة العربية ، ثم أتم خطابه باللغة الفرنسية .

وانتهز الفرصة فتحدث عن العلاقات الأدبية بين العـرب واليونان ، واستشهد بالنصوص التاريخية الى ما كان من عناية العرب بترجمـة المؤلفات اليونانية وخدمتها وتنقيحها ، وذكر الأموال الطائلة التى أنفقها الخلفاء ورجال الدولة وكبار العشائر فى الدولة الاسلامية الى المترجمين لاستحضار كتب الحكمة من أرض اليونان ، واستخراجها الى اللغة العربية ، وخص بالذكر الخليفة المأمون ، والبرامكة ، وآل موسى ، والوزير الزيات ، والفيومى ، الذى كان حاكما على بلاد الفيوم .

كما فصل جهود العرب فى الترجمة ، وعنايتهم بطلب العلم اليونانى من نفس أثينا التى يسميها المسلمون مدينة الزيتون ، أو مدينة العلماء والحكماء ، وأشار الى عناية الأندلسيين بالحكمة اليونانية ، وعلاقات عبد الرحمن الناصر بالامبراطور (رومانوس) ،

وكيف أنهم أسسوا فى قرطبة جمعية علمية (أكاديمية) لأجل اصلاح ترجمة كتاب (ديوستوريدس) فى المواليد الثلاثة .

وأشار الى الكتب النفيسة النادرة الباقية من هذا المصنف بخزائن القسطنطينية ، لامتيازها بالتصوير الباهى الألوان .

وقد أشارت الصحف الى ما لقيه أحمد زكى فى هذا المؤتمر — وكان معه من الأعضاء أحمد شوقى وحفنى ناصف وأحمد الاسكندرى — فقالت المؤيد : ان بهو الفندق الذى نزل فيه كان كعبة يحج اليها فى كل وقت من يعرفه ومن لا يعرفه ، وكانوا يشيرون اليه ويقولون : هذا العالم المصرى الكبير ، كما أنه لم يبق شاعر أو أديب أو صحافى فى أثينا لم يزر زكى باشا [١] .

كما أجرى عميد الجامعة اليونانية أحاديث طويلة معه ، والتف حوله الطلاب يحدثونه ويسألونه ..

ويقول محمود ابراهيم (صاحب جريدة الاكسبريس) ، وكان مرافقا لوفد المؤتمر ، ان شخصية زكى باشا ظهرت بأجلى قوتها حين وقف بين مئتين وخمسين أستاذا وعالما من شرقيين وغربيين .. أحاطوا به احاطة السوار بالمعصم ، ووجهوا اليه أسئلتهم واستفتاءاتهم ، وكان يضع السماعة على أذنه ويجيب كل واحد بما يطلبه ، وكان يجيب أكثر من واحد فى وقت واحد [٢] وفى المؤتمر الأول ١٨٩٢ كان رفيقه الشيخ « محمد راشد » الذى

---

(١) المؤيد — ٩ ابريل سنة ١٩١٢ ..

(٢) الأهرام ١٩٣٤/٧/١١ .

ألقى قصيدة باللغة العربية وقام زكى باشا بترجمتها الى اللغة الفرنسية بطريقة — وصفها الدكتور أحمد عيسى — تشبه ارتجال الشعر فى السرعة والحضور « حتى شخص له المجتمعون ، وأكبروا عمله ، اذ لم يكن له عليها سابقة استحضار ولا اطلاع .. » .

الخزانة الزكية

تعد (الخزانة الزكية) فى الحق ، العمل الأكبر لأحمد زكى ، فقد تطلع منذ صباه الى أن يكون واحدا من أصحاب المكتبات الضخمة ، وأعانه على تحقيق هذه الغاية :

١ — مركزه ونفوذه الحكومى .

٢ — رحلاته المتوالية .

٣ — استرخاصه المال فى سبيل الحصـول على النسخ الفريدة والوحيدة من المخطوطات .

بدأ جمعها وهو طالب حوالى عام ١٨٨٣ ، وفى هذه المرحلة كان يتردد على بائعى الكتب المعروفين فى مصر ، أمين هندية ، عبد الواحد الطونى ، بين آن وآخر ، ثم اجتمع له ما تنازل له عنه شقيقه محمود رشاد من كتب الى ما كان يحصل عليه من جوائز مدرسية ثم أخذ على نفسه أن يراجع أسماء الوفيات ، والبحث عن الأعلام الذين لهم مكتبات فما أن تصفى أى (تركة) حتى يقبل عليها ، فيشترى ما يستطيع ، وأتيح له بعد ذلك أن يحصل على مكتبة (البرنس محمد ابراهيم) كما اشترى خزانة كتب جبرائيل بك المجلع اشتراها عام ١٩١٤ ، بما قيمته ٣٠٠ جنيه (ذهبا) .

واشترى مكتبة محمد بك واصف النفيسة التى حجز عليها

بعض الدائنين ، وقد كلفته نحو ألفى جنيه ، كما اشترى مكتبات على باشا ابراهيم ، والشيخ رضوان العفش وحسن حسنى باشا .

وما من رحلة من رحلاته الى أوربا منذ عام ١٨٩٢ ، الا كان يبحث فيها عن الكتب و يشترى منها ويصدّرها ، وأعانه على ذلك معرفته باللغات الفرنسية والايطالية والأسبانية .

ونجح فى زيارة الآستانة عام ١٩٠٤ ، واستطاع أن يحصل على عدد كبير من الكتب والمخطوطات ، برغم مؤامرات رجال عبد الحميد ، ثم عاد اليها عام ١٩٠٩ ، وساعده الصدر الأعظم حسن حلمى باشا على زيارة عديد من المكتبات ، منها مكتبة السلطان نفسه فى قصر (أندرون) بسراى طوب قبو ، والتى كانت مغلقة فى وجه أى أحد أربعة قرون وستة أعوام ، فأمضى بها أربعة شهور كاملة نسخ منها بالفوتغرافيا عددا من ذخائر المؤلفات العربية .

وفى دمشق استطاع بمساعدة أصدقائه ومعارفه أن يحصل على الكثير ، واستحضر عشرات الكتب من الهند والعراق .

وهكذا مضت مكتبة زكى باشا تزداد وتتسع حتى بلغت عام ١٩١٩ اثنى عشر ألفا [1] .

وقد بلغت عام ١٩٢٩ حسب احصاء (مجلة مصر الحديثة

---

(١) من رسالة الى محمد كرد على فى ١٩١٩/٢/١٥ : لعله يسرك أن تعرف أن خزانتى قد انتقل عديدها من الألفين فبلغ الاثنى عشر الف .

المصورة — ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩) ثلاثة عشر ألف من المجلدات ، وعنـدما توفى زكى باشـا عام ١٩٣٤ كانت قد بلغت ١٨٧٠٠ مجـلدا [١] .

ولقد كان أحمد زكى حريصا على أمرين :

١ — أن تحصل مصر والعـالم العربى والاسلامى عـلى المخطوطات العربية التى هى من تراثه أصلا وسرقت منه أو بيعت ، وكان عمله طوال أربعين عاما هـو استرداد هذه الذخائر .

٢ — أن يحصل على نفائس الكتب العربية التى طبعها علماء الافرنج المستشرقين .

وقد استطاع أن يحقق ذلك الى حـد كبير ، ففى مكتبته مؤلفات فريدة ليس لها نظير فى مكتبة دار الكتب أو غيرها ، فضلا عن أن هناك أكثر من مائة صحيفة ومجلة من الدوريات العربية موجودة فى خزانته ، ولا يوجد منها شىء فى دار الكتب المصرية .

وكان زكى باشا يتطلع الى كل ما يكتب عن الاسلام والعرب مؤمنا بأن هذا التراث هو البذرة الأولى ليقظة الشرق ، وان الكشف عن ذلك المجد العظيم الذى صنعه العرب والمسلمون فى مدنيتهم هو وسيلة البعث والبناء للأمة ، ومن أجل ذلك جعل خزانة كتبه مرجعا لمن يريد أن يعد بحثا فى هذا الصدد ، سواء كان من الغربيين أو الشرقيين . .

---

(١) بلغت مكتبة منافسـه احمد تيمور (باشـا) ١٢ الفا من المجلدات (فقط) .

ومن أبرز ما تضمنته المكتبة الزكية :

* مجموعة كاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية المعروفة الآن بالشفرة ، وكيفيتها عند العرب ، واستخراجها .
* مجموعات من المصورات والخرائط المعمولة فى أيام العباسيين وبعدهم وخريطة الزيجة ، صنع العلامة فلاماريون الفلكى ، عن السماء وما فيها من الكواكب .
* مجموعة الفرمانات الصادرة باللغة التركية بخصوص الحكومة المصرية .
* مجموعة من المصورات لبلاد الأناضول المشهورة مرسومة بالألوان .
* من الكتب النادرة ٤ أجزاء لابن عساكر ، ٤ أجزاء لمرآة الزمان لابن الجوزى ، ونسخة كاملة من تاريخ ابن خلدون عليها خط الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، ونسخة من الجزء الرابع من تاريخ الجبرتى (ويحتوى على فصول كثيرة ، اضطر الى حذفها من النسخة التى طبعت فى بولاق لأن فيها هجوما على (محمد على) ويساوى ما حذف من الأصول حوالى ٥٠ صفحة .
* المجلة الأسيوية (باريس) من أول عدد ١٨٢٢ الى ما بعد سنة ١٩٣٠ .
* نسخة من لسان العرب على ورق كتان .
* كتاب الفتوة فى الاسلام .
* كتب الطب المطبوعة فى أوربا بالعربية والافرنجية ، ومنهـا

مما يتعلق بالفلسفة والعلوم ، والكيمياء ، والطبيعة ، والفلك ، والميكانيكا ، والآلات الروحانية ، وكتب ابن سينا ، ومنها (القانون ، وجزء من الشفاء) (طبع رومية ١٥٩٣) .

* مجموعة من الكتب التى صدرت فى مطبعة بولاق ، وفى مطبعة أركان حرب الجهادية المصرية ، ومطبعة مدرسة الطب .
* عديد من الكتب المطبوعة فى الشام ، والجزيرة (الموصل) ، وتونس والجزائر ، ومراكش ، وجزيرة مالطه .
* قطعة من تاريخ الدولة الأموية من أول خلافة الوليد ابن عبد الملك الى انقراض الدولة العباسية .
* كتاب الدر الثمين فى تاريخ اليمن أيام الامام محمد بن عايض ، وكتاب روح الروح فيما حدث بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح .
* عشرات من الكتب المنقولة بالتصوير الشمسى منها : (١) تاريخ السودان أيام محمد على (٢) كتاب المجاراة والمجازاة للصفدى (٣) مختصر « ذخيرة ابن بسام » للأسعد ابن مماتى (٤) التذكار الجامع لمحمد ملك طرابلس (٥) الامتاع والمؤانسة لابن حيان (٦) الذخائر والبصائر لابن حيان (٧) مقدمة ابن خلدون عليها تصحيح المؤلف وخطه (٨) الشعور بالعور (قاموس الأعلام المشاهير الذين أصيبوا بفقد احدى أعينهم) (٩) صبح الأعشى (نسخة كاملة سبعة مجلدات) . (١٠) رحلة الشيخ محمد بشير البرمكى من بلاد تواث الى الحرمين .

ولا شك فى أن هذه المكتبة كانت هى ذخيرة زكى باشا الأساسية فى بروز شخصيته فى العالم الاسلامى كباحث تتقاطر عليه الأسئلة من كل مكان ، تسأل عن كتاب أو حدث أو قبر أو أثر تاريخى أو رواية من روايات اللغة أو علم من أعلام الجغرافيا

فقد كان يرجع اليها فى مثل رد الطرف ، فيجيب السائل ، ذلك أنه استوعب كل هذه المؤلفات الضخمة ، وراجعها ، وعلق على هوامشها ، وأخرج فنونها فى جذاذات مرتبة ، وقصاصات تحت يده بحيث يستطيع أن ينظر فيها فيجد ضالته فى أسرع وقت ، ومن هذه المادة الضخمة استطاع أن يكشف جوانب مجهولة ، ويثير قضايا لا قبل لغيره بمواجهتها أو الوقوف أمامه من أجلها ، ولطالما أثار قضايا مع على بهجت مدير دار الآثار أو جرجس فلتاؤوس عوض المؤرخ القبطى المشهور ، أو محمد مسعود البحاثة اللغوى ، وغيرهم وغيرهم ، فكان قوى العارضة يراجع الأمر مرة ومرة ومرة حتى يستوفيه ، ويفحم خصمه ومن أجل هذا بهر المستشرقين والعلماء الأجانب .

وقد كان يرى فى داره — كما شاهدها الدكتور بشر فارس — خزانات تملؤها جذاذات مرتبة على حروف المعجم ، كل طائفة منها على حسب الفن أو الباب الذى يرجع اليه [1] .

وقد أضناه البحث عن عشرات من ذخائر التراث العربى واحتمل فى سبيلها الجهد الضخم ، من ذلك كتاب « نهاية الأرب

---

(١) المقتطف ــ اكتوبر ١٩٣٤ .

فى فنون العرب » الذى واصل البحث عنه أربعة عشر عاما ، من عام ١٨٩٠ الى ١٩٠٤ ، فى مكاتب القسطنطينه ، وروميه ، وبرلين، ولندن وباريس ، ومدريد ، وآكسفورد . وقد تفرقت أجزاؤه فى كل دور الكتب الأجنبية ، وبقيت مصر محرومة منه ، ولم يبق منه فى دار الكتب (الخديوية) الا الجزء الثانى والعشرون فقط . وظل زكى باشا يبذل الجهد حتى استطاع أن يحصل على أجزائه الحادية والعشرين .

ومن عجب أن تحوى مكتبته الكتاب النفيس بكل ما تقلب عليه من الأدوار والأطوار فتجد منه مخطوطا بخط اليد ، أولا ، ومطبوعا ببولاق ، ثم نسخا مطبوعه منه فى الشرق والغرب ، وترجماته الى الفرنسية والانجليزية والأسبانية واللاتينية . والمباحث التى كتبها جهابذة العلماء على الكتاب أو المؤلف .

وتضم مكتبته أكبر مجموعة فى الشرق مما كتب عن اللغة العربية من أبحاث علماء الشرق وعلماء الأفرنج .

ومن أجل تيسير الحصول على الكتب سعى لدى وزارة المعارف حتى وافقت على الغاء الرسوم الجمركية على الكتب .

ويقول زكى باشا انه كان فى أول أمره يؤثر عدم التجليد للكتب تهالكا على شراء كتاب آخر وكان يضم كتبا مختلفة اللغات والأبحاث والأطوال والعروض فى مجلد واحد ، وانه قد بدد كتبا كثيرة لعدم تجليدها ، ثم اضطر الى تعيين مجلد خاص يزاول مهنته ليلا ونهارا [1] .

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة — ١٩٢٩/١٢/٤ .

وقد تنقلت المكتبة الزكية من مكان الى مكان ، فكانت فى أول الأمر بمنزله خلف سراى عابدين ، حتى وافق مجلس النظار على طلب أحمد حشمت باشا ناظر المعارف فى أكتوبر سنة ١٩١٠ بتخصيص مكان خاص لزكى باشا فى دار الكتب واعطائه رخصة دائمة (وهذا المكان هو موقع باب المطبعة الشمالى لدار الكتب الآن) .

وظلت الخزانة الزكية مفتوحة الأبواب كل يوم من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى منتصف الليل .

ثم وقع الخلاف بينه وبين الحكومة عام ١٩٢١ ، فطلب اليه نقلها من دار الكتب فأوقفها وقدمها هدية للأوقاف ، وحرر الوقفية فى ٢١ أغسطس ١٩٢١ فى محكمة مصر الشرعية ، وناب عن الأوقاف محمد زكى الابراشى واشترط :

١ — أن تكون له النظارة مدى حياته ، ثم بعده لوزير الأوقاف بصفته الرسمية .

٢ — أن يكون مقرها مدرسة السلطان قانصوه الغورى .

٣ — أن تسمى « الخزانة الزكية » وتبقى مستقلة بشخصيتها ، فلا تضاف الى دار كتب أخرى أو مدرسة ما .

٤ — المطالعة فى قبة الغورى والاستعارة له وحده .

٥ — أن تكون الخزانة بأسمه وتشمل كل كتاب على حده وبحيث لا تضاف لدار الكتب أو تخلط بها وقد كان مجموع الكتب اذ ذاك ١٢ ألفا .

وقد تحدث زكى باشا عنها مرات فقال : ان سبب اهدائها

للأوقاف أنه كان يسيطر على وزارة المعارف مستشار انجليزى (دنلوب) فخشيت أن يضمها ولو بعد وفاتى الى احدى المكاتب الرسمية [1] .

وكان قد أشار اليها فى محاضرة له نشرتها المقتطف (فى نوفمبر ١٩١٠) حيث عدد المكتبات الموجودة غير دار الكتب ومكتبة الأزهر ومكتبة بلدية الاسكندرية فقال انها خمس مكتبات : بيت البكرى ، وبيت رفاعة ، وبيت عبد الله فكرى ، وبيت لطيف باشا سليم ، وبيت أحمد بك تيمور . وأشار الى مكتبته على استحياء وقال « خشيت أن تذهب مجموعتى من بعد للعطار والزيات والبقال ، أو تتفرق شذر مذر ، كما حصل للمجموعة النفيسة التى كانت تزدان بها دار على باشا مبارك فى حياته ، ولذلك جعلتها خاصة بالأمة .

ولطالما ردد أحمد زكى اهمال وزارة الأوقاف لها اذ أضافتها الى قسم المساجد ولما هطلت الأمطار (ديسمبر ١٩٢٥) كادت تغرقها لولا حارسها الذى استعان بمهندس لجنة الآثار العربية .

ولطالما هاجم هذه المكتبة فى ساعات غضبه ، متأففا من عجزه عن حمل عبئها « هذا العبء الذى كان يتكاثر كل يوم ، فأصبحت لكتبى كارها ، أتمنى الأرض أن تميد بها ، أو يرسل الله عليها شواظا من نار تأكلها ، ولكنى كنت أتضجر من هذه الخاتمة ، وأتأوه من هذا المحبوب المكروه ، الذى تغلغل فى صميم الفؤاد » ...

---

(١) مجلة مصر الحديثة المصورة ١٩٢٩/١٢/٤ .

وقد زارها محمد كرد على ، وكتب عنها فصلا فى مجلة « المقتبس » المجلد الثامن وقال ان تنسيقها أقل من تنسيق الخزانة التيمورية ، لأن صاحب هذه الخزانة — يقصد التيمورية — قد انقطع اليها سنين .

وكان لزكى باشا الى جوار ذلك حجرة ضخمة فى قصره المسمى دار العروبة : وصفها زائر عام ١٩٣٠ بقوله : اذا أتاحت لك المقادير أن تجتاز عتبتها ألفيت نفسك وسط كتب وأوراق مفرقة هنا وهناك ، تضرب أخماسا لأسداس .. وان الشيء الذى يهول هو هيكل المكتب المرتفع الواقع فى وسط الغرفة ، التى لا تعرف أول وهلة هل دولاب ضخم أو صندوق بضاعة ، أو مقام ولى من أولياء الله » .

وتلفت نظرك تلك الكتب والمجلات الملقاة على سطحه وبين ثناياه ، بلا ترتيب أو نظام ، كسواها من الكتب المبعثرة على المقاعد والأركان .

وظلت الخزانة الزكية قائمة فى مكانها حتى صدر قرار وزير الأوقاف فى ديسمبر ١٩٣٥ بنقلها من قبة الغورى الى دار الكتب ..

* * *

واليوم اذا سألت عن (الخزانة الزكية) أين هى قلنا لك انها حبيسة مهجورة فى الغرفة رقم ١٨ من مبنى دار الكتب فى القلعة . وتضم مجلداتها الـ ١٨٧٠٠ غرفتان كبيرتان ، حيث تجد مئات من الخرائط والصور منثورة فى جوانب الغرفتين المتداخلتين بدون عناية .

وتضم المكتبة حسب التقرير النهائى عن محتوياتها :

٢٢٤	فوتغرافى	(عربى)
١١٦٣	مخطوط	(عربى)
١٠٤٩٧	مطبوع	(عربى)
٩٥	مخطوط	(شرقى)
٢٢١	مطبوع	(شرقى)
٦٤٢٥	مطبوع	(افرنجى)
٧٥	مجلدا بها جرائد ونشرات وسجلات المكتبة .	
١٨٧٠٠	مجلدا	

ولا شك أن حبسها على هذا النحو يفوّت الكثير من الخير على الباحثين ، فقد تفردت المكتبة الزكية بمئات من المؤلفات (المفردة) التى لا توجد فى دار الكتب نفسها نسخ منها ، أما الدوريات ، فان هناك أكثر من مائة مجلة أو جريدة على الأقل لا توجد فى دار الكتب منها نسخة واحدة ، سوى مافى الزكية .

* * *

وفى مجال الحديث عن المكتبة الزكية يبرز دائما المقارنة بينها وبين المكتبة التيمورية . ويبدو واضحا ان كلا الرجلين أحمد زكى وأحمد تيمور كانا أشبه بفرسى رهان فى حلبة واحدة فى عنايتهما بالمخطوطات والمكتبات القديمة وان اختلفا فى الاسلوب . فزكى باشا له طريقته الاستعراضية كلما عثر على كتاب أو اكتشف نصا . فانه سرعان ما يعلن ذلك ويقيم الدنيا ويقعدها ، بينما كان أحمد

تيمور على خلاف ذلك تماما . فلا أكثر من أن يطلع عليه أصدقاءه ورواد ندوته .

ومرجع هذا فى الأغلب الى الطابع النفسى لكل منهما فأحمد تيمور رجل من السراة شغف بالعلم فتلقاه من العلماء والكتب . وقد وهب حياته كلها للعلم فلم يتصل كثيرا بالمناصب أو ذوى النفوذ . وتجـرد للدرس والبحث والمراجعـة وتكوين مكتبته التيمورية التى بلغت اثنى عشر ألفا من المجلدات . والتى عنى صاحبها بطابعها الاسلامى والعربى الواضح . وانفق كثيرا فى سبيل الحصول على ذخائرها النادرة .

ولم يكن أحمد تيمور كثير الاتصال بالصحف أو معنيا بالكتابة ولكنه كان دؤوبا على مراجعة هذه الكتب معلقا عليها مستخرجا منها نصوصا يدسها فى كراسات ويحيل فيها على الكتب الأصلية . وقد طبع بعد وفاته عدد كبير منها وما تزال لجنـة المؤلفـات التيمورية تواصل العمل وقد أعان أحمد تيمور على ذلك ثراؤه وتجرده من مطامع الشهرة ومظاهر السلطة ورغبة الظهور . بينما عنى أحمد زكى بهذه الجوانب أنفق فيها كثيرا من وقته وماله . ولذلك صدقت عبارة « كرد على » أن المكتبة التيمورية لاقت عناية أكبر فى تنسيقها مما لقيت المكتبة الزكية . بالرغم من أنهـا فاقت التيمورية بأكثر من ٦ آلاف كتاب .

وقد عنى « محمد كرد على » بهذه المقابلة بين الرجلين فى محاضرة ألقاها بالقاهرة بعنوان « الاحمدان المصريان المحدثان » أشار فيها الى أن تيمور يتحلى بالروح الدينى وان الروح المدنى

غالب على زكى باشا . فكأن هذا مستشرق شرقى وذلك شرقى قبل كل شىء .. أما تيمور فقد جال فى دائرة ما أحَبَّ أن يخرج منها طول عمره . وكذلك كان زكى . الا أن الدواعى والبواعث كانت تضطر هذا الى تجاوز المدى الذى رسمه لنفسه . فخاض زكى فى المجتمع وتغلغل فى تضاعيفه وقبله بما فيه من حسنات وسيئات أكثر من تيمور . الذى ابتعد عن المجتمع ولم يحب أن يتعرف الا الى طبقة خاصة لا تنغص عليه عمله وسلامه ..

وهنا ظهرت بعض الشىء ارستقراطية تيمور وديمقراطية زكى ، كانت حياة زكى مرحة يتمتع بمباهجها ومناعمها على ما يشتهى . ويتعجل النعيم لا يرجئه . وحياة تيمور عابسة فيها شىء من الانقباض وفيها عزوف . وكلاهما صادق فى مشربه . صادق فى سيرته غير مدلس ولا متنطس ولا متزمت .. فنى تيمور فيما أحب من صنوف الأدب . أما زكى فأخذ حياة العمال والسياسيين ، وحياة المسرفين والمترفين . وكلاهما حكمت عليه بيئته أن يكون ما كان . وعدد من أخذ عليهم تيمور من الشيوخ كان أكثر من عدد من أخذ عنهم زكى . فجاء « تيمور » عالما اسلاميا قبل كل شىء . يحب الانتفاع بما انتج أهل الغرب وجاء زكى عالما شرقيا يشبه علماء الغرب الى حد بعيد . » أ . هـ

الرسالة التى آمن بها

لا شك كان لأحمد زكى — على ضوء هذه الملامح من حياته وأعماله « نظرية » فكرية يؤمن بها ، ويعمل لها ، ويدافع عنها .

ولولا هذه النظرية التى بلغت فى نفســه مبلغ العقيــدة ، ما استسهل الصعب ولا بذل الجهــد ، ولا أنفق ماله فى سبيل مواصلة العمل الذى آمن به .

والواقع أن نظرية أحمد زكى الفكرية التى يمكن أن يقال عنها انها رسالته ودعوته كانت واضحة وضوحا مشرقا فى نفسه منذ الســنوات الأولى . وان كان قد أفاض فى الكشف عنها ، والتوسع فى اذاعتها ، بعد عام ١٩٢٢ ، حين أحيل الى المعاش وتخفف من تكاليف العمل الحكومى وقيوده ، التى ربما كانت تحد من جرأته فى الرأى ، أو صراحته فى التعبير ، أو ربما كانت تكفله بعض المجاملة لهذه الجهــة أو تلك ، مما كان موضــع النقــد أو التخاصم بينه وبين ركب النهضة المندفع الى الأمام فى حماسته . والذى كان يطمع فى أن يكون أحمد زكى — بلسانه البليغ وقلمه السيال — فى مقدمة الاتجاه الى النهضة .

وأستطيع أن أجد ملامح هذه النظرية الفكرية فى مذكرته التى سطرها من أجل الدعوة الى تبنى الحكومة لمشروع احيــاء الآداب العربية وذلك عام ١٩١٠ :

يقول : ان المستشرقين يتهافتون على الوقوف على كل ما له ارتباط بالحضارة الاسلامية ، ولا شك أن الحظ الأوفر فى هذه النهضة يجب أن يكون لمصر » ويقول : « ان المستشرقين لا يألون جهدا فى العمل على نشر الكتب التى صنفها جهابذة العرب وبحثوا فيها عن شتى الموضوعات . وتنشر لهم طائفة كبيرة من أمهات الكتب العربية النفيسة وقد يترجمونها الى لغاتهم .. » .

فهذا هو الأمر الذى لفت نظر أحمد زكى ، ودفعه الى العمل من أجل احياء الآداب العربية منذ وقت باكر ، من قبل عام ١٩١٠ بسنوات ، منذ عام ١٨٩٢ ، أى قبل أن يتقدم بهذا المشروع بثمانية عشر عاما .

هذه هى غيرته النفسية على تراثنا وآثارنا ، وقد رأى المستشرقين يتهافتون عليها ويسألون عنها ، ورأى مصر أحق بأن تتولى الصدارة فى هذا الأمر ، فوجه نفسه الى هذا العمل ، وقدم له كل ما يملك . وكان دائما يقول عندما يسأل عن العمل المتصل : هل ننتظر حتى يأتى المستشرقون فيدلونا على أمجادنا ؟

وكان أحمد زكى قد اتصل منذ فجر حياته العلمية برجال البعثة الأثرية بالقاهرة المؤسسة عام ١٨٨١ M. A. F. C. ، والتى أصبح اسمها : المعهد العلمى للآثار الشرقية Francais ، وعرف مسيو ماسبيرو رئيس المعهد ومسيو بونولا بك وترجم لهما . ثم أصبح عضوا فى الجمعية الجغرافية ، والمعهد العلمى مشاركا فى الأبحاث التى كانت تلقى باللغتين الفرنسية والانجليزية — فقط .

ولا شك أن ايمانه بعروبته (المغربية الفلسطينية المصرية) قد دفعته الى ضرورة عمل شيء فى هذا المجال . فهؤلاء الباحثون الغربيون يبحثون عن التراث العربى ويحيونه ، ومنهم المنصفون الذين لا ينكرون مجد العرب وفضل العرب ، أفلا يكون هناك عربى مصرى يقف فى هذا الصف ، ويضع كتفه فى أكتاف هؤلاء .

هنالك تطلع أحمد زكى الى هذا المجد عن طريق أعمال ثلاثة وأصلها :

١ — احياء الآداب العربية ، وذلك بالبحث عن المخطوطات النادر طبعها .

٢ — انشاء مكتبته الزكية التى كان يطمع فى أن تكون المكتبة الثانية فى مصر .

٣ — تحقيقاته وتصحيحاته ومراجعاته ، والكشف عن وجوه العظمة والقوة فى التراث العربى الاسلامى .

وقد ظل زكى باشا يردد دعوته أربعين سنة ، من أجل التعريف بفضل العرب على الحضارة الحديثة ، ولكنه لم يكن جامدا فى دعوته ، أو متمسكا بالقديم تمسك التقليد بل مؤمن بالحضارة ، مؤمن بتطوير اللغة ، يرى هذا المجد هو أساس النهضة . وهذه مجموعة من عباراته التى رددها على توالى الزمن ترسم طريقته وهدفه ورسالته :

١ — « اذهب يا فتى العرب الى أى متحف بأى عاصمة أو حاضرة أو مدينة فى ديار أوربا من شرقها الى غربها ، من شمالها الى جنوبها ، أو من شامها الى

عدنها (كما يقولون فى جزيرة العرب) فانك حيثما وضعت قدمك ستجد آثار مصر الفرعونية والقبطية والاسلامية آخذة بعضها برقاب بعض ، على ما فيها من كثرة ، وعلى ما حوته من عجب عجاب ، فان كانت أوربا قد احتلت كل بلادنا ، فان آثار أجدادنا قد احتلت كل متاحفها .

٢ — عندما أتكلم عن العرب أذكر مجدهم استثارة لهمة أبنائهم وورثة ثقافتهم ، ولست بذلك أدعوهم الى الجمود أو لزوم خطط الآباء ، فان العالم يجب أن يتطور ، ومن لم يتطور يهلك ، ويمكننا مع ذلك أن نتطور دون أن نقطع الصلة التى بيننا وبين السلف .

٣ — اذا كان اسماعيل قد أراد أن يفرنجنا ، ويلحقنا بأوربا ، فقد أخطأ ، ان انحطاط الأندلس وانقراض العرب من أسبانيا يرجع الى تخاذلهم وليس الى لزوم التقاليد القديمة .

٤ — أما الالتحاق بأوربا فهذا ما لا أوافق عليه البتة ، لأنه اذا كان هناك من يدعو الشرق الى أن يتفرنج فأنا أدعو الغرب الى أن يتعرب ، فان لنا تقاليدنا وكبرياؤنا ، ولست فى ذلك أعارض فى أن نأخذ من أوربا كل ما نتقوى به .

٥ — يرجع الفضل فى النهضة الجديدة الى من درسوا القديم وأحبوه مع اجادتهم اللغات الأجنبية ، فهم

الذين وجهوا الأدب العربى الى ذلك التجديد الذى يكاد يفى بالحاجات المعدودة فى عصرنا الحاضر .

٦ — انى لمحزون اذ أرى قومى والكاتبين باللسان العربى المبين ، لا يزالون متغافلين عن تراث أجدادنا الباقى لنا ، واذ أراهم يعتمدون على الغريب عنهم ، ويتطفلون على الافرنج ، حتى فى نقل هذه الأسماء التى يجب أن نحتفظ بها لتكون لنا منها ذكرى تنفخ فينا ذلك الروح القوى ، الذى جعل لأجدادنا مقاما كريما فى الأولين .

٧ — اللغة العربية رابطة بين الأقطار العربية ، وأنا مصرى ، ولكننى أيضا عربى ، وأحب أن لا تنفصم هذه الرابطة وانى أقول بجامعة عربية .

٨ — اننى أخذت على نفسى أن أظهر لقومى ما طوته الأيام ، وتناساه الناس من مفاخر الحضارة الاسلامية ، ومآثر المعارف العربية كلما لاحت لى فرصة وكان عندى البرهان الصادق والدليل الصادق .

٩ — أنا أنادى على رؤوس الأشهاد وفوق منابر الجرائد بوجوب الأخذ عن « الافرنج » فيما وصلوا اليه من المحامد والكمالات ولكن دون أن أنسى المميزات والحقائق التى تحدرت الينا عن الآباء والأجداد ، وعقيدتى أن الرجل الشجاع الفاضل هو الذى لا ينكر

أمته فى وقت محنتها بل يمد يده لانتشـــالها من وهدتها ، بل يفاخر بانتسابه اليها .

ان الشرقى النابغ اذا تخلى عن قومه وتفرنج فلن يكون وجيها عند الافرنج ولا يرونه الا كمية مهملة ، بل صفرا على اليسار ، فانهم ليسوا بحاجة اليه ولا الى ألف مثيل له ، ولكن اذا بقى فى حظيرة قومه ، كان هو الكل فى الكل ، وكان علما فى رأسه نار ، وكانت له المفخرة فى تجديد المجادة لأمته ولبلاده ، هــذه عقيدتى وهذا رأيى ودينى وديدنى » .

وهكذا تعطى آراء أحمـد زكى باشا وجهة نظر صـادقة متكاملة ، أساسها بناء النهضة الجديدة على أساس مقومات الأمة العربية وقيمها وتراثها . مع تقبل الحضارة الحديثة والأخذ منها .

وقد حدد هدفه أيضا فى شعر بليغ كان يردده دائما :

وقفت على أحيــاء قومى يراعتى
وقلبى ، وهــل الا اليراعة والقلب

ولى كل يوم موقف ومقالـــــة
أنادى ليوث العرب ويحكموا هبوا

فاما حيــاة تبعث الشرق ناهضـــا
واما فناء وهو ما يرقب الغـــرب

الكشف عن أمجاد العرب والمسلمين

عنى أحمد زكى فى المقام الأول من أبحاثه ودراسته بالكشف عن أمجاد العرب والمسلمين وأثرهم فى الحضارة ، ودورهم الكبير فى مجال العلم والفكر والثقافة . وقد وصل عن طريق التحقيق العلمى الى وقائع تاريخية ثابتة أبرزها :

* أن العرب سبقوا الافرنج الى التفكير فى كشف أمريكا ، وحاولوا الوصول اليها مرتين بالفعل . أولاهما فى لشبونة عاصمة (البرتقال) وثانيتهما فى مدينة (غانة) فى السودان الغربى على ساحل المحيط الأطلنطى وكان تخيلهم لها بطريقة منطقية عقلية هى أفضل من التى اتبعها كرستوف كولومب ، فانه لم يكتشفها الا بطريق الصدفة والاتفاق ، ذلك أن نظريته التى شرحها للملكة ايزابيلا ، انما كانت فى الامعان فى السير غربا حتى يصل بلاد الهند فلما وصل الى أمريكا سماها بلاد الهند الغربية ، وكان معه رجل من المسلمين هو الرياش ، وقد وصفها لنا وسماها الهند الغربية [1] .

وأن الامام الأصفهانى أثبت بطريق الاستنتاج المنطقى والدليل الجغرافى وجوب وجود أمريكا فى النصف الثانى من الكرة

---

(1) السياسة اليومية ٢٥ يناير ١٩٢٤ .

الأرضية وأنه لابد من وجود ناس وحيوان ونبات فيها[1] .

* سبق العرب الافرنج الى معرفة مرض النوم وسموه (النوام) — بضم النون وفتح الواو — وشرحوا أعراضه قبل أن تستفيق أوربا من نومها .
* سبق العرب الافرنج الى حل مسألة الطيران ، والى محاولة ذلك بالفعل والى نقله من حيز العلم الى حيز العمل .
* سبق العرب الافرنج الى اختراع كتابة العميان ..

وقد ظهر ذلك بالتحقيق عندما عثر أحمد زكى باشا على نسخة خطية لكتاب (نكت الهميان فى نكت العميان) تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى . وقد أرشد الى آن العرب كانوا السابقين الى اختراع الكتابة البارزة للعميان ص ٢٠٦ من الكتاب) وقد قدمه المترجم له الى مؤتمر العميان الذى عقد فى أثينا سنة ١٩١٢ .

* عرف العرب « الشفرة » وهى الكتابة السرية قبل الافرنج .

وكان هذا الفن مستحملا فى الدول الاسلامية من أيام المأمون الى الحروب الصليبية ، فأخذه الافرنج عن المسلمين ، الذين أخذوا مبادئه عن اليونان ، ثم رده الأفرنج الينا « ولجهلنا بمعارف أهلنا اخترناه باسمه الجديد عند الافرنج » وهو الشفرة التى نقلها الافرنج عن كلمة « صفر » العربية ، واستعملوها بمعنى الأرقام ، لأنهم استخدموا الأرقام بدلا

---

(١) الأهرام — ١٩٢٤/٢/١ .

من الحروف فى الكتابات السرية . ثم استعمل لفظ (الجفر) بدل الشفر ، لتقارب المخرجين ، لأن الجفر كان يستعمل فى الألغاز بالحوادث المستقبلة .

ونظرا لأن هذا العلم كان خفيا خاصا بأسرار الحكومات الاسلامية فقد ظل مصونا لا يصل الجمهور اليه ، ولذلك جهل كثير من الناس معنى هذه الكلمة ، حتى أن كتب اللغة لا تشير اليها ، بل أن شراح المقامات جهلوها ولم يفسروها ، بل ان صاحب لسان العرب نفسه لم يذكرها .

ومما يذكر أن المكتبة الزكية كانت تحتوى مجموعة كاملة للمؤلفات العربية الخاصة بالكتابات السرية المعروفة بالشفرة وكيفيتها عند العرب واستخراجها .

* عرف العرب « كرية الأرض » وسبقوا بها جاليليو ، الذى قال بكرية الأرض ودوران الشمس بعد أن قررها العلماء الاسلاميون فى بغداد وقرطبة والقيروان بأكثر من ثلاثة قرون ، وقد سجل هذا الشريف الادريسى وفضل الله العمرى وشهاب الدين النويرى ، وان أبا الفداء والامام الأصفهانى قالا أيضا بكرية الأرض .

* عرف العرب القباطى المصرية قبل الافرنج .

وقد عرض الافرنج هذه المنسوجات على اعتبار أنها من فنون النسيج الحديث التى ابتكروها ، فتصدى لهم أحمد زكى فى مقال نشره فى الأهرام ١٢ أغسطس ١٩٢٤ معلنا أن هذه الصناعة عرفها قدماء المصريين وحافظوا عليها قبل مجىء

الاسلام كما أنهم احتفظوا بها الى آخر دولة المماليك وقال أنه ورد ذكرها فى كتاب ألف ليلة ، وقد انتقلت الى مراكش والأندلس وان أكبر فخار ناله هذا النسيج المصرى هو تشرفه منذ صدر الاسلام بكونه أصبح كسوة لأكرم بيت عند الله ، وان الفاروق عمر هو أول من كسا الكعبة الشريفة بالقباطى المصرية .

* (١) ان العرب سبقوا الافرنج الى اكتشاف منابع النيـل ، ووصفوها وصف الشاهد العيان قبل الافرنج بسبعة قرون ، والمؤكد أن المسلمين من أبناء المغرب الأقصى سبقوا الافرنج فعلا ، ووصلوا قبلهم الى منابع النيل وداروا حولها ، ودونوا وصفها .

* (٢) ان العرب سبقوا الافرنج الىمعرفة تيار الخليج Gulf stam الذى تتدفق أمواجه فى وسط المحيط الأطلنطى قبل الافرنج بحوالى ١٨٩ سنة .

وأن الرجل الذى قام بهذا الكشف اسمه (الامبيوس) وهو لفظ أصله عربى ترجمته (الأمين) وهو من أبناء بيت عرف باسم الأمين فى غرناطة وكانت السفن التى أرسـلها أمير مالى وغانة مائتى سفينة شحنها بالرجال لاختراق البحر المحيط (الأطلنطى) فغابوا مدة طويلة ، ثم عادت سـفينة

---

(١) الأهرام — ٢٨ يونيه ١٩٣٣ .

(٢) الأهرام — ٢٠ يوليه ١٩٣٣ .

واحدة أخبر من بها أن السفن سارت زمنا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له « جرية عظيمة » فابتلع المراكب وكان ذلك عام ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) وأكده ابن خلدون فى تاريخه ونقله فضل الله العمرى فى (مسالك الأبصار) كما نقله القلقشندى .

الدفاع عن العرب

وعلى نفس الخط الذى سار فيه أحمد زكى كان دفاعه عن العرب ، دفاعا مجيدا ، فما من خطأ وقع فى كتابة باحث شرقى أو غربى الا وتصدى له بالمراجعة والبحث ، وأبرز حق العرب وفضلهم وسبقهم .

١ — لعل أهم ما يذكر له فى هذا المجال رده على ما جاء فى الصحف من أن المسيو بونكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية أثناء زيارته لعاصمة (الانفليشين) أى (لوندرة) — استقبل عشرين وفدا من طوائف الانجليز ورجالاتهم المعدودين ، وكلهم قدم له خطبة للترحيب بمقدمه الى بلادهم فأجاب كل خطبة بعبارة من الشكر تخالف ما أجاب به الأخرى .

هنالك أسرع أحمد زكى الى نشر فصل فى جريدة فرنسية تصدر فى الاسكندرية وهى جريدة «النوفيل» بين فيه سبق العرب فى هذا المجال ، وأن الوزير ابن زيدون فعل أكثر من هذا ، فيما أورده ابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة فى محاسن الجزيرة) أى

جزيرة الأندلس . فقد روى أن الوزير « [1] كان قائما فى جنازة بعض حرمه ، والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ؛ فما سُمع يجيب بما أجاب به غيره ، لسعة ميدانه ، وحضور جنانه . قال الصلاح الصفدى « وهذا من التوسع فى العبارة ، والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام وهو أمر صعب الى الغاية ، وأقل ما كان فى تلك الجنازة وهو وزير ، ألف رئيس ، مما يتعين عليه أن يشكر له ، فيحتاج فى هذا المقام الى ألف عبارة مضمونها « الشكر » وهذا كثير الى الغاية » .

يقول أحمد زكى : وأظهرت للجريدة الفرنسية أن ما صنعه « ابن زيدون » أكثر بكثير مما فعله الرئيس « بونكاريه » ، ولا سيما اذا نظرنا الى الموقفين ، فان المثكول بالأولاد ، المحروق الفؤاد ، يستعصى عليه الكلام ، ولو كان فى بلاغة قس وفصاحة سحبان » .

ويرى أحمد زكى أن الأمر عند العرب لم يقف عند هذا الحد ، مقدما ثلاث شواهد من العراق ومصر والشام .

* الشاهد الأول : الحريرى (العراق) صاحب المقامات ؛ كلما جمع بين الحارث بن همام وبين

---

(1) مقدمة كتاب ابن زيدون . أو صفحة من مجالس الأنس فى ليالى الأنس لأحمد زكى طبع سنة ١٩١٤ .

السروجى ، واحتاج الى التفريق بينهما ، والى القول (فلما أصبح الصباح) تراه يعبر عن هذا المعنى فى كل مقامة بعبارة تغاير الأخرى .

* الشاهد الثانى : الخطيب بن نباتة (مصر) أملى مجلدة معناها من أولها الى آخرها « أيها الناس اتقوا الله واحذروه ، فانكم اليه ترجعون » وهذا أمر بارع معجز .

* الشاهد الثالث : الصلاح الصفدى (الشام) فانه ألف كتابا كبيرا فى تاريخ المشهورين فى عصره . وسماه (أعيان العصر وأعوان النصر) وهو يقع فى اثنى عشر مجلدا ، فكلما ذكر وفاة أحد المترجمين استعمل عبارة تخالف الصيغة التى استعملها فى كلامه على وفاة غيره ..

وقال أحمد زكى : ان هذه الشواهد قد أوردتها لا لى النهى من الافرنج الجاهلين أو المتجاهلين ، ومن المصريين والمتفرنجين ، ليعلموا أن فى اللغة العربية كنوزا لمن يطلبها ، وذخائر تجعل لها ولأهلها فخرا باقيا ..

٢ — دافع عن العرب ازاء اتهام أحد الرحالة النمساويين وزوجته (جوزيف يسنجر) لأحد مشايخ العرب فى

خلال رحلته بالصحراء فى أفريقيا أنه قدم له فاكهة مسمومة .

وكتب زكى باشا مقالين متوالين : أولهما بعنوان : «حاشا للعرب أن يقدموا السم لضيفهم (الأهرام ٢٦ أكتوبر ١٩٢٨) والثانى بعنوان « وشيخ القبيلة أيضا لا يدس السم للضيف » (الأهرام ٢٨ أكتوبر ١٩٢٨) ومما قاله « فليقل لى صاحبى ، ماذا كان يمنع شيخ القبيلة من أن يفعل به وبزوجته كل ما يريد من قتل وسبى وتشريد ؟ وهو فى مأمن تام من كل عتاب أو عقاب ؟ اللهم الا وخز الضمير ، اللهم الا الشهامة العربية ، اللهم الا الكرامة البدوية .

وقال : لا أقسم بالسماء والطارق ، ولا بالفجر الكاذب أو الصادق ، بل برب المغارب والمشارق ان العرب والبدو والطوارق ، لا يدسون السم للغريب الطارىء ولا للضيف الطارق .

ولست بالذى يمين فى هذه اليمين ، لأنى أتحدث عن خبرة هى عــين اليقين ، بعدما طوفت فى السباسب والفراقد ، على متون الأفراس والبغال والأباعر ، وعلى ظهور السيارات والمواتر [1] ، لا فرق فى ذلك بين الجول والشول والحمار فى بادية العرب والشام ،

---

(١) أى الموتورات (كل ما يسير بالموتور) .

وبين تيه اليهود فى شبه جزيرة الطور بفاران ، ومهامه تهامة فى اليمن والحجاز ، ولا بين برارى مريوط والنطرون وشيهان ولوبيا فى أحشاء الرمال التى لها بالصحراء الكبرى أتم اتصال ..

ويوجه كلامه الى الرحالة : أنت نسبت الى قبيلة البربر ارتكاب الفظائع ، فأنت ظلمت الحق والتاريخ لا بل سل المستشرقين من قومك مثل (كراباسك) ثم سل العلامة (هـ موللر) ثم سـل (جولد سـير) و (كوينزتفلد) دون زملائهم فى بقية أوربا وأمريكا ، فكلهم يتحدثون اليك عن مفاخر البربر ، وعما كان لهم أيام كانوا فى صنهاجة وبنى عبـد الواد ، من السلطان الأكبر وعمـالهم فى يومنا هذا من المآثر والمحامد ، التى لا ينكرها حاقد أو جاحد ..

٣ — وهو يهاجم الدعوات التغريبية التى تريد أن تفصل العرب ، وتمزق شملهم ، فاذا جاء ذكر (الفينيقية) تطوع لكشف حقيقة هذه الكلمة ، وأبان أن العرب لم يعرفوها ، وأنها كلمة دخيلة ، فهو ينكر أن كان عنـد أسلافنا العـرب شىء أو لفظ اسـمه فينيقيه أو فينيقى ، ويقول : فكيف أرضى [1] لابن عمى أن يختار لبلده ولقومه اسما افرنجيا ، وهو لا أصل له عندى ولا عند جدى .

(١) المقطم ١٣/١٠/١٩٢٩ .

« فينيقية » هذا لفظ يونانى معناه النخلة ، وقد وضعه الأغارقة فى جاهليتهم الأولى ، بعدما زاروا تلك البقعة الساحليةالتي تمتدمن أنطاكيةشمالا الىغزةجنوبا . وانما أطلقوا عليها هذا اللفظ لأنهم حين وفودهم عليها رأوا النخلة (أصلها ثابت وفرعها فى السماء) وهى تتهادى فى جمال واختيال مع النسيم حيثما مال ، فقالوا مشدوهين :

— فينكيا . فيليكيا .

وتناول شعراؤهم ومؤرخوهم وكتابهم هذا الاسم الجميل فجرى بين يراع (أوميروس) شاعرهم الأقدم ، و (هيردوت) مؤرخهم الأول ، حتى وصل الى بطليموس الجغرافى الفلكى ، الذى تعشقه العرب ، وهاموا به وبكتبه هياما لا يقف عند حد ، ومع ذلك لم يأخذوا عنه هذا الاسم ، ولم يسيغوا هذا الاصطلاح كما فعل الرومان من قبلهم .

(١) ومضى يتحدث عن أهل هذه المنطقة فقال : انهم درجوا فى عشهم الأول فى جزائر البحرين الواقعة على الضفة الشرقية من بلاد الأحساء وهى (الحسا) من جزيرة العرب ، فهى لا جدال قحطانية الأرومة يعربية النسب .

---

(١) المقطم — ١٩٢٩/١٠/١٦ .

وقد اضطر فريق من هذا الفخذ من عشائر قحطان بتلك الجزائر (جزائر البحرين) الى الهجرة ، فركب متن الخليج الفارسى قبل ميلاد المسيح بنحو ٣ آلاف سنة ، حتى اذا انتهت بهم أمواج الملح الأجاج الى أمواه العذب الفرات ، أمعنوا بسفائنهم ، مصعدين فى الفرات الى أن ألقوا الأناجر والمراسى (عند بحر النجف) . على مقربة من مدينة بابل ، وهناك نصبوا المضارب والخيام واستقر بهم المقام .

.. ثم عادوا الى الترحل فى الفيافى والقفار ، الى أن ألقوا عصا التسيار على شاطىء بحر الشام ، وهنـــاك أسس هؤلاء الأعاريب ملكا يشـــمل عـــلى الدوام طرابلس برياضها ، ثم بيروت بلبنانها ، ثم صـــور بأرجوانها ، ثم صيدا بأثمارها ، وأزهارها ، ثم عكا بحصبها ، ثم حيفا بكرملها .

وقال : ان الحضارة التى نشأت فى تلك المـــدن فى البحرين هى نفس الحضارة التى شيدت نظائرها على سواحل لبنان وفلسطين ، ولا سيما فى صيدا وفى صور ، حينئذ ثبت أن الحضارتين مرتبطتان برباط وثيق من العروبة قد سجله التاريخ وقد أيدته الآثار ، وبما أن أهل البحرين منحدرون عن قحطان ، فمن الطبيعى أن يكون فرعهم الذى نجب فى لبنـــان وفى

جنوبى لبنان تابعا لتلك الدوحة الذكية التى تفاخر به .. » .

٤ — الرد على شبهات اليهود :

كما حرص « أحمد زكى » على[1] رد شبهات اليهود وحاربها بعنف ، ومن ذلك أن الدكتور (هوبارك) من البنجاب أعلن حين مروره بالقدس (ونقلت ذلك الأهرام) أن فى أفغانستان وبلوخستان والهند ما يقرب من مليونى مسلم يعدون أنفسهم يهودا فى الجنسية ، وهؤلاء المسلمون كما يدعى الدكتور بارك يدعون أنفسهم ببنى اسرائيل ، أو هم يقولون بأنهم منحدرون من اسماعيل بن ابراهيم ، وأن أسلافهم جاءوا الى البلاد المذكورة منذ اثنى عشر قرنا خلت ، وهم يعدون التوراة من كتبهم المقدسة » .

وينهال أحمد زكى بأسلوبه الساخر العنيف مفندا هذه الأكذوبة فيقول : « هل نظرت الى هذا الحديث عن نصرانى ، عن يهودى ، عن هندوكى ، وقد يكون هذا الهندوكى بوذيا ، أو برهمانيا ، ان لم يكن صهيونيا ، أو مبشرا انجليكيا ، أو انجليزيا .

وأنا أحمد زكى باشا لا أصدق هـذه الرواية التى جاءتنى اليوم عن هندوكى وعن يهودى عن نصرانى

---

(١) الأهرام — ٢١ مارس ١٩٢٩

فهل من فتى صديق يوافينى بكأس .. ولكنه من ذياك الرحيق ؟

لذلك رأيت من الواجب أن أكاشف قومى بما عندى فى هذا الباب ، أما أول القصيدة فهو دلالة على الكذب والبهتان ، ولا أقول غير ذلك فان كان لليهود جنس (Roca) فلا ريب ولا جدال بأنهم الى اليوم والى ما بعد اليوم ليس لهم جنسية (Nationalite) فكيف يكون بعض الأجيال مسلمين دينا ويهودا جنسية ؟ هذا محال بل ضلال .

وبعد فهل هناك مسلمون هم يهود ؟

ليس الدكتور بارك هو أول من يكاشفنا بهذه الخرافة ، ولكن فريقا من العلماء من قبله قد غرتهم أقوال أولئك الأقوام فقالوا بها أيضا مثل بللو ، وبول ، وهولدشى ، ومثل رافزتى (ببعض تحفظ من هذا الأخير) والناس مجبولون على التولع بكل ما هو غريب ، أو غير مألوف ، ولكن هذه النظرية الواهية قد درسها المحققون من علماء الافرنج ، فنقضوها من أساسها ، بحيث لا يصح لعاقل أن يرجع اليها .

أما عكس ذلك فقد أثبته التاريخ الصادق الى الأمس فان جماعة من اليهود تستروا برداء الاسلام ظاهرا والى حين ، ذلك أن الاسبانيين حينما طردوهم من

(الفردوس الاسلامى المفقود) بعد تقلص ظل العرب من جزيرة الأندلس ذهب جماعة منهم الى أرض الترك وتوطنوا على الخصوص فى مدينة (سلانيك) وأجوارها ، وقد دعاهم حب الكسب والغنيمة الى التظاهر بالاسلام وهم المعروفون عند الأتراك بلفظ تركى ، هو (طونة) وينطقونه (دونمة) بدال مفخمة مثل دال (دوطية) .

أولئك اليهود المسلمانيون ما لبثوا بمجرد صدور الدستور العثمانى فى أواخر حكم عبد الحميد [1] أن عادوا الى خلع ذلك الثوب الشفاف فصاروا يهودا كما كانوا لا يزالون .

أما القول بأنه توجد على وجه الأرض جماعة هم مسلمون دينا بينما هم يهود جنسية فحديث خرافة يا أم عمرو ، وكفى الاسلام ما أصابه من جرثومة الفساد (كعب الأحبار) ومن شجرة الضلال (وهب ابن منية) ومن ينبوع الخرافات (عبد الله بن سلام) ومن رابعهم (عبد الله بن سبأ) وقد نالوا منه كل المرام وأصابوه بالدواهى العظام ، وأهله غافلون ،

---

(١) صدر الدستور عام ١٩٠٨ .

ولا يزالون . أما القول بأن المسلمين فى بلاد الأفغان يعتبرون التوراة من كتبهم المقدسة فذلك كلام ليس له برهان ومصدره الدعاية الصــهيونية والنزعات الاستعمارية .. » .

التحقيقات والتصويبات
(التاريخية - الجغرافية - اللغوية وأسماء الأعلام)

أما المجال الفسيح الضخم العريض لمراجعات زكى باشا وقراءاته المتصلة فى مراجعه وكتبه ومخطوطاته التى جمعها خلال أربعين عاما أو يزيد ، والتى عاش فى غمارها يراجع ويحقق ويكتب تعليقاته وجذاذاته ، هذا المجال نجده فى هذه التحقيقات والتصويبات التى لا حد لها فى مجالاتها التاريخية والجغرافية واللغوية وأسماء الأعلام والآثار .

وهى حصيلة ضخمة واسعة نشرها فى الصحف ، وحاولنا الاحاطة بها على قدر الامكان ، واستطعنا أن نحصر قضاياها الكبرى ، وقد ركز فيها على مصر بالذات ، واهتم بها اهتماما كبيرا ، وجعل رحلته فى بلادها وآثارها ومعابدها ومساجدها ، ومراجعة ما كتب عنها ، همه الأول .

١ — فى مصر

وقد بلغ من الاحاطة بها أن كان يعرف آثارها الاسـلامية المنبثة فى أقصى القرى ، وينتقل اليها ويحقق فى أمرها ، ولعل أبرز ما وصل اليه فى هذه التحقيقات التاريخية ما كشف عنه ، وأثار به ضجة كبرى ، وهو :

* السيدة زينب ما اختارت مصر ولا هى مدفونة فيها .
* الرأس الشريف ليس بالمسجد الحسينى .
* مؤسس الأزهر والجبرتى ليسا مدفونين فى الأزهر .

١ ـ قبر السيدة زينب :

أثار أحمد زكى أمر الرواية القائلة بقدوم السيدة زينب بنت الامام على وأخت الامام الحسين الى مصر واقامتها ووفاتها بها .

وأنكر هذه الرواية ، بعد أن أجرى مراجعات متعددة على طريقته ، وفى هذا يقول :

« الذى يشهد به العارفون بالحق الصريح ، هو أن السيدة زينب بنت الامام على وأخت الامام الحسين ، لم تتشرف أرض مصر بوطء قدمها المباركة مطلقا مطلقا مطلقا ..

والحق الذى ليس بعده الا الضلال ، أنها قضت باقى حياتها

بالحجاز ، الى أن انتقلت الى جوار ربها بالمدينة المنورة ، فكان دفنها بالبقيع .

هذا هو الصواب ، وما عداه فأفك وبهتان .

أما المشهد القائم بالقاهرة فلا يضم رفات السيدة الطاهرة التى أنجبها الامام على ، وقد يكون قائما على ضريح امرأة من الصالحات تسمى زينب أيضا ، كما يجوز أن يكون المدفون فيه أى مخلوق من أى نوع كان ، حتى ولو ممن عبده المصريون على عهد الفراعنة .

كل هذا جائز الا أن يكون ضريح « زينب » بنت على من فاطمة الزهراء .

« وليعلم الناس أن ذلك الضريح لم يكن له وجود ولا ذكر فى كل عصور التاريخ الاسلامى الى ما قبل محمد على الأكبر بسنوات معدودات .

« فقد جاء مصر واحد من الأغـاوات ، واغتنى فى مصر ، وأحرز ثروة طائلة ، وجاها عريضا ، وهو الأمير (عثمان كتخدا) صاحب الجامع القائم باسمه بآخر شارع عابدين وبأول ميدان الأزبكية بالقاهرة ، هذا الرجل كان طيب السريرة ، وقد وسوس له بعض الأشـياخ بأن يبنى جامعا على ضريح فى تلك البقعة ولا أدرى كيف وصفوه بأنه لامرأة تسمى (زينب) ثم تسلسلت الأكاذيب فجعلوها زينب بنت على من فاطمة البتول .

« لم يكن لزينب (أيا كانت) ضريح قبل عثمان كتخدا ، حتى

بين المزارات المكذوبة فى القاهرة ، (ويا ما أكثرها) أما البركة ، وأما الروحانية فذلك شىء آخر .

« من أكذب الكذب ، ومن منتهى الافك والبهتان أن يقول انسان يحترم الحق ويحترم عقل نفسه أن السيدة زينب بنت الامام على قد اختارت الاقامة بديار مصر ، أو أن يزعم بأنها هى المدفونة فى القاهرة » [1] .

وأضاف « يوسف أحمد » مفتش الآثار العربية على ما ذكره أحمد زكى أدلة تاريخية متعددة تؤيد القول بعدم مجىء السيدة زينب الى مصر ، وعدم وجود قبر لها فى هذه الديار .

وقال أن ابن جبير الأندلسى زار مصر فى أواخر القرن السادس للهجرة وكتب أنه وجد بها مشـــهدا للسيدة زينب بنت يحيى ابن يزيد ، واستنتج من هذا أن مقام السيدة زينب بنت الامام على لم يكن له وجود فى مصر حتى أواخر القرن السادس للهجرة وأن السخاوى المؤرخ المشهور أيد ذلك الرأى . وقال يوسف أحمد أن البانى للضريح هو عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٤ ، وليس عثمان كتخدا [2] .

٢ ـ رأس الحسين :

وأثار أحمد زكى مسألة رأس الامام الحسين ، وأنكر وجودها فى المشهد الحسينى بالقاهرة فى مقال طنان رنان على طريقته فى

(١) الأهرام ـ ١٩٣٢/٩/٨ .
(٢) الأهرام ٢٠ سبتمبر ١٩٣٢ .

مقالاته التى كانت تنشرها الأهرام فى ذاك الوقت بالصفحة الأولى وبعناوين ضخمة ، فكتب تحت عنوان (الرأس الشريف الأطهر ليس بالمسجد الحسينى)[1] وهذه عبارته :

« أسطورة وقرت فى الصدور ، ورسخت فى الأذهان ، وزادها مرور الزمان تمكينا وتأييدا ، فتناقلتها الكافة جيلا بعد جيل ، وأخذها الأخلاف عن الأسلاف قضية مسلمة لا تقبل نقدا ولا نقضا .

« أثبت جميع التاريخيين الذين يعتد بأقوالهم ، ولا سيما المتقدمين منهم ، بأن عبيد الله بن زياد بن أبيه بعث بهذا الرأس الى الخليفة يزيد بن معاوية بدمشق .. ثم أمر بعرضه فى الجامع الأموى ، ثم بصلبه ثلاثة أيام فى دمشق ، ثم أنزلوه ووضعوه فى خزانة السلاح ، فلما أفضت الخلافة الى المروانيين ، أمر سليمان ابن عبد الملك فوضعه فى سفط وطيّبه وكفنه فى خمسة أثواب ، وصلى عليه مع جماعة من أصحابه ودفنه فى مقابر المسلمين .

وبقى الرأس الشريف مدفونا بمقابر المسلمين فى دمشق الى أن فازت الدولة العباسية بالخلافة ، فكان أول هم المسودة البحث عن موضع الرأس الشريف حين دخولهم دمشق ظافرين فنبشوا قبره وأخذوه ، والله أعلم ما صنع به ، ولكن ابن بكار والهمذانى والامام القرطبى ، وهم من الصدور المتقدمين قرروا بأنه دفن فى البقيع عند قبر أمه وأخيه الحسن[2] .

---

(١) الأهرام ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ .
(٢) الأهرام – ١٩٣٣/١/١٣ .

٣ ـ مؤسس الأزهر غير مدفون فى الأزهر .

وأكد أحمد زكى فى بحوثه وتحقيقاته المتعـددة أن القبر الموسوم باسم (جوهر الصقلى) فى قلب الجامع الأزهر ليس له ، وأنه غير مدفون به .

وله على ذلك أدلة ومراجعات أوردها على هذا النحو :

« أغلوطة لا يمكننى المرور بها دون التنبيه عليها ، والارشاد الى وجوب تصحيحها ذلك لكيلا يكون فيها حجة للمستشرقين أو أهل الدراية على أن أهل مصر (بلسان الصحافة الصادرة فيها) لا يعرفون الحق أو يتغاضون عنه .

فقد ذكرت الصحف [1] أن قبر جوهر الصقلى فى قلب الجامع الأزهر .

ان مدفن القائد جوهر الصقلى مؤسس الأزهر غير معلوم الى الآن ، وطالما بحثت عنه فذهبت أتعابى أدراج الرياح .

* ان قبره غير موجود بالأزهر بل ان المدفون بالقبر الجميل البديع القائم بالملحق الأيسر المضاف الى الأزهر انما هـو جوهر آخر .
* ان طراز البناء هو من أسلوب الفن المملوكى ، ولا علاقة له بالفن الفاطمى الباقى من آثارهم ، مثل جامع الحاكم والجامع الأقمر .
* الذى شابه جوهر الصقلى فى الاسم هو طواشى حبشى من أهل القرن التاسع للهجرة ، قال عنه السخاوى فى (الضوء

---

(١) الأهرام ـ ١٩٣٣/١/١٢ .

اللامع) ما خلاصته أنه (جوهر القبقبائى) نسبة الى مولاه الذى اشتراه ورباه ، وهو (قبقباى) الجركسى .

٤ - والجبرتى ليس مدفونا فى الأزهر .

وعارض أحمد زكى القول السائر بأن الجبرتى مدفون فى الأزهر وقال : أنه [١] كلف الأستاذ (أحمد لطفى السيد «الصغير» بدار الكتب) لكى يتجرد لهذا البحث وأن الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار الاسلامية بالأوقاف « يعرف مثلى أن قبر المؤرخ الجبرتى فى (بستان العلماء) بقرافة المجاورين ، ويعرف أكثر منى ومن غيرى ظروفه وأحواله ، ونقوشه وكتاباته » .

وكتب أحمد لطفى السيد فى الأهرام يعلق على كلام أحمد زكى ويقول ان الجبرتى مدفون فى قرافة (قايتباى) .

٥ - تحقيقات حول الأعلام والقبور .

وأجرى أحمد زكى تحقيقات متعددة حول عديد من الأعلام والمساجد والقبور والشوارع ، أمثال القائد جوهر ، وكشكش بك ، وسيدى جابر ، وقبر سليمان الفارسى . مراجعا فى ذلك الروايات المشهورة ، محققا اياها ، محاولا الوصول الى الحقيقة .

١ — فالقائد جوهر الذى فتح مصر وأسس الأزهر تضاربت الأقـوال فى جنسيته ، وقال بعض المؤرخين انه من الطليان .

---

(١) الأهرام — ١٩٣٣/١/١٥ .

ويرى زكى باشا أن هذا التضارب انما جاء بسبب الوصف الذى أطلقه عليه كتاب العرب المتقدمون ، والمقطوع به أن جزيرة صقلية كانت قد دخلت منذ زمان طويل فى حوزة أمراء افريقية ، ثم آلت بعد ذلك الى الفاطميين « وفى خلال ذلك الزمان كان قد انتشر فيها الاسلام أيما انتشار ، وازدهر فى ربوعها أيما ازدهار ، فنبغ فيها العلمـــاء والفضلاء ، والكتاب والشعراء ، وأهل الوجاهة والرفاهة ، وكلهم يعرف بالصقلى نسبة اليها ، وقد جمع أسماءهم الكثيرة وتراجمهم الوافية أحد المستشرقين الطليان ، وهـــو العلامة (أمارى) .

وقال أحمد زكى : ان القائد جوهر كان من هـــذا الفريق ، والدليل على ذلك أن وظيفته الأولى التى كان معروفا بها انما هى كتابة السير ، ثم تولى قيادة الجيش وقد أوغل فى فتوحاته نحو مغرب الشمس حتى انتهى الى المحيط الأطلنطى (ولا نقول أطلسى ، أطلنتيكى ، أتلانتيك الى آخر هذه السخافات) وان هذا الرجل ليس من الطليان ، والذى صح عنـــدى أن جوهـــر الصقلى ليس طليانيا كما يقول الطليان والمتطلينون [1] .

---

(١) الأهرام ــ ٥ يولية ١٩٢٩ .

٢ — ويعرض أحمد زكى لأسطورة « كشكش بك » فى محاضرة رنانة ألقاها بالافرنسية فى المجمع العلمى المصرى ، محاولا تحقيق الأسطورة واخراجها الى مجال التاريخ .

وعنده أنه كان فى عهد محمد على باشا الكبير ضابط فى الأسطول المصرى اسمه (كوشك) على بك — أى على بك الصغير — سكن الاسكندرية بعد أن أحيل على المعاش ، وكان من طبعه العطف على الكلاب يطعمها الحلوى ، فتلتف حوله ، وبهذه المناسبة حدث التحريف .

* * *

٣ — ويبدى « أحمد زكى » اهتماما كبيرا بسيدى « جابر » الأنصارى صاحب الجامع الشهير (برملة) الاسكندرية .

وعنده أن صاحب المسجد هو ابن جبير الأندلسى وليس « سيدهم » جابر الأنصارى على حد تعبيره .

(١) وعنده أن الصحابة الكرام المعروفين باسم جابر لا يزيدون على ٢٥ انسانا كما نص عليهم صاحب (تاج العروس) منهم عشرة من الأنصار ، هم ابن سفيان ، وابن صخر ، وابن أبى صعصعة ، وابن عبد الله ، (ثلاثا) وابن عنيك (ثلاثا) وابن

عمير ، ولم ير فى مصر (أى الفسطاط) منهم سوى ابن عبد الله وكلهم لم يدفنوا بوادى النيل .

(٢) ومن أجل ذلك « فلا حجة ولا أصل لما اخترعوه ، وزعموا أنه جابر الأنصارى والحال أنه رجل آخر باسم آخر قريب من جابر ، بل هو تصغير جابر أى جبير .

(٣) اذن فمن المدفون فى ذلك الضريح ؟

يجيب أحمد زكى بأنه « كان من عادة اخوانا المغاربة أنهم يتهافتون على الحج عن طريق وادى النيل ، وكان بعضهم يطيب له المقام فى مصر ، ويوافيه الحمام بها ، ومنهم الشاطبى ، والمقرى ، وابن خلدون فى القاهرة .

ومنهم المرسى والمغاورى والطرطوشى والشاطبى وغيرهم بالاسكندرية ، ومن هؤلاء الثانى « ابن جبير » الأندلسى للرحالة الأشهر ، وقد ورد هذا النص الصادق الصريح بأنه انقطع للتدريس فى الاسكندرية وأنه مات بها ، ودفن بها .

(٤) أما قبره فقد وجه اليه أحمد زكى عناية كبيرة ، وبحث عنه بحثا طويلا ، حتى يقول ان كان « شغلى الشاغل ، بعد رجوعى من رحلتى الى الأندلس سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩٠١ ، ففى هذه السنة الأخيرة شرعت وزارة الأوقاف فى عمارة

المسجد ، وظهر فيه عمود عليه كتابة ، فتوسلت الى صديقى المرحوم أحمـد حشمت باشا بنقل هذا العمود الى دار الآثار ولا يزال بها .

(٥) ومن أدلة ذلك تلك الورقة التى أهـداها اليه المرحـوم الشيخ طاهر الجزائرى بخط المؤرخ الكبير ابن العدى الحلبى « وهى عنـدى فى خزانتى الزكية ، وفيها يقول ان ابن جبير كان قائما بالتدريس فى ذلك المكان .

٦ ـ أسماء الشوارع والقبور .

ولأحمـد زكى تحقيقات متعـددة حول القبور وأسـماء الشوارع ، فهذا مسجد فى قرية (أبراك الحمام) التابعة لمركز ايتاى البارود ، يقال انه قائم على أجداث جماعة من الشهداء ، منهم (ابن سليمان الفارسى) ويرد أحمد زكى (باشا) بأن الحقيقة أن سليمان لم يكن له زوجة ولم يكن له ولد وقد ذهب الى هذه القرية وحقق بنفسه المسألة .

ثم التفت الى اسم (ابراك الحمام) فاهتدى الى أنها تصحيف من الأتراك وحكام الأتراك عن اللفظ العربى الأصيل القديم وهو أبراج الحمام .

٢ — ويذهب الى قرية قادوس حيث يوجد عمودان أثريان صحيحان هما من الرخام المصقول ، وعليهما كتـابة واضحة باسم الفقيه أبى على الحسن بن الشـيخ ،

ويرى أن هذه البيانات المنقوشة على الأحجار تؤيد وتصحح وتكمل ما أثبته السيوطى عن هـذا الرجل وأجداده فى كتابة (حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٧٢ و ٢٠٨) .

٣ — وكأنما هو مكلف بقراءة أسماء الشوارع أينما ذهب ، وعندما ذهب مساء ٢٦/٤/١٩٢٩ الى ندوة الجالية الايرانية مر بشارع له لافتة مكتوب عليها (بهاء الدين ابن حنا) واذا هو يكتشف أن هـذا الاسم للوزير بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا (بكسر الحاء) ، الذى بنى مسجد أثر النبى المشهور المعمور ، وكان من رجالات الظاهـر بيبرس ، وهاجم مصلحة التنظيم وتساءل : أمن وظيفة التنظيم تنصير الأموات ، وقال انها قد عملت على تنصير الرجل بعد أن عاش ومات على الاسلام بسبعة قرون ، وانهم غفلوا عن صحة الاسم الذى قررته الوقائع والتاريخ على لسان أمير المؤمنين (فى الحديث) ابن حجـر فى الدرر الكامنة ، ثم السخاوى فى الضوء اللامع ، ثم المقريزى فى الخطط ، ثم على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ، فان هؤلاء جميعا نصوا بصريح العبارة على أن (حنا) بكسر الحاء وتشديد النون ، أى على مثال الشجرة الطيبة المعروفة عندنا باسم (تمر حنا) والتى يعرفها العرب باسمها الفصيح (القاغية) .

ويدهش (أحمد زكى) لأن مصلحة التنظيم وضعت فتحة فوق حرف الحاء فى كلمة (حناء) .

يقول « أراد أن يتحذلق وأن يتحفلط ، فوضع حركة طويلة للفتحة فوق حرف الحاء ثم وضع علامة الشدة بارزة ظاهرة فوق النون ، فصير الرجل بعد موته نصرانيا ، بل ان التنظيم بالغ فى تنصير الرجل بعد موته فخشى أن تكون الحركات العربية غير كافية لتمام الدلالة على نصرانيته فكتب اسـمه بالافرنجى Hanma

٤ — ويعاتب مصلحة التنظيم أيضا لأنها عمدت الى ترقية الوزير الأيوبى الصـاحب صفى الدين بن شـكر — فجعلوه بالزور والنبوت — السلطان الصاحب فى شارع الحمزاوى .

١ — جولاته فى القاهرة .

وتدل أبحاث أحمد زكى المتعددة على خبرة فائقة ودقة لا حد لها فى معرفة كل ما يتصل بالمساجد والآثار ، والقبور والأعمدة ، فى جميع أنحاء البلاد ، وله تحقيقات فى أثر النبى ، والفسطاط ، يصل فيها الى التأكيد بعدم وجود أى أثر — مطلقا — لكف النبى عليه الصلاة والسلام أو قدمه — على أى حجر ، ولا على أى صخرة بالقدس ، ولا فى مسجد السيد البدوى فى طنطا ، ولا فى

مسجد قايتباى فى قرافة القاهرة ، ولا فى مسجد أثر النبى فى الفسطاط ، ولا بأى محل آخر ..

وبين أن ذلك كله انما هو من آثار الوثنية ، وليس من الحقيقة بمكان [1] .

٢ — وأنكر خرافة العريش [2] والقول بأن بها قبورا للأنبياء ، وذلك بعد أن راجع اثنى عشر كتابا (بعدد الأسباط) وكلها من عيون التواريخ « وأفضل المصادر التى اليها المرجع فيما يتعلق بالمزارات ، ولكنى لم أظفر بغير الصفر » وأنحى باللائمة على (كعب الأحبار) الذى خدعهم بأن بالعريش قبور عشرة من الأنبياء « ولذلك ذهب العرايشية الى العمل بأكاذيبه فدفنوا فى هذا المكان بطريق الوهم بل الايهام شيئا ، أو رجلا زعموا أنه من الأسباط ثم ترقوا بهذا السبط المزعوم ، فأضافوه بالزور الى ديوان الأنبياء ، وهو منه براء .. » .

٣ — و « الفيوم » نالت منه مراجعات كثيرة : هل اسمها عربى ، وأكد أنه كلا ثم كلا : ليس هذا الاسم عربى قط .

ووصل الى أن كلمة (فيوم) كلمة قبطية ، أضاف

---

(١) ١٩٣٣/٩/٢٣ — الأهرام .

(٢) اى توزعت .

العرب اليها أداة التعريف وكان القبط قد أخذوها من الفراعنة .

٤ — وحمل أحمد زكى على أسماء المدن : بور سعيد . بور توفيق . بور فؤاد ، وقال ان هذه التسمية فيها احتقار للغة العربية ، وهى لغة الدولة ، وانها مهانة مزدوجة للغة والتاريخ ، بسبب « هذا الاندفاع فى التيار الافرنجى والتقليد المأفون لكل ما هو افرنجى » .

وضرب المثل بأسماء المدن القديمة المرتبطة بأسماء أمراء أو حكام كالعزيزية المنسوبة الى العزيز الفاطمى ، والجمالية المنسوبة للأمير بدر الجمالى ، والصالحية المنسوبة الى السلطان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، والفكرية المنسوبة الى أمين فكرى .

٢ — فى العالم العربى والإسلامى

ولم تقف تحقيقات أحمد زكى عند حدود مصر وحـدها ، بل تعداها الى العالم العربى والاسلامى كله ، فى مجال الجغرافيا والتاريخ ، والأعلام والآثار والقبور والمساجد الخ .

وله فى ذلك مقدرة لا حد لها ، فهو يعرف الأماكن الأثرية المختلفة فى الشام معرفته للأماكن المصرية .

١ — فاذا ذكرت (أفريقيا) عارض ذلك وقال ان حـرف الألف فى أول أفريقيا وهو A انما هو أداة النفى فى اليونانية ، والذى أعلمه أن هذه الوظيفة لهذا الحرف انما هى فى اللغة اللاتينية ، ثم زعمـوا أن (فريكا) معناه البرد ، أى البلاد التى لا برد فيها ، من أين وكيف جاءت الكاف أو القاف فى آخـر الكلمة ؟ مع أن كلمة برد فى كل لغات الفرنجة ليس فيها كاف .

* وعنده أن هذه البقعة سميت باسم الذين هاجـروا اليها ، واستوطنوها تحت قيادة (افريقيش) ، ولذلك نظائر كثيرة ، منها مصر ، واسـم ملكها القـديم (مصرايم) وتوشى لبلاد الأحباش وما اليها ، وبلاد

المندل (عود الطيب) فانها باسم ملكها (مندل) وهى المعروفة عند الافرنج اليوم باسم (كورومندل) .

* ويقول أحمد زكى ان جماعة من عرب اليمن ذهبت الى هـذا الساحل الجنـوبى من البحـر الأبيض فاستعمروه ، وهم قبائل البربر من نسل حام بن نوح ، وأطلقوا اسم جدهم الأعلى على قطعة كبيرة من الأرض كانت قبل العرب وبعد العرب تشمل طرابلس وتونس وقد عرفها التاريخ والجغـرافيا باسم افريقيا قبـل الاسـلام .

فلما أشرقت عليها أنوار التوحيد بقى الاسم القديم للدلالة على عمـالة تونس أو مملكة تونس . ولكن الاسم العربى بقى هو هو مع كسر الألف فى أوله وزيادة الياء فى آخـره اشعارا بحفظ النسبة الى افريقيش .

ثم جاءت الجغرافيا الحديثة فتوسعت باطلاق اسـم افريقيا على جميع القارة ، وكان اليونان يسمونها لوبيه ومنذ عهد محمد على اذا قالوا (افريقية) فلا يراد منها سوى تونس الحالية بما قد يكون انضاف اليها من طرابلس أو اقليم الجزائر » [١] .

---

(١) الأهرام — ١٩٣٣/٩/٢٣ .

٢ — وكانت مباحثه عن (بربر . بربره . برابر . برابرة) موضع التندر والسخرية به ، مع أنه تناول فيها جوانب علمية هامة ، فمدينة (بربر) بالسودان أما (بربرا) فهى مدينة ساحلية على خليج عدن .

ثم تناول بالبحث « تاريخ البـــربر » وتحدث عن هجرتين لهما ، الأولى هى هجرة بنو يافث بن نوح وهم (الآريون) الى جهة الشمال فاستوت أقدامهم بأطراف أوربا وأطرارها ، سوى أن أوزاعا منهم (وهم الوندال والقوط وأضرابهم) قد انتهت بهم خاتمة المطاف عندما ألقوا عصا التسيار بآخر الطرف الثانى جنوبى أوربا ، فعدوا بحر الزقاق (بوغاز جبـــل طارق) وهنالك حكموا البربر واختلطوا بهم .

❊ أما الهجرة الثانية فقد تدلى معهم (بنو حام) الى الأنحاء الجنـــوبية وما زالوا يمعنون فى الســـير ، ويجوبون القفر ، ويقطعون البر ، حتى انتهـــوا الى سيف البحر ، هنالك جازوا باب المندب ، الى قارة افريقيا ، فاستقر فريق منهم وهم (البرابر) فى البقعة التى سبق لنا الالماع بوصفها ، وأطلقوا اسمهم على المصر الأكبر فيها ، أعنى مدينة بربرة ، أما السواد الأعظم منهم فقد جمد بعضه الى الجهة الغربية ، وطاب له المقام فى بلاد الحبش والسودان والتكرور .

❊ ثم أشار (أحمد زكى) الى بنى سام فقال انهم اختاروا

أواسط المعمور ، وأن بعض العشائر منهم انساقوا الى الهجرة ، وتندحت [1] أفخاذ منهم الى المشارق فى آسيا ، وأخرى الى المغارب فى أفريقيا ، ومن هـذا القسم الأخير صـعدت شراذم وجماعات الى نحـو الشمال فى أفريقيا أيضا ، وهم البربر ، وقد انضافت اليهم شراذم أخرى من اخوانهم عن طريق البحـر الأبيض المتوسط ، وقد نزلت منهم طائفة الى باب المندب ، وانتقلت الى الضفة الأخرى ، وانتهت الى صوب منابع النيـل ، فنزلت فى تياره ، وبعضـها استوطن بلاد النوم ، ومنهم القوم المعروفون باسم (البرابرة) الآن ، أما البعض الآخر فقد واصل السير حتى احتل أرض مصر ، وتلك هى جرثومة الفراعنة الأقدمين .

وقال ان هذا الرأى عليه الكثيرون الآن من عـلماء السلالات البشرية ، وقد قال به أحمد كمال باشـا الأثرى المصرى .

وأبدى أحمد زكى شكه فى الرأى الآخر الذى كان عليه (ماسبيرو وغيره) من الكتاب الغربيين وهو (ان المصريين جاءوا من آسيا عن طريق برزخ السويس) واعترف بخطئه فى اعتناق هذا الرأى فترة عندما ترجم

---

(١) اى توزعت .

الى العربية كتاب (تاريخ المشرق) لمسبيرو عام ١٨٩٧ وقررته وزارة المعارف سنوات طويلة للدراسة بمدارسها !!

٣ — ولا شك كانت رحلات أحمد زكى الى مختلف أقطار العالم العربى بعيدة الأثر فى تحقيقاته .

فالأهرام تكتب عن طائفة فى سوريا تسمى (بنو دندش) فيقول ١٥/١٢/١٩٢٩ (الدنادشة أو بنو دندش) قبيلة من طائفة المتاولة أو الشيعة فى لبنان اشتهروا بالشدة والبطش الخ .

فينبرى أحمد زكى فيرد على داود بركات رئيس تحرير الأهرام الذى أورد هذا الكلام بمقال تحت عنوان[1] : الدنادشة شىء وبنو دندش شىء آخر « وأنا أقول ان هذا الكلام ينصب بغير حق على الدنادشة الذين أراد الكاتب تعريفهم دون بنى دندش » .

ثم يفيض فى التفاصيل حيث يوجد فى سوريا طائفتان من السكان ، لم يكن لهم وجود قبل ٦٠ أو ٧٠ سنة فقد انحدروا عن رجل من عامة الناس كان أبوه قد اختار له اسم (دندش) فصاروا بهذا السبب (بنى دندش) وهؤلاء الذين ينصرف اليهم وحدهم دون (الدنادشة) تلك البيانات (التى نشرتها

---

(١) الأهرام — ١٦/١٢/١٩٢٩ .

الأهرام) ويكشف عن احاطة شاملة ودراسة تامة لهذه الطوائف فيقول :

ان بنى دندش من الشيعة المتاولة ، ولكن مساكنهم ليست فى الجبل الشرقى بل الحق انهم متوطنون فى الشمال الغربى من مدينة بعلبك ، أى فى جبل الهرمل عنـد منبع العاصى ، الذى يسقى حمص وحماه وأنطاكية ، ثم يصب عند السويدية فى البحر الأبيض .

ولبنى دندش كثير من (الطروش) أى قطعان الماعز ، يصنعون من ألبانها جبنا لا يكاد يكون له مثيل فى أسواق حماه (حماها الله) .

وعلى ذلك فليست مواطن بنى دندش ممتـدة من جـوار دمشق الى ما وراء حمص ، كما جـاء فى الأهرام ، فانه ليس وراء حمص الا بادية .

* ويعود فيكشف عن (الدنادشة) فيقول ان فيهم مربط الفرس ، وهم من خيار العرب وكرام اليمن ، وحاشا ثم حاشا ، أن تصدق عليهم واحدة من تلك الصفات التى تقال عن (بنى دندش) .

ويرجع العهد بأولية الدنادشة فى بلاد الشام الى ما قبل ثلاثة قرون ، فقد ترحلوا من اليمن الى أرض الشام حتى ألقوا عصا التسيار فى حوران .

أما لقب (الدنادشة) فصار لهم فى أواسط القـرن الحادى عشر للهجرة ، وكان زعيمهم (اسماعيل أغا)

مغرما باتقان زينة خيله ، وكان يحليها بأقمشة لهـا علاليق وأهداب وأنواط متدلية ، وهى المعروفة فى بلاد الشام باسم (دنادش) ومن ذلك قولنا فى مصر ثوب مدندش .

٤ — وفى مجال الجغرافيا له باع طويل يمتد من صقلية الى المحيط الأطلنطى . وقد تحدته (جـريدة المؤيد فى فبراير ١٩١٢ بايراد بعض أسماء أعلام ومدن وأماكن فى (جزيرة صقلية) مترجمة ومحرفة وطالبته بأن يرد الكلمات الجغرافية المحرفة الى أصولها الصحيحة ، يقول الأستاذ محمد مسعود — وكان محررا بالمؤيد اذ ذاك — وهو قريع شيخ العروبة فيما بعـد فى مساجلات متعددة : انه ما مضى يوم واحـد على صدور المقال حتى دخل زكى باشا متدفقا على باب مكتبى فى ادارة المطبوعات وفى يده هذه الورقات الثلاث عشرة التى ترونها الآن بيدى والتى أحرص عليها حرص البخيل على ماله ، وصاح بى قائلا : هذه المكيدة العلمية لا يدفعها الا أنت وقد حللت عقدتها فى هذا المقال ، فعليك أن تنشره فى المؤيد ، وأن تقف على تصحيحه المطبعى ، وكان التحقيق يتناول (تسعة أسماء) .

وقد نشرت المؤيد يوم ٦ فبراير ١٩١٢ المقال ، فغطى

صفحتها الأولى كاملة تحت عنوان « عجالة عن بعض المدائن فى صقلية » .

وانتهز أحمد زكى الفرصة فتحدث عن محاسن (تلك الجزيرة) « أيام » نشر الاسلام عليها راياته ، وأبلغها الى نهايات المجد وغاياته ، فقد عمرها المسلمون بغابات الزيتون ، وأغنوها بصناعاتهم وتجاراتهم ، وقد خرج منها العلماء والفقهاء ، والكتاب والشعراء ، وفى طريقه حقق ما ورد عن صناعة الحرير فى الجـزيرة عـلى الطريقة الدمشقية ، فقال ان الاسم الفنى فى كتب العرب لهذا النوع الجميل من المنسوجات الغالية هو (الخسروانى) وكانت صناعته قد ظهرت عـلى يد العرب فى دمشق الفيحاء ، وسماه القوم بالخسروانى ، لأنه كان خاصا بالملوك دون سواهم ، فاشتقوا له اسما مخصوصا من لفظة (خسرو) المنقولة عن لفظ (كسرى) .

٥ — والمحيط الأطلنطى ، يذكره بعض الكتاب والباحثين باسم المحيط الأطلسى وهـذا — عند أحمد زكى باشا — خطأ لا يغتفر ، ذلك أن الجغرافيين من الفرنجة قد تطابقوا على نسبة هذا المحيط الى قرية (أدلنت) أو أطلنط Atlante التى انخسفت فى قعـره منـذ زمان بعيد ، وهى الفاجعة التى وصل الينا بيانها عن أرسطو ، من جمـلة ما استعاده من كهنة المصريين

القدماء ، وما تزال لهذه القارة بقايا بارزة ، وهي جزائر (أمورة ومادیرة وكناريا) وهی ما يسميه العرب بالجزائر الخالدات .

ويقول أحمد زكي ان المخرفين الممخرقين الذين ينسبون هذا المحيط الى (أطلس) ليسوا على صواب ، وانما هم تابعوا الافرنج متابعة عمياء ، بلا تمحيص ولا مراجعة .

وعنده ان لفظ (أطلس) أخذه اليونان عن كلمة (ادرار) التى يستعملها المغاربة الى يومنا هذا للدلالة على أى جبل كان ، ثم جاء المؤرخون فى عهد محمد على فأخذوا عن الترك عن الافرنج اسم هذا الجبل فى ثوبه الأعجمى المحرف ، فقالوا أطلس ، ثم جاروا الأتراك فى تسمية المحيط الغربى الكبير أنه (أطلنطيقى) نقلا للفظة الافرنج (Atlantigute) ، ولكنهم أضافوا ياء النسبة العربية الى صيغة النسبة الافرنجية .

ثم جاء من ترفعوا عن هذا التفرنج فقالوا : المحيط الأطلسى متوهمين أن (أطلنط) هى نفس (أطلس) .

٦ — وهو لا ينى يحقق ويصحح المواقع والقبور فى العالم العربى ، ويرد على القائلين بوجود (قبر لسلمان الفارسى) فى فلسطين ، وأن القبر المنقور فى صميم الصخر بباطن الأرض التى تقوم الى جانبها مدينة

سـدود فيما بين غزة ويافـا من فلسطين ليس للصـحابى الجليـل سليمان الفارسى « فان الرجل لم يزر فلسطين ، بل انه مات ودفن فى أرض العراق ولقبره فيها مزار مشهور على مقربة من بغداد الى الجنوب ، وهى (سليمان باك) بالباء الفارسية ، ومعناه الظاهر سليمان [1] .

٧ — ويرد على القائلين بأن (وادى النمل) يقع بين جبرين وعسقلان فى فلسطين ، بأنه ليس هناك مكان اسمه وادى النمل ، وأن هـذه العبـارة يضرب بها المثل للمكان الكثير السكان ، وتكون الآية القـرآنية — عنده — من باب تشبيه القوم بالنمل فى كثرة العدد فى نظـر بنى اسرائيل ، وتكون تسـمية الوادى بوادى النمل اشارة الى المكان الكثير السكان على ما قرره « الجاحظ » [2] .

وقد تعـرض من أجل هذا الرأى الى معارضـات الباحثين والفقهاء ، ودافع عنه محمد فريد وجدى فقال « انما حداه الى ذلك غرض شريف وهو تبرئة القرآن من الأمور التى تستعصى على العقل ويتوسل بهـا المتشـككون ومن يلف لفهـم أى الطعن فى الاسلام » . وان كان فريد وجدى لا يرى أن رأى

---

(١) الأهرام — ٣٠ يونية ١٩٣٣ .
(٢) الأهرام — ١٩٣٣/٨/٦ .

أحمد زكى من الوسائل الحاسمة فى هـذا الباب ولا هى بالطريقة المثلى التى نص الكتاب نفسه على اتباعها فى مثل هذه المواطن ، ذلك أن القرآن الكريم أفرد — من بين الكتب السماوية — بنص حاسم لا يحتمل التأويل فجعله بمنجاة من الشبهات وهو قوله تعالى « هو الذى أنزل عليك الكتاب فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .. الآية » .

٨ — ويمضى أحمد زكى فى تحقيقاته فيرد على القائلين بأن مصطفى كمال قائد الثورة التركية سيطلق عليه اسم (الذئب الأبيض) التماسا لما ورد فى الأساطير الطورانية القديمة ، وكان الأتراك يعبدونه فى جاهليتهم الأولى ، وقد اعترض زكى باشا على هذا القول وأشار الى أن صواب الترجمة هى الذئب الأغبر ، وان محل الخطأ هو أن الله لم يخلق ذئبا أبيضا الى الآن ، وعنده أننا لو رجعنا الى الوصف العربى الصحيح لقلنا « الذئب الأغبش » لأنه لونه مثل الرماد فيه بلق بكموده .. » (١) .

تحقيقات الأعلام والأسماء .

ولزكى باشا شوط طويل فى تحقيقات الأعلام والأسماء ، ولعل أهم ما كان يشغل باله فى هذا المجال أن الغربيين من الكتاب

---

(١) الأهرام — ١٦/١٢/١٩٢٥ .

ينقلون الأسماء العربية محرفة الى لغاتهم ، فيأتى الكتاب العرب فيعيدونها الى اللغة العربية بالنص المحرف الافرنجى دون أن يحاولوا ارجاعها لأصولها الصحيحة .

ولقد أشقى ذلك زكى باشا وأهمه ، وشغله طويلا ، وخاصة فى مجال الأندلس ، وأعلن عنها قبل وفاته بعامين (١٩٣٢) ، ووضعها تحت تصرف الباحثين .

والقضية عنده يوردها على هذا النحو بأسلوبه الجامع بين السخرية والغضب :

« ان الذى يغيظنى ويغضبنى ويكيدنى ، هو أن ينقل أحدنا عن الافرنج ما نقلوه هم عنا ، وأن نجاريهم أو نزيد عليهم فى تحريف أعلامنا العربية أو المعربة ، من أسماء الرجال والمواضع ، بعد أن أخذوها عنا ، وشوهوها ، (محتارين أو مختارين) متابعة لحلوقهم التى تضيق عن نطق الصاد والضاد ، والطاء والظاء ، والعين والقاف ، وأضيف الى ذلك الثاء والذال ، لغير الانجليز ، والخاء لغير الأسبانيين والألمان على نوع ما .. » .

ومن أجل هذا يرى أنه من الضرورى أن تكتب الأعلام الأندلسية (مثلا) بالحروف الافرنكية التى اصطلح الأسبان والانجليز والفرنسيون عليها ، ثم يضع أمامها الاسم العربى الصحيح ، الوارد فى الكتب الأندلسية خاصة ، والعربية عامة ، فيما يتعلق بالتاريخ والجغرافيا وبقية الموسوعة العربية .

٢ — ولعل أبرز تحقيق فى هذا الصدد أثار ضجة كبرى هو تصحيحه للتحريف الذى ورد فى (ترجمة الانجيل) . فقد ورد

فيه ذكر انسان اسمه سمعان من بلدة (فورينيا) وأطلق عليه اسم سمعان القيرواني .

أما (فورينيا) فهي مدينة جليلة قائمة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في أرض برقة (لوبيا) المتاخمة لأرض مصر .

وقد ذكر في الترجمة العربية أنه (سمعان القيرواني) . بينما مدينة (القيروان) لم يكن لها وجود في أيام المسيح عليه السلام ، « وانما خلقها الله بعد ميلاده بسبعين وستمائة سنة » ، وقد تأكد تماما ما أورده أحمد زكي ، واعترف به الباحثين المتخصصون ، وأجروا تصحيحه .

٣ — وتمتد مراجعات أحمد زكي وتصحيحاته الى لبنان حيث يجرى البحث عن (ظهور) الشوير (ضهور) الشوير ؟ .

وهو يرى أن تناوب الضاد والظاء بتخفيف ، شائع عند اليمانيين ، فقد لمسه أثناء اختلاط بهم في جبالهم ، كما رأى نظيره فيما قرأه من آثارهم ومن آثار اخواننا في العراق ، كما سمعه من أفواه الذين اختلط بهم على ضفاف النيل ، ومن الأعاريب العائشين بين دجلة والفرات .

وكلمة (ظهر) : وجمعها ظهور ، تنبئ عن المعروف المألوف في الانسان والحيوان والجماد ، وهو خلاف البطن .

أما (ضهر) وضهور بالضاد التي هي خصيصة في هذه اللغة دون كل لسان في العالم ، فللقسم المرتفع من الجبل ، ويقابله عند الافرنج

غير أن بعض الباحثين عارضوا أحمد زكي في تصحيحه هذا ،

ومنهم عباس المصفى ، الذى أشار الى أن كلمة (ظهور) صحيحة وأن فى لبنان عدة ظهور : هى ظهور الشوير ، وظهر البير ، وظهر الجبل ، والظهور . وقال ان قاموس الفيروز بادي سجل أن (الظهر : طريق البر) ، وما غلظ وارتفع من الأرض ، وأن الظواهر أشراف الأرض ، وضرب مثلا بالقول المعروف : من أن قريشا هم الظواهر النازلون بظهر مكة .

٤ — وعندما أشكل اسم الطبيب العربى Adulcisis وسموه أبو القسيس ، بعد تحريف اسمه وتشويهه ، انبرى أحمد زكى وقال انه (الطبيب أبو القاسم) الذى اشتهر عند علماء أوربا منذ القرون الوسطى والى اليوم ، وأنهم أبدلوا الميم فجعلوها سينا ليكون أقرب الى اللغة اللاتينية .

تحقيقات الأندلس

وعنى أحمد زكى باشا بتحقيقات أسماء الأندلس منذ سافر اليها عام ١٨٨٢ حتى آخر أيامه ، فقد أورد فى كتابه (السفر الى المؤتمر) عديدا من الأسماء بعد تصحيحها وظل يتابع كل ما ينشر فى الصحف أو الكتب ، معطيا نفسه الحق فى فردية التخصص لهذا الأمر ، دون الناس جميعا ، ومن أجل ذلك دخل فى معارك كثيرة مع محمد مسعود وغيره ، ممن حاولوا منافسته فى هـــذا المجال .

١ — ويضرب أحمد زكى المثل بكلمة وردت فى تلغراف لروتر عن مدينة فى الأندلس اسمها (Arzila) فترجمها المؤيد (أرجيلية) أما المقطم فقال (أرزيلا) ولكن الأهرام أطلق عليها (أرسيلا) غير أن جريدة (الجريدة) ترجمتها (عرزيلا) .

وتقدم زكى باشا (المتخصص الأول) فقال : لا هذا ولا هذه ولا تلك ..

وانما هى (أصيلا) أو (أصيلة) كما ذكرها الشريف الادريسى فى (نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق) وياقوت الحموى فى (معجم البلدان) والوزير أبو عبيد فى كتاب (المسالك والممالك) وهى احدى مدائن المغرب الأقصى (مراكش) وليس الأندلس ، وهى مدينة صغيرة جدا واقعة على رأس الخليج المسمى بالزقاق ،

المعروف الآن (ببوغاز جبل طارق) ، وقد اشـتهر من أهلها العلماء .

وقال ان بعض المترجمـين أرادوا التخفيف ، فقالوا عنها (أزيلا) أو (أزيلى) ولكن الصحيح هو كما ذكرنا (أصيلا) وأصيلى .

٢ — ويمضى أحمد زكى فى هذه التحقيقات ، فيفرد أبحاثا مطولة متوالية تشغل الناس .

فمدينة (Arramdla) التى أطلقوا عليها (الرميلة) هى الرمـلة .

ومدينـة (Alhambra) التى أسموها (الهمبرا) هى حمراء غرناطة وكلمـة (Alcalda) التى أسموها (الكالدى) هى القاضى وغردفوى أو غاردفين وصحتها رأس جردفون (ولا شىء غير ذلك مطلقا) .

٣ — وتحت عنوان « هى شقوبية لا سجوفيا » .

يقول : ذكرت الصحف (سيجوفيا) فتذكرت هـذه المدينة التى لمحتها من بعيد وهى جاثمة فوق صخرتها العالية العاتية ، تملكها العرب واحتفظوا باسمها القديم ، بعد صقله صقلا قليلا ، فقالوا فيه (شقوبية) وشقوبية ليست بمدينة ، ولكنها قرى كثيرة ، متقاربة متداخلة العمارات فيها بشر كثير ، وجم غفير ، وكلهم خيل للملك صاحب طليطلة » [1] .

---

(١) الأهرام — ٣ مارس ١٩٢٩ .

٤ — وذكرت الصحف مدينة هويسكا فانبرى أحمد زكى يقول : هى مدينة (وشقة) لا هويسكا .

وقد سكنها العرب بمجرد فتحهم لها ٩٦ هـ (٧١٤ م) استقرت قدمهم فيها ، واستبحرت حضارتهم بها .

وقد أخذ العرب اسمها عن اللفظ الرومانى (Osca) (أوسكا) والسين تتبادل مع الشين فى لغتنا ، وفى بعض لغاتهم ، فقال قومنا (وشقه) وصارت فى أيامهم دار علم وأدب .

٥ — ويجرى أحمد زكى تصحيحات متعددة :

فمدينة سرقسطة اسمها عند الاسبان والانجليز (Zaragoza) وعند الفرنسيين (Sarjossa) .

ومدينة قرطبة اسمها عند الاسبان والانجليز والألمان (Cordaba) وعند الفرنسيين (Cordoua) .

كما ترجم (Grazalam) بمدينة ابن السليم ، و (Meainaceli) بمدينة سالم .

٦ — وكتدرائية بورجوس (Bargos) صوابها برغش .

وكتدرائية (Serille) صوابها أشبيلية .

ويقول « واذ كنت عليما بهذين الأثرين الجليلين لزيارتى اياهما سنة ١٨٩٢ زيارة تدقيق وتحقيق ، ولبقاء صورتهما منقوشة على صفحات الصدر ، رأيت من واجبى تعريف قومى بكلمة عن كل منهما .. الخ .

٧ — وقد حقق أحمد زكى فى خلال خمسين عاما عددا كبيرا من الأعلام الأندلسية هذا نموذج منها :

أرز أشبيل = هو الزرقالة الفلكى الأندلسى المشهور
افرويس وافنباسا = هما ابن رشد وابن باجة
افتــرور = هو ابن زهر الأشبيلى
البــوكرك = هو أبو كرش الملاح البرتغالى
سرتم وجواديلوب = وهما اسما نهرين أصلهما سرتم ووادى العب

وهكذا جرى أحمد زكى على تصحيح أسماء أعلام الأندلس : « التى تناولها الافرنج بالتصحيف الخفيف أو بالتحريف الشديد ، وكذلك الأسماء التى عربها العرب وأدخلوها فى كنوز آدابهم ، ثم تناولها الافرنج عنهم ، فأعادوا بعضها الى أصلها أو أبقوا على أكثرها بالصيغة التى أخذوها عن العرب ، أو ادخلوا التحريف والتصحيف على طائفة منها » .

وقد جمع هذا كله فى جذاذات تحت يده ، مرتبة على الأبجدية الأفرنجية كانت تسعفه فى المراجعة العاجلة .

تحقيقات اللغة

وفى مجال التحقيقات اللغوية كان — كشأنه دائما — واسع الباع ، وان لم يكن متخصصا على النحو الذى يجعله مبرزا فيها ، فقد كان هناك من أمثال أحمد تيمور والأب انستاس الكرملى وكرد على والمغربى من يفوقونه ، ولكنه كان لا يلبث بين حين وحين أن يعرض لعبارة أو كلمة أو اصطلاح ، فيجرى فيه تحقيقا أو أكثر .

وقد كان أحمد زكى معنيا منذ أوائل عهد عمله فى مجلس النظار بهذه التحقيقات وله دوره الواضح فى تغيير الكلمات التركية والافرنجية على حد سواء ، بادخالها فى القوانين والتشريعات والأوامر الادارية ، مما ساعد على انتشارها ، وجريها على الألسنة والأقلام .

ولعل أهم ما أحدثه فى هذا المجال ادخاله كلمة (براءة) محل كلمة (البيورلدى) بالنسبة للأمر المؤذن بالانعام بالرتب .

وقد أثارت هذه العبارة ضجة كبرى ، وهاجمها العلماء والكتاب . واضطر أحمد زكى أن يدافع عنها .

وكانت هذه العبارة مستعملة منذ ثلاثة قرون ، وبلغ من نفوذها أنها انتقلت الى (الأزهر) ، فأطلقها أهله على ما كان أسلافهم يسمونه (الاجازة) .

وقد نشر أحمد زكى تقريرا [1] كاملا فى تبرير استعمال كلمة البراءة فى الانعام والنشانات جاء فيه :

« كانت خطتى التى درجت عليها منذ دخلت الدواوين (أى قريبا من ثلاثين سنة) أن أعمل بكل ما فى مقدورى على محو ما أستطيع من الكلمات الدخيلة الغريبة ، وأن أحـل محلها فى العبارات الديوانية والاصطلاحات الرسمية ما أرتضيه من الألفاظ العربية ، بعد التحرى والتنقيب ، ولم يكن فى مجهودى طبعا ، ولا فى مجهود سواى ، أن يمحو الألفاظ الغريبة دفعة واحدة ، بعد أن طال استعمالها القـديم حتى رسخت فى أذهان العـامة والخاصة ، وجرت بها أقلام الكتاب والمنشئين وكتبة الدواوين » .

وقد أشار أحمد زكى الى عدد من المصادر التى أوردت هذه الكلمة ، منها فتاوى القاضى أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد أمام جامع قرطبة ، وجدّ ابن رشد الشهير (محفوظة فى مكتبة باريس تحت رقم ١٠٧٢ فى ورقة ١٧٠) يتكلم فيها عن الادارة العسكرية فى الأندلس (فيذكر فيها البراءات) بمعنى (التذاكر) التى يقدمها الحاكم أو الأمير الى جنوده ، لكى ينزلوا على الناس .

وممن اعترض على استعمال كلمة (براءة) أحمد تيمور باشا ، وقال انه يفضل استعمال كلمة (تقليد) .

وقال أحمد زكى فى مجال التفاخر بأعماله فى هذا المجال « أنا المجدد لكلمة (مرسوم) ، والواضع لكلمة (رصيعة) بدلا منها » .

---

(١) نشرت التقرير جريدة المؤيد ١٧ نوفمبر ١٩١٥ .

والواضح الآن أن كلمة (مرسوم) تغلبت أخيرا على كلمة (رصيعة) .

٢ — وهو يواصل تقداته للاصطلاحات الديوانية ، فيرد على (نجيب برادة) الذى ذكر فى احدى جلسات مجلس الشيوخ ، كلمة (رفت) بأن هذه العبارة غير صحيحة وأنه يجب استعمال كلمة (عزل) ، وأن كلمة (رفت) التى قال نجيب براده انه قرأها فى لسان العرب قد وردت حقيقة فيه وفى سائر دواوين اللغة ، ولكن بمعنى الدق والكسر والفت والتفتيت ، دون أن يكون من مدلولاتها بطريق التصريح أو التلميح ما يفيد المعنى المتفاهم فى الاصطلاح الديوانى بمصر — أى اخراج العامل من عمله . ومن جهة أخرى فليس يجوز لنا أن نستعمل كلمة (عزل) بدلها . لأن العزل عقوبة فرضها قانون العقوبات ، ولوائح التأديب ، أما (الرفت) فليس فيه ولا من ورائه رائحة العقوبة ، وانما يقال ويستعمل للدلالة على مجرد الاستغناء عن العامل لسبب ما [1] .

٣ — ويعاتب ابراهيم فهمى كريم (وزير المواصلات اذ ذاك) لأنه أطلق على (القاهرة) اسم (مصر) وأنه جارى التيار الجارف فاستعمل كلمة (افريز) للدلالة على الرصيف الجانبى ، وقال أحمد زكى ان هذا اللفظ فارسى أخذه العرب للدلالة على الطنف (بفتحتين) فى أعمال البناء ، وهو (الطابان) المصطلح عليه الآن عند أرباب الكار من طائفة المعمار وقال : ان الافرنج أخذوا هذا

---

(١) الأهرام — ١٩٣٣/٤/٢١ .

اللفظ الفارسى عن العرب بمعناه الصحيح فقالوا افريز بتسكين الفاء .

ويقول : أستأذنه فى اعفائى (من هذا الجمع) ولعله يجد لنا من واسع علمه تخريجا يرضيه ويسمح لنا باستعمال الجمع على (غيورين) ولو باعتبار الانتقال من الوصفية الى الاسمية .

٤ — ولعل من أهم الكلمات التى عرض لها وأثارت ضجة وسخرية كلمة (على الحركرك) التى ظلت مع كلمة (بربر برابر بربرة) موضع فكاهات الصحف .

وعنده أن هذه الكلمة دخيلة وفرنسية الأصل ، ولندعه هو يشرح وجهة نظره بأسلوبه الذى عرف به :

« [1] اننى لم أر ولم أسمع ولم أعلم أنها مستعملة بهذا المعنى الا فى ديار مصر ، فهى اذن ليست بعربية ولا مولدة ولا دخيلة . ثم ان اختصاص وادى النيل بها يحملنى على القول بأنها معربة ، ومعربة عن الفرنساوية . أنا أذهب الى أن ذلك حدث فى أيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال بونابرت ، .. لا جرم أن العساكر يكونون قد استعملوها فأشاعوها ، وأن رجال الاحتلال الفرنساوى أكثروا من تداولها حتى أذاعوها فطنت وطنطنت فى آذان أبناء النيـــل ، فأضـــافوا اليها حرف الحاء فى أولها وقال حركرك ، أما تلك الكلمة الافرنجية فهى تقترب كل الاقتراب من لفظنا العامى وهى (ركراك — ركرك) وهم يقولون فلان (يدفع

---

(١) الأهرام — ١٧ فبراير ١٩٢٩ .

ما عليه ركرك) أى بالتمـــام والكمال . مع الدقة المتنـــاهية . بالضبط .

والدليل على هذه النظرية أننى لم أر لهذه اللفظة أثرا مكتوبا قبل أيام محمد على ، وهى لم ترد فى غير كتاب واحد هو قاموس الياس بقطر المصرى من الفرنساوى الى العربى [1] .

وقد رد عليه الشيخ عبد الوهاب النجار فقال ان هذه اللفظة جاءت من لفظ (الحارك) وهو منبت أدنى العرف الى الظهر الذى يأخذ به الفارس اذا ركب ، ثم غيره المصريون على طريقتهم فى التظرف بالكلمات الى حركرك ومناسبة الحارك لمعنى (عـــلى الآخر) ان موضع الركوب والحمل من الدابة ظهرها الذى فى نهايته الحارك ، فاذا ركب الراكب على آخر الظهر قيل أنه راكب على الحارك أو الحركرك على سبيل (الظروف) ، وهو الموضع الذى اذا تحرك منـــه الراكب الى الأمام لم يستقم له الركوب ولم يستقم للدابة السير [2] .

٥ — وعرض أحمـــد زكى لكلمة (يا الله) فقال ان عـــادة المشارقة قد جرت على أن يستعينوا باسم الله فى قضاء الحاجات وأن يتداعوا الى الأعمال العادية ونحو ذلك بقول بعضهم : باسم الله ثم صاروا يذكرون (الله) بطريق المناداة ، ثم صاروا يخففون همزة القطع فيقولون (يا الله) وينطقونها كما لو كانت (ياء)

---

(١) الأهرام — ١٩٢٩/٢/١٧ .

(٢) الأهرام — ١٩٢٩/٢/٢١ .

المنادى متبوعة بلام مشددة مفتوحة (يا لله) ثم كثر التداول فصارت هذه الصيغة بمثابة الدعوة الى العمل فى أى أمر من أمور المعاش أو المعاد ، بمعنى هلم . هيت ، هيا ..

وفى مجال الأسماء أشار الى أن أسماء (جريج ، ولاوى ، وشرلمان ، وقسطنطين) من أسماء المسلمين :

وقال ان (ابن جريج) من الأئمة الذين يأخذ عنهم المسلمون تلاوة القرآن وتفسيره ، وكان جـده القريب الأقرب نصرانيا يونانيا ، أعنى عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (تصغير : جرج ، جورجى ، جرجس) .

٦ — ولأحمد زكى كلمات يصر عليها ويرددها دائما منها كلمة (البرتقال) عن الدولة المعروفة بالبرتغال و (جنبرة) عن عاصمة سويسرا (جينيف) وله عشرات الكلمات العربية التى أطلقها على الكلمات الافرنجية ، ومن ذلك كلمة (الناخوذاة) ترجمة لكلمة (Lanalisligue) ، ومعناه المشتغل بتجهيز الفن .

٧ — ويدهش لأن أحدا لم يجاوب المندوب البريطانى على مائدة الملك فيصل فى العراق عندما طالب الأمراء والأعلام — ومن بينهم أمين الريحانى الذى روى هـذه القصة فى كتابه ملوك العرب — أن يدلوه على اللفظ العربى الذى يطلق على الحيوان المعروف فى اللغة الانجليزية باسـم (Badger) : يقول الريحانى : فساح السؤال حول المائدة شرقا وغربا وجنوبا وشمالا وعاد الى المندوب خائب الأمل .

ويعلق أحمد زكى : « وأنا أقول : لو أننى كنت حاضرا لكنت

هديتهم الى الصواب ، فهذا الحيوان قد أكثر كتاب العرب من ذكره ، ومن التعريف به وهو (عناق الأرض) واسمه عند الفرنساويين (Blairean) [1] .

وجملة القول فى هذا أن أحمد زكى كان فى مجال اللغة وتطويرها مرنا ومحققا فى نفس الوقت . وهو من المؤمنين (باحياء المفردات العربية التى يكون لها أدنى ملابسه أو علاقة بما تدل عليه المخترعات الجديدة فاذا لم يوجد ما يفى بالغرض وضعنا لها اسما يقبله الذوق ، وتتفق عليه الأمة العربية ، ولا جناح علينا من أن نستعمل الألفاظ الجديدة بلفظها الأعجمى بعد صقلها بما يتفق مع قواعد اللغة وطرائق الناطقين بها وقد فعل العرب ذلك وفعله جميع الأمم) [2] .

وهو يدعو الى الحد من التورط فى عبادة القديم « فان لكل زمان حاجاته ولوازمه . ونحن بحمد الله فى غير حاجة الى هذه البهرجة اللغوية القديمة » ويردد دائما قوله « اننا فى حاجة الى لغة نعبر بها تعبيرا سليما من غير اسهاب ولا تنميق .

---

(١) الأهرام ــ ١٩٢٩/٢/٢٢ .

(٢) مصر الحديثة المصورة ١٩٣٠/٤/٢٤ .

آراؤه فى ضوء التحقيق العلمى

وبعد فما قيمة هذه الآراء والأبحاث على ضوء التحقيق العلمى ؟

الواقع أن آراء أحمد زكى فى مجموعها قائمة على التحقيق العلمى ، لولا أنه يمزجها بحواش ومداخل وعبارات يجمع فيها بين السخرية والفكاهة الاستطالة بأوليته وعلمه وسبقه ، وهو يواصل تحقيقاته ليستوفيها أحيانا فى سنوات وهذه تجىء قوية مدعمة وأحيانا تضطره العجلة الى أن يقول أشياء سريعة ، فيتعثر ويجد من خصومه من يجابهه بالرأى المخالف فيصمت صمتا طويلا .

« أنا أكتب مقالاتى بعد أن أنضى فيها جسمى ، وأسهر عليها ليلى ، وأرتكب فيها أكبر جريمة تستحق الشنق والاعدام لدى الكاشحين والمستهزئين والمستهترين ، نعم ، أنا لا أكتب الا عن علم ويقين وبعد أعمال الرأى الخمير ، وبعد ارتكاب أكبر جريمة تستحق التشديد فى النكير ، فاننى والله أقتل مباحثى قتلا مضاعفا مكررا فلا أخرج للناس الا ما صح عندى أنه (علم اليقين) وطالما أقتل مقالاتى صبرا يطول مداه حتى تبلغ العشرين فأكثر ، وما ذلك الا لتوقفى فى كلمة واحدة وفى الخزانة الزكية (أحرقها الله بنيران الأوقاف وفيرانها) مقالات كثيرة جدا كلها تنتظر حل

المغلق عن كلمة واحدة ، وأنا أتحرج من اخراجها للناس قبل أن أتمم قتلها .. » [1] .

ويردد دائما هدفه الذى يتطلع اليه من عمله « أنا لا أريد بكتاباتى سوى تحريك هذه النفوس الى معرفة فضل العرب والى اظهار علوم العرب » وهو بالرغم من احاطته بالعربية والفرنسية احاطة شاملة فهو يأسف على أنه لم يتعلم اللغة الألمانية من أجل هذا الهدف الشريف .

نصحت اخوانى وأولادى وأحبائى والمريدين بأن يقبلوا على تعلم هذه اللغة حتى يقفوا على ما حققه الألمان من علوم العرب وحضارة الاسلام .

وقد صور لمحة من جهده فى سبيل التحقيق العلمى :

« حدث أن رغبت فى الوقوف على أصل كلمة (زفتى) هل هو عربى أم مصرى قديم ، فذهبت ذات يوم الى دار الكتب وصرت أبحث وأنقب طول الوقت علنى أعثر على أصل هذه الكلمة فلم أوفق ، فعاودت البحث والتنقيب فى اليوم الثانى والثالث ومكثت أقلب القواميس وأتصفح الموسوعات ، ولكنى على الرغم من اضاعتى لجميع الوقت لم أظفر برغبتى ، وأخيرا بينما كنت أجيل النظر فى كتاب ياقوت الحموى وقعت فيه على أن (زفتى) اسم قبطى لهذه البلدة المشهورة ، ولما جاء العرب أطلقوا عليها (منية زفتى) ويقول : تعترينى فى كثير من الأحيان

---

(١) الأهرام ١٠ سبتمبر ١٩٣٤ .

حمى تستفزنى الى الكتابة ولا سيما اذا أيقظتها « غلطة مؤرخ » .

وهو عند طه حسين وزكى مبارك وغيرهما أول مصرى عرف بالبحث العلمى والتحقيق الجامعى . ويرى [1] زكى مبارك أنه أول مصرى استطاع أن يرفع رأسه بجانب المستشرقين فى الجامعة ، وأن يملأ الدنيا بأبحاثه ، وقال محمد مسعود [2] : انه كثيرا ما أمضى الليل لا تكتحل عيناه فى نوم ووصل به النهار ، لا يلتقى له جفن بجفن بل كثيرا ما وصل الأسابيع بالأسابيع ، وأدمج الأشهر فى الأشهر مكبا على تحقيق « اسم واحد » .

وكان من خصائص همته أنه اذا التوى القصد عليه وقصرت أدوات التحقيق فى اسعافه بحاجته أن يشخص الى مدينة غير التى يكون فيها ، أما لسؤال أهل الذكر عما استعجم عليه ، أو يبحث عن مراجع لم تكن متوفرة .

وقال محمد كرد على أنه كان يحقق « الأسماء الأندلسية » بالروية وامعان النظر والمصابرة والمثابرة .

ويقو لأحمد زكى : جرت عادتى أن أحتاط فى البحث ، فأسأل من أتوسم فيه العلم بما أجهله ، وأقيد كلامه ثم أسأل غيره ، فان تطابقا صح الأمر عندى والا رجعت الى غيرهما ، وهكذا دواليك حتى أقف على الحقيقة فأنشرها بين الناس .

وقد عرف عنه أنه حمل مسودة (مسالك الأبصار لأبى فضل الله) الى فلسطين فكان يقرؤها على بعض علماء القدس

---

(١) و (٢) مراثى أحمد زكى ـ الأهرام والبلاغ (يناير ١٩٣٥) .

الأثريين ويقارن بين ما ورد فيها من وصف آثار القدس وما هو موجود اليوم .

وكانت له حملات على من أسماهم « علماء الانحطاط » . وقال ان هؤلاء العلماء ليسوا مقصورين على الأمة العربية وحدها .. وليس أضر على أمة من علماء الانحطاط فانهم يتخيلون العلم كل العلم مقصورا عليهم ، وأن الفضل كل الفضل منشؤه فيهم ومرجعه اليهم « هؤلاء الذين » لا يرون الا أفقا واحدا فيقتصرون على المرئيات المنحصرة فى دائرة هذا الأفق العقلى « والذين » لا يتوقفون فى الجواب على أى سؤال ، ولا يتحامون الانحشار فى أى موضوع » وضرب مثلا لآرائهم :

١ — رأوا أن جبانة مصر تسمى (القرافة) ، وأن هذا الاسم لا يطلق على جبانة أخرى ، لأنه مأخوذ عن اسم بنى « قرافة » الذين توطنوا تلك الجهة فعرفت باسمهم . ويقولون انما سميت بالقرافة لأن الرائد اذا أقبل عليها يلقى رأفة (راجع كتاب تحفة الأحباس للسخاوى المطبوع على هامش الجزء الرابع من نفح الطيب بالمطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢) .

٢ — سمعوا اسم « تونس » وهو اسم يونانى قديم لحاضرة افريقية ، أى (الايالة التونسية) الآن ، فرجعوا الى تمخيخهم ، واستخرجوا لها اسما عربيا ، واختلقوا من أجله أسطورة تسوغه وتسيغه فقالوا : ان هـــذه القلعة (تؤنس) ثم خففوا فقالوا (تونس) ثم أطلقوا الفعل المضارع المختلق علما على المدينـــة وعلى ذلك قال شاعرهم :

لعمـرك ما ألفيت تونس كاسـمها
ولكننى ألفيتهـا وهى توحش

٣ — سمعوا بقلعة المقوقس التى حاصرها عمرو بن العاص وهى (بابليون) ولم يعلموا أن أصل البانى لها فى قديم الزمان ، أو الذى أمر ببنيانها هو ملك بابل ، حينما أرسل جنوده وفتحوا مصر ، فاختطوا له هـذه المدينة وسموها بابليون (أى بابل الصغرى) .

وقالوا : باب اليـون أو باب اليوم ، وزعموا أنهم كانوا يقولون : من يقاتل اليوم ، حتى جاء اليوم الأكبر أعنى يوم الفتح (راجع المقريزى جـ ١ ص ٨٧) .

٤ — كانوا يكتبون (عدى سببه) على خريطة رسمية لمصلحة المساحة بدلا من (أديس أبابا) ومعناه الزهرة ، لأن ناطقها الأول سمعها كذلك » ا هـ .

ومن أبرز معالم تحقيقاته أنه يعترف بالخطأ ويعود الى الحق متى تكشف له ، وفى مرتين رأيناه يكشف عن ذلك ، ويعلن : « تصحيح لأخطائى أو تصحيح لنفسى بنفسى » .

يقول « أقدم القدوة الحسنة فى الرجوع عن الخطأ الذى وقع منى عندما ظننت ببقاء رفات الشهيد السنهورى فى سنهوك البرك ، اننى أرجـع الى الحق الذى أرشدنى اليه (جرجس فلتاؤوس عوض) حينما كشف لى الصواب ، وأثبت لى بالبرهان القاطع انتقال رفات هذا المشهد الكريم الى ضاحية شبرا الخيمة (لا النخلة) .

ويقول فى مبحث آخر : قلت فى كلامى عن الناصرية ان فريقا منهم يعيش فى مدينة (عنة) وهى عناة أو عانات فى الجغرافية القديمة فجاءتنى الدلالات الصادقة من أهل العلم وأرباب البصر بهذا الشأن « ان النصيرية لا أثر لهم فى تلك الناحية ، ولا فى أى جهة أخرى من أرجاء العراق » .

وما أبرىء نفسى بأننى أخذت هـذا عن كتاب الجغرافية الجـارى تدريسه فى مدارس العراق ، أخـذته قضية مسلمة بلا تمحيص ولا مساءلة ، وهاأنذا قد اغتنمت الفرصة لتقـرير الواقع نزولا على حكم الحق ، وارضاء لضميرى .. » وهكذا تتمثل فى آراء أحمد زكى قاعدتان هامتان من قواعد البحث العلمى والتحقيق التاريخى :

أولاهما : مراجعة المصادر ، وسؤال العالمين ، والانتقال الى الأماكن التى يمكن أن توجد فيها وثائق جديدة وأسانيد أكثر دلالة .

ثانيهما : الرجوع الى الحق متى تكشف واعلان ذلك فى صراحة .

معاركه ومساجلاته

خاض أحمد زكى معارك عديدة ومساجلات متعددة ، فقد شغف منذ مطالع شبابه بالرأى الجديد ، وجرى على أن يخرج من بطون الكتب القديمة نصوصا يحقق بها الآراء المتداولة ، فأحيانا يصل الى الجديد وكل جديد مثير ، فاذا كشفه للناس وعارض به الرأى القديم ، كانت ضجة ومعارضة ، ولعل أحمد زكى كان حريصا على احداث هذه الضجة بين آن وآن ، كأنه يثبت وجوده ، وقد زادت حدة هذه التحقيقات والمساجلات والمعارك بعد أن أحيل الى المعاش عام ١٩٢٢ وتفرغ للبحث ، وأفسحت له جريدة الأهرام صدرها ، ولا شك أن أحمد زكى حقق كثيرا ، وساجل كثيرا ، وكشف عن حقائق كثيرة أغنى بها التاريخ والجغرافيا واللغة .

ولكنه كان فى مساجلاته غاية فى العنف ، فهو عالم بحاثة ، ولكنه لا ينسى مطلقا « نفسه » ، ولا فضله ، ولا أوليته فى البحث ، وكل الذين كانوا فى مجال البحث أزاءه هم فى الأغلب من أبنائه وتلاميذه أو أترابه ، لذلك كان دائما يحدثهم على أساس أنه (معلم) و (قائد) و (سابق) فى مضمار البحث .

وقد كان الناس يقرأون مساجلاته العنيفة مع محمد مسعود وهى أضخم معاركه فربما تصوروا أنهما ندان ، ولكن مسعودا

يعترف فى رثائه لأحمد زكى بأنه كان مصححا لكتابه (السفر الى المؤتمر) .. وأنه كان فى بدء حياته الصحفية عندما كان أحمد زكى كاتبا له اسمه الرنان ..

من هذه النقطة يجيء ذلك الطابع العنيف المتعالى الذى عرف به ، والذى يرجع أساسا الى مصادر نفسية واضحة فى شخصية زكى باشا ، وهى غرامه بالدوى والالتفات اليه ، والتبريز عن طريق التحقيق العلمى والسجال .

ولا شك أن المناظرة هى الفن الذى برع فيه أحمد زكى : بشهادة كل معارضيه وعارفيه ، فهو يخلط الجد بالفكاهة ، ويمزج الحقائق بالسخريات ، وهو عنيف اذا جوبه ، لا يسلّم بسهولة ، بل لعله يعاند كثيراً ويمضى فى البحث لكشف حقائق جديدة يؤيد بها رأيه ، وربما أمضى ليله ساهرا لا يطرق النوم جفنه حتى يصل الى مستند يواجه به خصمه فى الصباح ، وربما دق التليفون على أصدقائه فى الفجر ليقول لهم انه وجد شيئا ..

يقول عنه طه حسين انه « كان ألد الخصام ، قوى العارضة ، يحرج مجادليه أحيانا فيضطرهم الى السخف ، ويحرجه مجادله أحيانا فيضطره الى الأغراب » وهو مع تحقيقه العلمى ومراجعاته لا يخفى عصبية مزاجه ، ولعله كان بذلك رائدا للنقد المصرى فى الأدب العربى المعاصر . وقد أثر فى معاصريه وتبدو ملامح عنفه وشماسه وقسوة عباراته ، واضحة كثيرا فى مساجلات طه حسين والعقاد وزكى مبارك بالذات ، الذى أرى فى عباراته (عبارات أحمد زكى واشتقاقاته) .

٢ — وأبرز ملامح مساجلاته ومعاركه :

* اتسمت معاركه بالعنف ، والاندفاع الى أقصى حد .
* عباراته أحيانا جارحة .
* اعتداده بنفسه واضح .
* اصراره على أن يعلن دائما أنه هو الذى كشف وبدأ العمل قبل غيره .
* غلبة السخرية اللاذعة على نفوذه .
* تأخذ المعارك عنده طابع التحدى والثقة بأنه أصح الناس قولا .
* كان أحيانا يصل به النقد الى درجة كبرى فى الاسفاف .

١ — الاعتداد بالنفس : يبالغ دائما أحمد زكى باشـا فى الاعتداد بالنفس ، فى مصاولة خصومه ، فيقول فى معاركه مع محمد مسعود :

« عنى وعنى وحدى ، خذوا النبأ الصادق ، فعندى وعندى وحدى الحجة الصحيحة والبرهان الناطق .

ودع كل صـوت غير صوتى فاننى
أنا الطائر المحكى وغيرى هو الصدى

٢ — السخرية فى عبارات السجال : يقول للأستاذ مسعود : اننى أتوسل اليه باسم الرشاقة واللباقة واللياقة ، وبحق اللطافة والطرافة والظرافة : أن يرحمنا من الألفاظ العويصـة المتقعرة الجوفاء فيميل بنفسه الى السلاسة فى التعبير وهو عليها قدير ، والى الكياسة فى نظم الكلام ، فارحمنا يرحمـك الله من براعة

الافتتاح التى صدرت بها كلمتك عن الطرطوشى : (لأشاغيل طرآنية) يا ستار يا ستار ، لعن الله تلك الأشاغيل التى شغلتك مشاغلها ، فأوقعتنا فى صحراء الحيرة ، وأرجعتنا رغم أنوفنا الى قعر القاموس . يا ستار يا ستار من تلك الطرآنية ، التى طرأت عليك ، فطرقت أسماعنا بالمرزبة المفردة ، وكل مقامع الحديد بالجمع .. » .

* ويقول له فى نقد آخر : لو انفلق البحر مرة أخرى وهو لن ينفلق ، فقد مات موسى وضاعت عصاه ، أقول لو أنه انفلق لما جاراك أحد فى استعمال كلمة « فيلق » بالتأنيث .

* ومن سخرياته أنه يساجل زكى مبارك فى بعض ما نسبه اليه من خطأ فيوجه اليه الكلام على هذا النحو : أيها الطفل الميمون نجل الدكتور زكى مبارك : أنت تكتب باسم أبيك ، فتارة تخطىء وتارات تصيب ، وأبوك ساكت على هذا التدريج والترويض ..

٣ — الادعاء دائما بأنه السابق ، فى كشف الحقائق ، يقول فى مناقشته مع الأستاذ مسعود : أحسنت يا مسعود فيما كتبته عن (جردفون) ، وأحسنت كل الاحسان فى اعترافك لقلمى العاجز بأنه كان السابق الى تنبيه قومى الى وجوب الرجوع بهذا الاسم الأشهر الى صبغته الشرقية ، والى رسمه على الصورة والحروف التى تواضع عليها أربابه ، وتعارفها العرب ، وتناقلوها من قديم الزمان ، أحسنت يا مسعود كل الاحسان فى الجرى على طريقتى فى الرجوع الى أعلامنا فيما يختص بأعلامنا .. » .

* عباراته دائما غـاية فى العنف والاندفاع : يقـول فى مساجلة مع جرجس فلتاؤوس عوض : ولكنه غلط غلطا فاحشا شنيعا ، لا يصدر عن أصغر تلميذ فى أصغر مدرسة بأصغر (قلاية) .

وهو فى عناوينه يقارف هـذا العنف فمنها قوله : حاسب يا مسعود حاسب ، أاصرار على التزوير يا مناع ؟ أو يقول موجها كلامـه الى جرجس فلتاؤوس عوض يا جرجسا يا جرجسا ، لا أسكت الله لك حسا ولا جرسا ..

* تبلغ عباراته أحيانا أشد العنف فتكون جارحة : يقول لزكى مبارك : أما الدلال يا دكتور ، أما التجنى يا مبارك ، فان كان (يوسف) الجديد المتخفى فى ثياب الدكتور زكى مبارك ابن قرية سنتريس قد سحر بهما بنات باريس ، هذا السحر خيال باطل فى نظر غوانى المغانى بشارع عماد الدين وانه ظل زائل أمام الحور الكواعب فى الأزبكية وفى زين العابدين .

ثم يواصل هجومه على زكى مبارك بعنف : كنت أظنه أديبا فاذا به لا يريد الا أن يكون أدباتيا وكان من تعليمى اياه أن يكون محققا فاذا به يبقى ممخرقا .

ويقول لمرقس سميكة فى خلال نقده : وقعت يا شاطر .. فلو أنك استنجدت بابليس وبكل كذاب ، فى العصر القديم وفى العصر الحديث ، ما أمكنك أن تتخلص من هذه الورطة الا اذا أدليت أنا اليك بحبل النجاة يا مسكين .

١ - بينه وبين على بهجت :

من أولى معاركه التى أحدثت دويا وضجة ، معركة طاس صلاح الدين التى انعقدت بينه وبين العلامة « على بهجت » الأمين العام لدار الآثار العربية والذى يصفه أحمد زكى باشا بأنه أستاذه وصديقه .

وقد حدثت هذه المعركة فى أبريل ١٩١٦ ، ورصدتها جريدة الأهرام ، ودار فيها السجال أياماً متوالية ، على طريقة زكى باشا ، وهى ايراد الشواهد ، ثم ايراد مزيد من الشواهد .

وقصة (طاس صلاح الدين) عرضها أحمد زكى فى محاضرة له ، فلما أتم الموضوع وقف (على بهجت) وأنكر أن الطاس لصلاح الدين وقال :

انى أشك فى صحة نسبة هذا الطاس لصلاح الدين لأسباب ثلاثة :

١ — فنى وهو نوع الكتابة .

٢ — ان التعبير بلفظ (عز لمولانا السلطان) كثر استعماله فى عصر دولة المماليك .

٣ — اعتمد زكى باشا فى صحة نسبة الطاس الى صلاح الدين على الاسم وهو يوسف والكنية وهو أبو المظفر .

ويروى زكى باشا القصة فيقول :

عندما عثرت على كأس صلاح الدين أخذت أبحث فيه وعنه حتى اهتديت الى حقيقته ، وقد أردت التوسع فى البحث من

الآثار المماثلة مما يوجد فى دار الآثار العربية مهملا غفلا بغير سابقة تعريف .

وزكى باشا يعلم أن الكأس كان فى الكنيسة ، وكان يسعى لنقله الى المتحف العربى ، فيقول « زارنى سميكة باشا فتوجهت معه الى كنسيته المعلقة لزيارة المتحف القبطى ، فاوضته فى شأن الطاس ، فقال لى أمام القسس ، انه لما رأى هذا الكأس الثمين ، وأن صاحبه يطلب فيه ثمنا غاليا رأى وجوب الاحتفاظ به .

وقال : ان مسامراتى عن الطاس فى ٣ مايو كانت مشافهة ، الا أن صديقى الذى كاشفته مقدما انتصب واقفا وأخذ يتلو ردا مكتوبا بالحبر من ورقة عريضة وان صديقى القديم قد استفاد من مكاشفتى له بحججى وبراهينى ، واستعاد من استنامتى الى ما أظهره من الموافقة التامة لاستنتاجى ، فجهز قبل يوم المسامرة مكتوبا على خطبة ملقاه بدون كتابة .

وقال انه أنكر فى كلامه أن صلاح الدين لقب بأبى المظفر ، فكان من سوء حظه أننى أظهرت له فهرست متحف الآثار ، وفيه يعترف بامضائه بأن المتحف متضمن حجرا مكتوبا فيه هذا اللقب وأظهرت له صورة النقش الذى على باب القلعة يتضمن هذا اللقب .

٢ — وقال على بهجت : اختلفت مع صديقى أحمد زكى باشا على بعض المسائل التاريخية ، وما كنا لنختلف ، ولم يكن قد أذاع خبر اكتشافه ، ولكنى مع ذلك ما كنت لأتوقع أن يذهب به

هذا الخلاف العلمى الى حد أن يتجاوز الصديق حدود المناقشة العلمية المحضة الى الطعن الصرف .

وقال : دعا زكى باشا عددا كبيرا لسماع خطابه فى موضوع (الطاس الفخيم) الذى ينسبه لذلك الرجل العظيم صلاح الدين .

وخطب صديقى خطبته فى ذلك الجم الغفير بذلاقته المعروفة وضمنها الكثير من الحركات والاشارات ، واللطيف من النكات والحكايات ، مما أضحك الحضور وقضى له بالعجب لـدى الجمهور .

٢ ـ كتب النبى الى الملوك :

ودخل أحمد زكى باشا فى مناقشات متعددة بشأن كتب النبى الى الملوك ومرتين فى عام واحد ظهرت هـذه المسألة : فبراير وسبتمبر ١٩٣١ .

* المرة الأولى عندما كتب أحمد عرفة مناع الخبير الشرعى بالاسكندرية فى الأهـرام يقول انه أرسـل سنة ١٩٠٥ بطريق البوستة الى السلطان عبد الحميد صندوقا صغيرا من الخشب ، يعلوه القطن ، ويعلو القطن حرير أطلس أخضر من الداخل ومن الخارج . وبداخل هذا الصندوق مصحف ، وبه رق عبارة عن خطاب النبى الى النجاشى .

والهدية من مخلفات والده آلت اليه من أجداده الذين كانوا نقباء الأشراف بالاسكندرية .

* * *

ورد عليه أحمد زكى على طريقته :

* ان الورقة التى آلت الى دولة الأمير سليم نجل السلطان عبد الحميد ، وصارت اليوم فى حوزته ، لا يمكن أن تكون هى التى صدرت الى (أصحمة) ملك ملوك الحبشة عن سيد الأنبياء .

* هذه الورقة التى تداولتها فى هذه الأيام صحافة بيروت ، وجاءنا خبرها عن جريدة فلسطين فى يافا ، ثم جريدة الأهرام فى القاهرة .

* ان هذه الوريقة أسلوب جديد من أساليب الأكاذيب ، وقديما تقدم نفر من اليهود الى الخليفة العباسى فى بغداد بورقة نسبوها لخير الأنبياء فتجرد الحافظ الخطيب البغدادى وأظهر ما فيها من التمويه والتضليل وجاء من بعدهم رهبان الطور بكتاب كله زور فى زور ، واغتنموا فرصة القلاقل والاضطراب التى حدثت فى وادى النيل عند سقوط دولة المماليك ، فخدعوا به السلطان سليم العثمانى . وقد تولى كشف هذا التدليس كثيرون من علماء الافرنج المتخصصين ، وأفضلهم المستشرق الفرنسى (بلين) .

ثم تقدم كاتب هذه السطور فكشف القناع ، وأبان وجوه الاصطناع أمام مؤتمر المستشرقين فى مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ .

* واليوم جاءتنا الجرائد بثالثة الأثافى عن بنى عثمان ، والأدهى أن ينازعهم بنو مناع فى شخص فقيدهم السيد أحمد عرفة مناع ، ذلك بأن هذه الرسالة حاول صاحبها أن يستغفل السلطان عبد الحميد .

* وأشار أحمد زكى الى أخطاء الرسالة :

١ — ان وضع التاريخ على رأس الرسالة قد أخذناه فى مصر عن الافرنج فى عصرنا هذا ، وأعماه الله فوضع عبارة (السنة السابعة للهجرة) قبل البسملة ، وجميع الكتب الصادرة عن سيد الخلق الى الملوك وغير الملوك بصفة دعاية أو عهود أو عطايا ، قد جاءتنا كلها بغير تاريخ ولم تجر عادة العرب والمسلمين منذ الهجرة النبوية الى ما قبل اليوم بأربعين سنة أن يضيفوا التاريخ على رأس مكاتيبهم ، بل موضع التاريخ عندهم انما يكون فى آخر الكتاب .

٢ — زعموا ان الكتاب مؤرخ فى السنة السابعة وأهل التاريخ الصحيح ورجال الحديث مجمعون على أن النبى (ص) أرسل كتابه الى النجاشى فى السنة السادسة للهجرة .

٣ — ان التأريخ بالهجرة النبوية لم يوضع الا فى السنة السابعة عشرة بعد الهجرة فى أيام الفاروق عمر .

٤ — ان رسالة النبى الى ملك ملوك الحبشة مدونة فى كتب الحديث (للبخارى) وغيره ، وفى السير النبوية ، وفى كثير من كتب التاريخ . وصورتها فيها تغاير ما نشرته الجرائد عن الورقة الموجودة فى حيازة الأمير الجليل سليم بن عبد الحميد .

٥ — فى الرواية الكاذبة : أم عيسى البتول (الطاهرة المطهرة ، الطيبة الحصينة ، وفى الأصل (البتول الطيبة الحصينة) .

٦ — هناك عبارة أخرى « فان تابعتنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله » هذا كلام ركيك مضطرب .

٧ — هذه الورقة تزوير ، وليس لها قيمة عند العارفين سوى

ثمن الأدم المكتوبة عليه ، وهو من جلد (الشاه) لا من رق الغزال ، وسوى ثمن الحبر المستخدم فى كتابتها . وذلك كله لا يساوى ٢٠ ألف مليم بل عشر معشار .

* * *

ثم جاءت أكذوبة جديدة عن رسالة النبى الى كسرى ..

وتصدى لها أحمد زكى فقال :

منذ شهور ، كانت بيروت قد استأثرت باظهار أوراق مزورة ملفقة زعم أصحابها وهم كاذبون — أنها صادرة عن سيد الأنبياء ، فمن كتاب الى النجاشى ثم زعموه عهدا لعموم المسلمين ، الى كتاب لكسرى .. الى عهد مصنوع فى دير الحميراء بالقرب من اللاذقية (وهم كاذبون أيضا) وقد كشفت القناع عن وجوه الكذب الدنىء الخسيس الذى أريد به الاستغلال عن طريق الاستغفال .

واليوم جاءت التلغرافات بأن باريس تريد أن تزيد على بيروت فى مضمار الخداع ، فقد جاءت أميرة هندية تواطأت مع رجل أفرنكى (لا علم لنا بجنسيته ولا ملته) وهى تقول لمن تريد أن يصدقها ، بل لمن تريد أن تستغفله انها حائزة لثوب قديم هو قميص النبى ، أو البردة النبوية .

ان ذلك مكذوب كل الكذب على النبى العربى الهاشمى .

وأغرب من ذلك زعمهم أن مستشرقا يحترم نفسه يرضى بأن

يقول ان هذا القميص هو الذى أهداه المقوقس الى النبى ، وهدية المقوقس معلومة لنا ولكل انسان .

أيها المزورون ، أيها الكذابون : ابحثوا عن شىء يكون مطابقا للنقل أو موافقا للعقل ، فربما ينقح لكم باب الاستغلال بطريق الاستغفال ، وفى انتظار تلفيقكم لا أبعث لكم التحية ولا السلام .

٣ ـ معركة المعز لدين الله :

ودخل أحمد زكى معركة حامية مع (مرقس سميكة) من أجل المعز لدين الله الفاطمى ، فقد وردت كلمة فى تقويم الحكومة المصرية الذى تتولى نشره جميع المصالح الرسمية جاء فيه « أن الخليفة المعز لدين الله مؤسس الأزهر الشريف قد تنصر وتناول ماء المعمودية ، فى كنيسة صغيرة بدير أبى سيفين بمصر القديمة ، وقد احتاط مرقص سميكة فى ايراده هذه القصة فقال « يقال ان المعز .. كذا .

وقال أحمد زكى :

« عذرا يا صديقى القديم العزيز ، فالحق فوقى وفوقك ، وليس فى وسعى السكوت عن تكذيبك وهدايتك الى الحق بارشادك الى الذى أوقعك فى الضلال ان كنت أنت وقعت فيه اعتباطا .

أنت تعلم والناس يعلمون أننى فى كل أمورى أتولى تكذيب.. الذين افتروا الكذب على نبى المسلمين بتلفيق كتابات مزورة استخدموها للتغرير بالحكومات الاسلامية .

أنت تعلم والناس يعلمون أنني فى كل أمورى أتولى تكذيب .. وتعرف كما أعرف أنهم ارتكبوا التزوير على نبى المسلمين لمصلحة دنيوية يريدون بها توفير المال .

أما أنت ، وأنت من رجال الدنيا ، فقد جريت على أسلوبهم ، من أجل ذلك كان وزرك عندى أكبر ، ولا سيما وأنت من أهل المعرفة الصحيحة ، وعنـدك علم الحق وأنت لا تخفيه ، فأنت يا أخى قد انخدعت بما طرق سمعك قديمـا من تلك الأسطورة السخيفة الخسيسة ، ولطول العهد — ولا أقول لسوء القصد — تبدلت الأسماء فى ذاكرتك ، وانعكست عليك الآية فخلطت زيدا بعمرو ، من حيث تدرى ولا تدرى .

وان شيئا من الحياء ، أو قليلا من الذوق ، أو حسابا للواقع ، أو خوف الحق .. كل أولئك يحول دون دس هذه الخديعة .

أنت أردت الحاكم بأمر الله وأنت مخطىء ، وبيدك كتبت المعز لدين الله وهى خاطئة .

ويقول أحمد زكى : ذهبت الى الدير مرتين للتحقق من (القبر المكذوب) وزرت المتحف القبطى ومكتبته والبطركخانة ، ومجامع العلم وخزائن الكتب ، وراجعت كل الوثائق ، واستوعبت كل الدلائل على المصادر الأولية ، دون أن أعتمد على كاتب مسلم ، بل كل حجتى مأخوذة من الأقباط المسيحيين ، ومن السريان المسيحيين ، وراجعت كل ما كتبـه علمـاء الافرنج من الكليز وفرنساويين وألمان وغيرهم ، ولم أترك بابا فى مصلحة الأسطورة

أو ناقضا لها الا طرقته ، كما تقضى بذلك شريعة الانصاف لأنني أبغى تصفية الحق من كل شائبة من شوائب الارتياب .

ثم يقول : ورأيت بعد ذلك أن الأسطورة تهدم نفسها بنفسها ، ويناقض بعضها البعض الآخر عن الرواية الواحدة ، فضلا عن مخالفة هذه الرواية للرواية الثانية ، ومناقضتهما للثالثة ..

٢ — وقد رد مرقص سميكة فقال : ليس صحيحا ما قاله ، وهو أن الرواية لم ترد فى كتاب ولم يرددها أحد قبلى ، بل الصحيح أنها وردت أولا فى كتاب « وصف الكنائس القبطية الأثرية للدكتور الفرد بطلر » ولا يستطيع منصف أن يجد فى كلامى تصريحا أو تلميحا ما يدل عـلى أننى مسلّم بصحة الرواية ، وما أقمنا وزنا لرواية كهذه أو جعلناها موضع تصديق ، لأنها ظاهرة البطلان ، وما ذكرت هذه الرواية الا كدليل على تاريخ أثر قديم فى الكنيسة .

٣ — وعاد أحمد زكى يعلق على رد مرقص سميكة ، ويتحدث على طريقته المعروفة فى التطاول والتعالى قال :

أمـا وقد رجعت يا أخى مرقس الى الحق ، فصـارحتنا بلا غموض ومن غير ابهام أنك لا تعتقد بصحة الرواية الكاذبة المكذوبة .

أما وقد وعدت بحذف الجمـلة المجرمة التى أضفتها أنت بلا ضرورة ومن غير داع الى كتابتك السليمة البريئة ، فاننى أترنم لك بمزامير الشكر .

وكانت هذه الهداية تكون كاملة لو أنك عـدلت عدولا

تاما وصريحا عن الرواية المكذوبة من أصلها وفصلها ، دون أن تتسكع فى المماحكة والاصرار على قولك ، « ما ذكرت هـذه الرواية الا كدليل على تاريخ أثر قديم فى الكنيسة » فافهم هذا ، ولا تعد لمثل هذا الكلام ، فمقامك العلمى أكبر من أن يصدر عنه هذا القول الباطل ، على أنى أعذرك فى التشبث بهذا القش الهافى ، أو بهذا العنكبوت الواهى ، فقد كان لا محيص لك من انقاذ الموقف والخلاص من الورطة ، بمثل هذه الكلمة الجوفاء(١).

٤ ـ مع زكى مبارك :

وكانت معركة أحمد زكى مع زكى مبارك حول كتاب أصدره الشيخ سليم البشرى . قال مبارك أنه لم يكتبه ، وأن الذى كتبه هو ابنه عبد العزيز البشرى باشراف والده ثم لم يلبث أحمد زكى أن عرض لأبيات من الشعر وقال :

أنت جدع وشاطر فعرفنى وعرف الناس باسم قائل هـذه الأبيات . وأورد عددا من الأبيات استهلها هكذا :

يا رب ان شفيعى من ذنـوبى فى
يوم القيـامة خـير الخلق والنسم

ورد زكى مبارك عليه قائلا :

هل يليق بالعالم أن ينقل الجدل من ميدان الى ميدان ليفر من الجواب ، ان هذا النوع من السؤال — عن الشعر — لا يتفق

---

(١) الأهرام من ٧ أغسطس الى ٢١ اغسطس ١٩٣١ .

مع الذوق الحاضر ، وان كان يصلح لمطارحة المبتدئين فى مدرسة ثانوية ، ولو استبحنا لأنفسنا أن نسأله هذا السؤال لأعجزناه وأعجزنا معه ألوفا من القراء ..

ورد زكى باشا مهاجما تحت عنوان (خم النوم — صح النوم) .

وقال : كلمتك الجارحة الى أستاذك الذى رباك وأحسن تأديبك أيام كنت متوجا بالعمامة البيضاء ، فيا رحمة الله على تلك العمامة ، وما كان تحتها من أدب ورقة ولطافة .

وأشار زكى باشا الى موقفه من أستاذ له فى المدرسة التجهيزية كان دميما وكان يتحدث عن اعجاب حسان باريس به .

يقول « فما كان من التلميذ « الخبيث » أحمد زكى الا أن قال له ذات يوم : يا دكتور (ماعندكش مراية) .

فانهال عليه بالسب والشتم .

وقال أحمد زكى : فهل فى تلاميذ اليوم نخوة على تأديب أستاذهم ز . م ابن سنتريس المنوفية ؟ كما فعلنا نحن بالأمس .

وعاد زكى مبارك فهاجم أحمد زكى بعنف وقال له :

كنا نظن أن الأدب البارع الذى يظهر فى مقالات شيخ العروبة فن جديد رمته به أيام الشيخوخة ، ولكن يظهر أن هذا الأدب كان من صفاته لعهد الطفولة ، فقد حدثنا حفظه الله أنه استباح أن يقول لأستاذه فى المدرسة التجهيزية (ماعندكش مراية) .

وهذا الرجل الذى يكتب بقلمه هذه التعابير ، هو نفسه الرجل الذى قضى وقتا طويلا يدعونى الى أدب القول .

وقد عملت بنصيحته وتأدبت معه ، فاستأســد وكشر عن أنيابه ، وكان فى مقدورى أن أعامله بمثل ما عامله به الأســتاذ محمد مسعود . ولكنى رفقت بشيخوخته وقدرت له ماضيه فى خدمة اللغة العربية .

* وانتقل زكى مبارك الى شىء آخر فقال ان أحمد زكى مغرم بالسجع فى عناوين كتبه وأورد ما أسماه مؤلفاته الجديدة التى أخرجها للناس :

١ — السفر الى المؤتمر .
٢ — القول الكاشف ، فى الفول الناشف .
٣ — ذهب الابريز فى محاسن باريز .
٤ — التحفة البهية ، فى الكبدة المشوية .
٥ — النفحة الذكية فى المدائح النبوية .
٦ — الروض المشرق فى أخبار المشرق .
٧ — اتحاف الخلق بأخبار باب الخرق .
٨ — القول المبين فى مقام سيدى الأربعين .
٩ — المرقص فى الرد على مرقص (وهو كتاب نشره فى العام الماضى ردا على مرقص سميكة) .
١٠— البرح والجوى فى بنات الهوى .

والواقع أن هذه المؤلفات مختلفة من أساسها ما عدا الكتاب الأول .

وقد رد أحمد زكى على زكى مبارك فقال :

ما بالك تجحد فضل أستاذيتى عليك ؟ وتعاود فحش القول

وجفاء الطبع وبماذا تبيض وجهك بعد أن استعفرتنى فى دار مجلة المعرفة قبل ردك الأخير ؟ أفأنت حينما تواجهنى يتغلب عليك الأدب ويغلبك الحياء ، فاذا ما خلوت الى نفسك جمح بك القلم ؟

ثم قال عن مسعود : والحق انه بزنى فى الخطاب ، وانه فاز على فى ميدان الشتم والسباب ، وها أنذا أعترف له بذلك ، وأشهد أنك لحقت غباره فى هذا المضمار بل سبقته بأشواط . وقد صارت قلة الأدب يا مبارك منتشرة أيما انتشار .

اننى تعففت عن منازلة الأستاذ مسعود فى التراشق بالقول الهراء وهو لا يجهل أن عجزى فيه لا يوازى سوى قسوة قلمى فى تشديد النكير على أهل الدراية اذا ارتكبوا خطأ ، وأذاعوا ضلالا ، لأننى أمشى على الحكمة التى تقول : الغلط اذا تدورك تبدد ، واذا ترك تعدد .

ثم عاد الى مناقشة مبارك فيما أورد له من كتب مختلفة :

فقال : انه يزعم أنى صنفت كتابا فى القول الناشف : برضك يا مبارك تموت فى هذا القول ، ولا يصدك عنه صدود ، وتنسب الى (التحفة البهية فى الكبدة المشوية) .. يا كبدى عليك يا مبارك حينما كنت تجرى ليلا فى درب المش وراء (يا جابر) الذى يبيع الكبدة ، وأنت لا تزال تحلم بها ، وتتصور أنها أكل الملوك

٥ ــ ملك سليمان ووادى النيل :

عرض أحمد زكى [1] لما ورد عن ملك سليمان من أنه ملك

---

(١) الأهرام ١٩٣٣/٨/٥ .

الدنيا كلها ، وهاجم كعب الأحبار : ذلك اليهودى اليمانى ، واتهمه بأنه هو الذى حمل هذا الرأى الى المسلمين ، وقال أن بعض علماء الأزهر — وهم سياج الدين — لا يجرؤون عـلى الجهر بانكار آرائه ، فهم يخافون مخالفة العامة ، وقد تساءل : هل ملك سليمان الدنيا كلها ؟

وأجاب : كلا .. بل الحق الذى لا جدال فيه ولا معدل عنه ، أن سليمان (عليه السلام) كان أكبر ملوك اسرائيل ، وأعظمهم مجدا ، وثروة ، وأبعدهم صيتا وشهرة ، على أن ملكه — مع ذلك وبرغم ذلك — لم يتجاوز فى الشمال مدينة حماه المحبوبة الزاهرة ، وكان يمتد جنوبا الى تخوم مصر عنـد رفح ، الى العقبة ، أما من جهة المشرق فقد اشتمل الصحراء(بادية الشام — الحماد) حتى ضفة الفرات دون أن يتعداه .

« فأنت ترى أن مملكة سليمان ما كانت تتجاوز أرض الشام ، فما ملك سليمان الدنيا على ما تقاوله المخرفون الممخرقون ، عن الاسرائيليات التى دسها كعب ووهب .

ثم تساءل : اذن كيف نفسر ما جاء فى القرآن من اجابة دعوة سليمان أن يرزقه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ؟

وأجاب « يرجع فى طلب الجواب الى التاريخ ، ففيه النبأ الصادق وعنده الخبر اليقين . لقد كذب الذين قالوا ان سليمان ملك الدنيا بحذافيرها ، وصدق الله العظيم .

* وقد هاجمه الشيخ صادق عرجون قائلا : لا يا شـيخ العـروبة [1] :

القرآن . القـرآن . ان الأعـلام الثقات من حمـاة الدين لا يرضون شيخ العروبة على علمه وفضله وتاريخه — مفسرا للآيات البينات ، ولو كان هذا التفسير الذى يجيئنا به شـيخ العروبة من (الفتوحات القدسية)[2] .

ليسمع الناس من شيخ العروبة تحقيقات أندلسية ، وتدقيقات جغرافية ، وتصحيحات تاريخية ، واستكشافات عروبية ، فهم فى حل من ذلك ، ولكن القرآن .. كتاب الله الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يحومن علامتنا حـول حماه ، على أسلوبه وطريقته وفتوحاته .

أما شيخ العروبة فمعاذ الله ولياذه أن تكون تلك التحفـة الجاحظية منه فى تفسير وادى النمل المذكور فى القرآن وفى تحديد ملك سليمان ، بل هذا التمخخ من شـيخ العروبة ليس الا كبوة جواد نقول لصاحبها (لعا) .

وقد خص عالمين عظيمين وامامين من أجل تابعى الأمة بالسب الفاحش ، ثم رمى علماء الأزهر بالجبن عن الجهر بانكار ما بث فى الدين من الاسرائيليات ، زاعما أن الذى بثها هو الامام كعب الأحبار ... » .

وصمت شيخ العروبة وترك العاصفة تمر ..

---

(١) الأهرام ١٩٣٣/٨/١١ .
(٢) العنوان الذى اختاره احمد زكى لتحقيقه عن ملك سليمان .

٦ – معاركه مع مسعود :

توالت المعارك بين أحمد زكي ومحمد مسعود ، واتصلت منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٣ خلال أربع سنوات كاملة .

وكان محمد مسعود قد كتب عن « الاخوة المغررون » [1] على أثر ما أذيع عن جريدة الهدى الأمريكية عن وجود قبيلة عربية فى المكسيك وقال انه لا يبعد أن تكون هذه القبيلة من سلالة أعضاء بعض البعثات العربية الآنفة التى خرجت تباعا من سواحل أندلس والبرتغال ومراكش لاستكشاف يابسة فى غرب بحر الظلمات ، وأنهم آثروا بعد وصولهم الى جزر (الأيتيل) — التى منها جزيرة الغنى ذات اللحم المر الحامض على قول الشريف الادريسى — الاستقرار والعيش فيها .. » .

وقد رد عليه أحمد زكى مباهيا على طريقته بأن عنده وحده الخبر الصادق والحجة الصحيحة ، وقال ان زعم مسعود محال و « ألف محال » وقال :

« ان الكاتب الفاضل أداه اجتهاده الى الرمى بهذا القول جذافا ، دون أن يعتمد على برهان أو شبه برهان ، وليس هناك سوى استنتاج لا يقوم على دليل ، بل هو محض ظن منه ينقضه الواقع » .

.. انه اعتمد فقط على المصدر الذى كان له فضل السبق على كل عربى وعلى كل شرقى ، حينما نبهت العرب اليه فى عام ١٨٩٢ .

---

(١) الأهرام – ١٩٣٠/١١/١٦ .

ولكن الكاتب الفاضل اكتفى بهذا المورد الذى لم يدل على شيء سوى محاولة العرب ، نعم محاولتهم الوصول الى أمريكا ، ولكنه يقول ويؤكد برجوعهم خائبين عن ذلك المصـدر نفسه بنصه وحرفه ، ولو أحاط علمه بمباحثى فى هذا الموضـوع لما سمح له فضله أن يقول بأن العرب الموجودين فى أمريكا هم من بقية أبناء العمومة الأندلسيين .

٢ — رد مسعود يقول :

نظرة الى مقالى يكفى لاقناع من يراجعها بأنى فيما سقت من تلك البيانات لم أقطع قط بانحدار تلك القبيلة من العرب الذين أوغلوا فى بحر الظلمات ، بل أحطت استنتاجى فى هذا الموضوع بسياج من ضروب الاحتمال والتحفظ . غير أن سيدى العلامة أبى بعد ذلك — كرما منه وتواضعا — ألا أن يمن بأنه مصدر العلم والعرفان ، وحائز قصب السبق فى كل ميـدان ، فكتب يقول : انى لم أعتمد الا على المصدر الذى كان له فضل السبق.. وهنا أقول : هل من غضاضة أو تثريب اذا أنا لذت بكتبه فى الاستزادة من المعرفة ؟ أو نهلت من ينبوع علمه ، أو استظللت بوارف فضله ، وهو القائل « عنى وعنى وحدى خذوا .. » .

وفى تواضع التلميذ وطاعته لأستاذه يثق كل الوثوق أن مقالى الذى تصدى لتفنيده وتجريحه لم أعتمد على مصدر من مصادره ، أما المصدر الذى اعتمدت عليه فهو جريدة الحاضرة التونسية عن مقال نشرته عن استكشاف العرب لأمريكا فى أوائل عام ١٨٩٢ ، أى قبل رحلته والعثور على كتاب « نزهة المشتاق للادريسى » .

على أننى أقرر أن كتاب « نزهة المشتاق » لم يكن قبل أن نهتدى الى مخبئه فى بعض خزانات البلاد المغربية كمية مهملة نبت عليها العشب ، ونسج العنكبوت ، وانما كان من المصنفات الذائعة الصيت المرموقة منذ أجيال وان فى المقتطف عام ١٨٨٨ فصولا عدة من هذا الموضوع بقلم ديمترى خلاط .

* * *

كتب محمد مسعود بعض المقالات فى تحقيق الأعلام الأندلسية منها كلمته عن « جردفون » بدلا من غاردفوى ومالقة .. الخ .

فعلق عليها أحمد زكى بقوله [1] : أحسنت كل الاحسان فيما كتبته عن « جردفون » فى اعترافك لقلمى العاجز بأنه كان السابق الى تنبيه قومى الى وجوب الرجوع بهذا الاسم الأشـــهر الى صبغته الشرقية ، والى رسمه على الصورة وبالحروف التى تواضع عليها أربابه وتعارفها العرب ، وتناقلوها من قديم الزمان ، أحسنت يا مسعود كل الاحسان فى الجرى على طريقتى فى الرجوع الى أعلامنا فيما يختص بأعلامنا ؟ واعلم أن احسانك فى هذا الباب لا يضارعه الا اساءة وزارة المعارف المصرية فى استمرارها فى نشر الاسم بالغلط الذى تتعمده هى فى تدريس الجغرافية بالعربى ولا سيما فى خرائطها الكبرى التى تكرر طبعها مع الاصرار على ارتكاب ذياك الخطل وغيره .

---

(١) الأهرام ـ ٦ : ٦ : ١٩٣٢ .

وأحسنت فى تصحيح ما فرط من مترجمى الصحف العربية حينما مسخوا (مالقة) ولكن الواجب عليك أن تشير الى أن قلمى العاجز هو الذى كان له السبق فى الاعراب عن هذا الصواب على صفحات المؤيد والمقطم والأهرام ، وغيرهما من جرائد سورية والعراق .

ولكن كان يجب عليك يا أخى أن تحاسب فى خوض هـذه الموضوعات ، وأن تتثبت كثيرا فيما يصدر عن قلمك البليغ ، لئلا تكون مثل وزارة المعارف سببا فى شيوع الخطأ وفى ذيوع الخطل .

أنت قلت ان مالقة من ثغور الأندلس ، وفيه قصور قديمة منها القصبة وأرشدونة ، وهو سهو منك ، ان (أرشدونة) مدينة قائمة بنفسها ، ولا دخل لها فى مالقة ولا فى قصور مالقة .

* * *

٢ — عاود أحمد زكى الرد على مسعود فى مقال له جديد عن (شلمنقة) وهى احدى بلاد الأندلس فقال :

بعد هروبى لطلب الراحة فى الاسكندرية ، بلدى وبلدك ، ما راعنى الا طلوع الأهرام على الناس بمقالك عن (شلمنقة) .

يا مسعود : اتق الله فى الأمانة التى فى عنقك ، فأنت أخذت تتحفلط وتتحذلق وتتلاعب بهذا الاسم ، وبالناس الذين تصورت أنت أنهم قد يخطلونه بالاسم المقارب له وهو (طلمنكة) ، فكان عجبى شديدا ، حينما قرأت هذه الحقائق الصحيحة التى ليس فيها سوى عيب واحد هو الاغتصاب الأدبى . ولكنى أتخيل أنك

وقفت أمام المرآة فرأيت شخصا أخذت تسخر منه ، ثم وجهت السخرية الى الناس بغير حق ..

أنت أخذت منى وعنى كل هذه المعلومات الصحيحة التى دونتها فى الأهرام مع صياغتها بتلك الرشاقة البديعة ، وبذلك الأسلوب الجذاب الذى برعت فيه ، فلماذا خالفت واجب الأمانة ولم تنسب الفضل لأهله ؟

لعلك نسيت يا مسعود .

لعلك تقول ان الانسان معدن النسيان .

اتق الله يا مسعود ، فلك مركز وطيد بين أهل الأدب والتحقيق ، و (الشطارة) يا أخى أن يكون الانسان مستعدا لاثبات ما ذهب اليه ، وأن يبادر بالرجوع للحق متى نبهوه عليه ..

٣ — ورد مسعود على شيخ العروبة وأخرج كل ما فى جعبته بعد الصبر الطويل : فقال : [١]

يدعونى شيخ العروبة الى تقـوى الله ليهيىء لى من أمرى رشدا ، فأكرم بهذه النصيحة الغالية ، ولكن أرانى الأستاذ تجاهه فى مأزق ، حتى يرأف بحالى ، فيدعونى الى التزود بزاد التقوى لأقيل عثرتى ؟ وهو الذى فى مناظراته عود مناظريه أن يكون أمرهم معه يسرا لا عسرا .

ووصف تحقيق بعض أسماء الأعلام بأنها ألفاظ مقعرة وحفلطة وجليطة وتحذلق وتفاصح .. وما علم الناس طرا فى الخافقين ،

---

(١) الاهرام — ٤ يوليو ١٩٣٢ .

وما زالوا يعرفون أنه شنشنة مولاى الأستاذ وفطرته التى فطر عليها فى مباحثاته ، وسلاحه الذى يخطر به خطرانا فى غطرسة وزهو كلما أقبل على ميدان ، أو تحفز للضرب والطعان .

ليس من ديدنى أن أقرع هذا السلاح بمثله ، أو آبه لتلك النعوت ، وأمر بها مر الكرام ، وأضعها دبر أذنى .. » .

وأشار مسعود الى قصة كتاب الادريسى وقال : اننا انبرينا لتقييد الدعوى وأثبتنا بالدليل المقنع أن الكتاب طبع قبل عثورك عليه بثلثمائة سنة ، وقال : « لما أثبتنا كل ذلك رأينا قلمك الندى قد ذبل عوده ، وانقطع سيله وعدت لا تحير جوابا فى هذا الموضوع الذى لم يكن فيه من سبيل لغير الحجة المهذبة والدليل المؤدب .

ولست أدرى لماذا لا يرى شيخ العروبة الخير والصواب الا فى ملاحقة كل كاتب باحث بدعاوى التفوق ، وتعقبه بصنوف المن والتعيير والتكدير والتحذير ، بل لا أدرى لماذا لا يلذ له أن يلصق بغيره ما هو به ألصق فهل جهل أن تجاهل أن من أمارات العلم الصحيح أن يكون زكى النفس قبل أن يكون عالما ، وأن يقصد بعلمه هداية غيره فى تواضع وانكار للذات اذ التواضع مساغ الى رفعة القدر ، وانكار الذات سبيل الى كسب محبة الناس .

أيتها النفس .. ان ربى وربك أمرنا بالحسنى فى الجدل ، اتك تحشين أسلوبك الجدلى بهجر القول ، وسقط الكلام ، وحواشى اللفظ ، مثل الجليطة وما اليها من العبارات المملولة المجوجة ، التى أصبح من غير اللائق أن تتضح بها براعتك فى مثل

هذا العصر ، عصر القــول بالمعروف الذى يدخل الآذان بغير استئذان .

ليس لمثلى أن يزجى النصيحة لمثلك ، وأنت من العلم والفضل فى الذروة العليا ، ولكننى أهيب بك أن تكون تحية أول صديق من الكرام الكاتبين قابلته فى صبيحة اليوم .

قولى له : تالله لو كنت طالب علم ، ولم يكن غير زكى باشا أستاذا على وجه الأرض ، لآثرت البقاء جاهلا خاملا طول عمرى ، على أن أكون عالما نبيها اذا كان أسلوبه فى التعليم كأسلوبه فى الجدل والمناظرة .

* * *

وعاد السجال مرة أخرى بين مسعود وزكى :

فقد كتب مســعود مقالا فى البلاغ عن [1] « الطرطوشى » استهله على هذا النحو :

« لأشاغيل طرآنية صرفتنى .. عن مطالعة الصحف .. » وكأنما كان مسعود على موعد جديد مع أحمد زكى :

« [2] أتقدم الى الأستاذ مسعود برجاء مربع ، وقد أطمع فى كرمه أن ينعم على وعلى نفسه بحاجة خامسة ، ولعله يتفضل ببناء هذه الأركان الخمسة لمصلحة الأدب ولفائدة العلم ، يتحقق أملى

---

(١) البلاغ — ١ : ٢ : ١٩٣٣ .

(٢) البلاغ — ٤ : ٢ : ١٩٣٣ .

القديم فيه ، بأن يعود (كما كان) ومحمد زكى باشا الى عبارة (لأشاغيل طرآنية) فهاجمها من ناحية الذوق وان اعترف بها لغويا فقال : أنا لا أقول قط أنها خطأ ، بل هى عين الصواب ، وكل الصواب . ولكن الذوق شىء غير الذى فى الكتب » .

٢ — ورد مسعود على شيخ العروبة هذه المرة عنيفا وأشد عنفا من المرة السابقة فقال :

(١) ليس من الهنات الهينات ، ولا من تافه الأشاغيل أن يسوقك الحظ العاثر يوما الى النزول مع شيخ العروبة فى ميدان مناظرة ، ذلك لأنك اذا خضت معه ذلك الغمار استهدفت لغمزات شتى من سنان قلمه الجارح ، فمن مّن عليك ، وتعيير لك بأنك انما من بحر علمه اغترفت ، الى تشهير بك وانحاء باللوم والعتب عليك ، لأنك لم تؤد له صاغرا اتاوة الشكر لقاء ما غمرك به من فيوض احساناته العلمية ، ومن تفاخر بأنه القابض وحده على مفاتيح التحقيقات العلمية واللغوية ، والمالك لناصية البحوث الأندلسية ، والملهم فى دياجير الأخطاء بالتوفيق لنور الصواب والحق ، الى اتهام لك بالجهل وانتحال علم ما لا تعلم ..

فهو يرى اذن أن العلم وما يتصل به من تحقيق وتمحيص تراث أوصت له به الحكمة الأزلية ، وميراث خلص له من غضون الأجيال السالفة ، ليس لأحد أن يرمقه بعين ، أو أن يشرئب اليه بعنقه .

---

(١) البلاغ — ١١ فبراير ١٩٣٣ .

وهذه هى الغاية لا تجاوز بعدها للصلف ، وتصغير الـ .. ، وحب الأثرة .. واذ أنت فى مناقشتك اياه أخذته بالهوادة القائمة على أساس وطيد من أدبك العالى وخلقك الرضى الكريم فقلت له مثلا : أنت سيدى وأستاذى ، وأنت نسيج وحدك فى العلم ، ومنقطع القرين فى الفضل ، وأنت نادرة الزمان وبكر الفلك ، وأنت وأنت .. وبذلت فى هذا السبيل فوق ما كان يبذل للصاحب ابن عباد من ألفاظ التقدير ، وعبارات المديح فسرعان ما يهيج هائجه ، وما هو الا لمح البصر حتى يتنـــاولك قلمه بالتحقـــير والتصغير والتنكيت والتبكيت ، ثم يدعى عليك فى آلاء نفسه بأنك أهنته بعد أن سرقته ، وسببته بعد أن سلبته .. » .

عمله فى مجال الآثار

لم تكن (الآثار) عند أحمد زكى بأقل أهمية من الأبحاث التاريخية والجغرافية واللغوية أو أسماء الأعلام ، فقد أولاها اهتماما واضحا ، وسارت مع أعماله الأخرى فى ركب واحد كجزء من خطته الفكرية العامة ، فقد اقترن بحثه عن المخطوطات والكتب النـادرة ببحثه عن القبور والمساجد والمسكوكات والمحاريب والأوانى والزخارف ، وهو لم يدع بلدا من البلاد التى زارها فى العالم العربى أو فى أوربا دون أن يدخل مساجدها وكنائسـها وقصورها ، دارسا فاحصا ، وذلك الى جوار بحثه عن خزائن الكتب والمخطوطات .

وقد بدأ حياته الفكرية متصلا بالجمعية الجغرافية وعضوا بها ، مواصلا العمل من أجل الكشف عن الحفريات والأحجـار والنصوص .

وقد ألقى محاضرات متعددة عن آثار العـرب الخالدة فى أوربا [1] وحقق عشرات من المسائل المتعلقة بالقبور المنثورة هنا وهناك كقبر العريش الذى قالت الخرافة أن به قبرا لنبى من الأنبياء ، وعديد من القبور والمزارات .

---

(١) المقتطف ـ اكتوبر ١٩١٢ .

وكان أحمد زكى من أصحاب الرأى القـائل بأن الحسين والسيدة زينب غير مدفونين فى مصر ، وأن جوهـر الصـقلى والجبرتى ليسا مدفونين فى الأزهر .

وقد واصل أحمد زكى بحثه عن القبـور فى كل مكان ، يقول :

« انك حيثما قلبت وجهك فى ربوع الشام ، وأينما نقلت قدميك فى الأرض المقدسة فثم ضريح منسوب بالحق أو بالزور لنبى معلوم أو مجهول ، لولى موهوم أو مزعوم ، كذلك قل عن القديسين الأطهار وعن الأولياء الأبرار » .

كما كذب أحمد زكى ما ورد من وجود قدم للنبى فى صخرة القدس أو مسجد السيد البدوى (طنطا) أو مسجد قايتباى (القاهرة) أو مسجد أثر النبى (الفسطاط) ، كما راجع الباحثين فى الأثر المنسوب الى النبى فى دير القلمون .

٢ — اشترك أحمد زكى فى جميع مؤتمرات الآثار العالمية فى روما ولندرة وفينا وفى المؤتمر الأثرى الذى عقد ببيروت (أبريل ١٩٢٦) ألقى محاضرة عن أغلوطة جغرافية فى انجيل متى .

كما ألقى عديدا من المحاضرات فى القدس ودمشق وحلب عن الآثار العربية وبحثا عن المسكوكات العربية وجـرت بينه وبين يوسف اليان سركيس مناقشات عن استعمال الزجاج كنقـود للتداول (١) .

---

(١) بحثه عن المسكوكات : مجلة المجمع العلمى العربى م ٦ مارس ١٩٢٦ .

ومن تنبؤاته الأثرية ما أدلى به عام ١٩٢٥ فى دمشق من أنه يطالب بالكشف عن الهرم الرابع والخامس فى الجزيرة العربية .

٣ — عرف بالغيرة البالغة على الآثار العربية ، وهاجم الفرنسيين والانجليز من أجل اختفاء بعض محاريب المساجد فى بغداد والقدس .

وقد حقق أحمد زكى كثيرا من قضايا السرقات للآثار والكتب . ورفع الصوت عاليا عندما اكتشفت سرقة محراب مسجد نور الدين فى حلب : « فقد اختفى هذا المحراب البديع الصنع فيما بين عشية وضحاها ، سرقته فرنسا المحتلة لسوريا عام ١٩٢٨ » .

وتوالت الأنباء وسرقة محراب آخر ، سرقه الانجليز فى العراق من جامع الخاصكى القائم بمحلة رأس القرية فى بغداد .

غير أن الانجليز لم يلبثوا أن ردوا هذا المحراب على أثر الصيحات التى تعالت ضدهم .

٤ — وأشار زكى باشا الى أن الانجليز سلبوا من جامع قايتباى بالقاهرة : (أبدع منبر من الرخام) ونقلوه الى متاحفهم ، يقول « وقد رأيته أنا (أحمد زكى) فى متحف «سوث كتسنجون» بمدينة لوندرة عام ١٣١٠ هـ سنة ١٨٩٢م وقد أرسلت اليه سهوما، بل سموما من نواظرى ، كانت تكفى لسحقه ، لولا أنه من أفخر المرمر ، فلم يتأثر ذلك الحجر بذيالك النظر .. » .

٥ — وواصل البحث عن المصحف المسروق من المسجد

الأقصى « ذلك المصحف الذى كتبه سلطان[1] المغرب الأقصى من بنى مرين بخط يده من أوله الى آخره على الرقوق النفيسة الغالية ثم أشرف بنفسه على زخرفته ونقشه وتذهيبه وترميكه وتجليده وتغليفه بالحرير ، ووضعه فى صيوان من نفيس الخشب المزخرف بالفضة ، المزركش بالذهب .

يقول : وقد قرأت كثيرا عن هذا المصحف وعن أخويه (أحدهما بالكعبة ، والثانى بالمدينة) وكنت كثير الشوق الى امتاع النظر باجتلاء محاسن هذه الثلاثة أو واحد منها على الأقل ، حتى أسعدنى ربى بشد الرحال بل بركوب القطار فى صيف ١٣٤٠ هـ سنة ١٩٢٢ م الى المسجد الأقصى ، وتوالت بعد ذلك رحلاتى الى تلك الربوع المقدسة لخدمتها بقلبى وروحى ، ودع ذكر المال فهو غاد ورائح ..

وهاجم أحمد زكى بريطانيا وعدها مسئولة عن ضياعه .

٦ — وطالما هتف بالمصريين والعرب الى حماية آثارهم من السرقة والبحث عن المدفون منها (هذه آثار مفاخرنا مهملة بل مجهولة ، عندنا وعند هؤلاء الفرنجة ، يتهافتون على العناية بتصيد بقاياها ، ونحن أحق بها منهم والله) .

وطالما طالب العرب بالتعرف على آثار بلادهم ، والتنقيب عن آثار أجدادهم ودرسها الدرس اللائق بها ، وقال ان من العار أن نتركها للأجانب يدرسونها ويجرون عنها بحثا دقيقا ونحن غافلون ...

---

(١) هو السلطان المنصور بالله أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق .

في ميدان العمل السياسي

هذا الجانب من حياة (أحمد زكى باشا) دقيق ومختلط فيه الخير والشر ، وربما كانت بعض جوانبه بحسب مقاييسنا الآن ضعيفة أو مضطربة ، ولكننا لو نظرنا الى الأمر فى ظل الظروف التى كانت تعيشها مصر بعد الاحتلال البريطانى لعذرناه فى بعض مواقفه ، ولقدرنا فى نفس الوقت ذلك النبوغ والذكاء الذى استطاع به أحمد زكى الشاب الفقير الذى رباه شقيقه ، ودرج فى أجواء الحياة المتوسطة ، أن يجالد ويجاهد فى هذا الخضم العميق الواسع المضطرب ، حتى يصل الى مكان الصدارة ، فيكون سكرتيرا عاما لمجلس النظار فى ظل ثلاثة من الأمراء ، عباس وحسين وفؤاد .. وأن يلى منصب سكرتير الجامعة ، وأن ينوب عن مصر فى مختلف المؤتمرات العالمية ، وأن يكون من أبرز المترجمين المتخصصين فى اللغة الفرنسية الفاقهين للمواد القانونية والدبلوماسية فى هذا المجال ، وأن يقطع هذه الأشواط كلها وهو الكاتب المؤرخ المحقق ، الخطيب ، الباحث عن المخطوطات والآثار ، الرحالة ..

ولعل عمله فى هذا المجال خلال ثلاثين عاما هو الذى دفعه لأن يجرى مع التيار ، وأن يخالف عن الركب الوطنى الثائر ،

المتحرر من القيـود ، وربما اعتذر عن ذلك بقيـود المنصب ومسئولياته .

٢ — وحياة أحمد زكى باشا السياسية فى هذه الفترة مضطربة أشد الاضطراب فهو صديق للخديو عباس الذى حاول أن يستفيد من التيار الوطنى ، ويشجع مصطفى كامل ، ليقاوم به الانجليز ، ويرد به ضربات كرومر ، ويخضع كبرياءه حتى اذا وقع حادث دنشواى وسحب الانجليز كرومر (أبريل ١٩٠٧) وجاءوا بخلفه (الدون غورست) صاحب سياسة الوفاق ، تخلى الخديو عن الحركة الوطنية وأعطاها ظهره ، ووقع الخلاف بينه وبين مصطفى كامل فى أيامه الأخيرة ، ومحمد فريد من بعد ذلك ، وقد وقف (اللواء) والحزب الوطنى أمام الخصومة موقفا صامدا ، بينما تحول (المؤيد) والشيخ على يوسف مع الخديو الى مصادقة الانجليز .

هنا نصل الى موقف أحمد زكى من الحركة الوطنية فى هذه الفترة .. فقد كان أحمد زكى وأحمد شوقى وأحمد شفيق وعلى يوسف وحافظ عوض جميعا من رجال الخديو وأقلامه وألسنته .

فما كاد الخديو يظفر بالسياسة الودية التى حملها له « الدون غورست » من قبل بريطانيا ، حتى حول وجهه عن الحركة الوطنية التى كان يعضدها من قبل ، فليس شك أن مصطفى كامل والحزب الوطنى قد عاشا فترة طويلة فى ظل مؤازرة الخديو عباس لهما وذلك طوال حكم كرومر . وهو من ألد أعدائه . ولعل الخديو كان يظن أن سلوك هذا الاتجاه فى مقاومة بريطانيا يحقق له بعض

مطالبه ، ولعله لم يكن مخلصا فيه لمصر ، وآية ذلك انه ما كاد الانجليز يلوحون له بسياسة الوفاق ويطلقون يده حتى تخلى عن تأييده للحركة الوطنية وبدأ رجاله يهاجمون الحزب الوطنى وينشرون الأحاديث والتصريحات المختلفة فى الصحف فى هذا الاتجاه الجديد .

وكان أحمد زكى قد جرى فى هذا الخط الجديد مع الخديو الذى أفسح له المجال الى تمثيل مصر فى المؤتمرات الدولية وحقق له رغبته فى العمل الفكرى الذى أحبه ، فضلا عن أن مقاومة أحمد زكى لتيار الوطنية الذى كان يقوده مصطفى كامل ومحمد فريد لم تكن فى ذلك الوقت تمثل بالتحديد ذلك المعنى الذى نراه لها اليوم . فقد كان هناك أكثر من تيار يخاصم مصطفى كامل ويعارضه . ومن بينها تيار الشيخ محمد عبده وأتباعه وتيار الجريدة ولطفى السيد ومن لف لفهم . وتيار الشيخ على يوسف والمؤيد . وكان بعض هذه التيارات يتصل بالانجليز وبعضها يتصل بالقصر . وكان لهؤلاء مفاهيم ربما عبروا عنها بقولهم : ان الاحتلال البريطانى فى مصر لن تخرجه صيحات مصطفى كامل وان من الخير مهادنته والتفاهم معه والاستفادة منه . مع العمل المتصل فى مجال التعليم والتطور البطىء حتى تتحقق الحرية على مراحل .

ولا شك أن هذا الاتجاه لم يكن يمثل مشاعر الأمة ولا يعبر عن آمالها وأحلامها ، ولذلك فانه لم يجد استجابة شعبية واضحة وانما كان الدعاة له والقائمون عليه من أنصار الخديو أو السائرين

فى ركب بريطانيا . وقد وصفت هذه الدعوة بالتعقيل ، فى مقابل وصف دعوة مصطفى كامل بالتهييج السياسى .

غير أن أحمد زكى بالرغم من جريه فى هذا الاتجاه كان له موقفه من توحيد جناحى الأمة فقد ألقى محاضرة جعل عنوانها (مصريون قبل كل شيء) فى احدى الجمعيات المسيحية صور فيها مدى ترابط المسلمين والمسيحيين ودعا الى الوحـــدة بين عنصرى الأمة وذلك عنـــدما بدأت مؤامرات الاستعمار تفرق صفوفهم وتبث بينهم الخلاف .

ولا شك أن أحمد زكى قد حمل لواء الحملة على الحزب الوطنى وهاجم محمد فريد وأعوانه بعد وفاة مصطفى كامل فى فبراير ١٩٠٨ وكان الهدف هو تأكيد مركز الخديو واضعاف الحركة الوطنية التى تطالب بالجلاء والدستور .

وكان من نتائج هذه السياسة ما نشره أحمد شوقى (الشاعر) وحافظ عوض صاحب جريدة المنبر — اذ ذاك — وأحمد زكى وغيرهم من أعوان الخـــديو من كلمات فى الصحف يندون فيها بساسة الحزب الوطنى ويسمونهم (دعاة الهوس والجهـــل) وما نشره المنبر منسوبا الى الخديو من قوله انه لا دستور بغير موافقة الانجليز وكان هؤلاء يدعون الى الاصـــلاح الداخلى ونشر التعليم كبديل للمطالبة بالدستور .

ونشرت جريدة المنبر كلمات متعددة لأحمد زكى منها كلمة فى ١٦ سبتمبر ١٩٠٨ موجهة الى محمد فريد متمثلا فيها بقول القـــائل :

ان الرزازين لما قـام قائمهـا ‏ ‏ ‏ تصورت انها صارت شواهينا

وقد حملت جرائد الحـزب الوطنى على أحمد زكى حملة شعواء ونشرت المنبر شعرا موجها الى أحمـد زكى جـاء فى مسـتهله

شر البلية أن يكون زعيمـا ‏ ‏ ‏ من لا يسالم فى الرجال كريما

عابوك اذ وجدوا صنيعك بارعا ‏ ‏ ‏ تشكو صوادع جمة وكلوما

كثرت سـهام الرائشين وانما ‏ ‏ ‏ أرسلت سهمك نافذا مسموما

هو ما علمت فلا تقم«للوائهم» ‏ ‏ ‏ وزنا ولو ملأ البـلاد هزيما

وقد حاول أحمد زكى أن يواجه الحركة الوطنية فى الجامعة المصرية فى أول نشأتها وكان سكرتيرها العام ، وروح الوطنية مشتعلة متقدة ، والانجليز الذين عملوا على ايقاف مشروعها الذى دفعته الأمة والحزب الوطنى الى الأمام بقوة ، يحاولون أن يبعدوها عن السياسة ما استطاعوا ، وكذلك كان يرغب الخديو عباس .

وكان أحمد زكى قد انتهز فرصة توديع أول فوج من الطلبة المسافرين الى أوربا أو (الارسالية الأولى) كما كانوا يسمونها اذ ذاك فى ١١ سـبتمبر ١٩٠٨ ، فألقى فيهم خطـابا طويلا فى الاسكندرية عن تاريخ هذه المدينة وفضل العرب على الحضارة ، ودورهم فى العمل لاسترداد مجد مصر ، « لا بالكلام والصياح ، بل بالعمل المؤيد بالحزم » ودعا الى مساعدة الجامعة ، وأشاد بالتعليم العالى ، وأنحى باللائمة على الجهل وعدم الالمام الكافى بالقراءة ، ومما قاله فى خطابه :

« كثرت الأحزاب فى مصر وكلها يقول بوجوب التعليم قولا

باللسان ، وكلها تصدر بروجراماتها بأنها تسعى لنشر التعليم ، وفى كل يوم يولد حزب حديث ، وانما هو خزى جديد » .

وعلى أثر ذلك قامت الضجة فى صحف الحزب الوطنى الذى اعتبر هذا الكلام موجها اليه ، وقالوا ان عبارة « فى كل يوم يولد حزب حديث أى خزى جديد » انما يراد بها الحزب الوطنى .

وأصدر أحمد زكى بيانا ضافيا ، أطلق عليه عنوان « الى محكمة الرأى العام » ذكر فيه موقفه مما اتهم به ، وأنكر أنه مسخر من الاحتلال للعمل على الأضرار بالجامعة والقضاء عليها قضاء مبرما ، وقال فيما يتعلق بالهجوم على الحزب الوطنى : حاشاى أن أصف الحزب الوطنى أو غيره من الأحزاب الكبرى بهذه العبارة » .

٣ — أما الأزمة السياسية الكبرى التى واجهها زكى باشا فهى تولى فؤاد بن اسماعيل الملك ١٩١٦ ، فقد كان الخلاف بينهما قديما منذ انشاء الجامعة سنة ١٩٠٨ وكان فؤاد اذ ذاك أميرا فقيرا متأفقا ولم يكن يَنتظر أبدا أو يَتوقع أن يلى الملك لأنه ليس فى صف المرشحين له ، وكانت بينه وبين أحمد زكى باشا خلافات لعل مصدرها ما عرف عن أحمد زكى من اعتداد ، وما كانت له من صلات وطيدة بالخديو عباس ثم بالسلطان حسين .

فلما ولى فؤاد السلطنة ، كان هذا أمرا مزعجا بالنسبة لأحمد زكى السكرتير العام لمجلس النظار ، مما دعاه الى تقديم استقالته أكثر من مرة سنوات ١٧ و ١٨ و ١٩ ، لولا أن حسين رشدى باشا

رئيس الوزراء اذ ذاك كان يرده عن ذلك ، غير أن الأمور سارت الى غايتها الطبيعية ، ووقع عام ١٩٢١ ما كان ينتظر فتقدم (محمد افندى خاطر) من موظفى مجلس الوزراء باتهامه بالاختلاس والتزوير فى مبلغ يربو على ٧٠ ألف جنيه ، فأوقف عن العمل ، وأجرى التحقيق معه ، ثم ثبتت براءته من كل ما نسب اليه .

وهنالك تقدم باستقالته التى نشرتها الأهرام فى ١١ مايو سنة ١٩٢١ والتى جاء فيها : اليوم وقد ثبت للخاص والعام ، وبطريقة حاسمة لا تدع للحكومة مجالا للارتياب ، أننى كنت وما زلت بحمد الله حليف النزاهة والاستقامة ، فاننى لا يسعنى بعد خدمتى الطويلة سوى التفكير فى الراحة وطلب الاحالة على المعاش تحقيقا للأمنية التى سبق لى الاعراب عنها رسميا أربع مرات فى سنى ١٩١٧ و ١٩١٨ و ١٩١٩ والتى حالت نصوص القانون دون فوزى بها حينئذ ، أما الآن وقد وصلت الى السن التى تخول لى نيل هذا الحق بطريقة قانونية فقد أصبح أملى وطيدا .. » .

وكان أحمد زكى قد عين (سكرتير أول) لمجلس النظار فى ٥ مارس ١٩١١ براتب قدره ألف جنيه فى العام ، وذلك بدلا من قسطنطين قطة باشا وكان أول مصرى يلى هذا المنصب ، بعد أن استأثر به الأرمن طويلا .

٤ — ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل حاربه الملك فؤاد فى مكتبته الزكية التى كانوا قد أعطوه مكانا لها فى الباب الشمالى

لدار الكتب المصرية (مكان المطبعة الآن) فانتهز فرصة ايقافه فى ٩ يناير سنة ١٩٢١ وبعث اليه مدير دار الكتب (السلطانية) اذ ذاك خطابا فى ١١ فبراير ١٩٢١ يطلب اليه نقل مكتبته الى مكان آخر ، لوضع المطبعة التى اشترتها دار الكتب فى هذا المكان ، وأن نقل المطبعة يتوقف على اخلاء مكانها المشغول بالمكتبة الزكية ، وجاء فى الخطاب الذى كان أشبه بالانذار « اذا لم يكن من المستطاع ايجاد محل فانه من الممكن نقل خزانة كتبكم بعد جردها وعمل كشوف بمحتوياتها الى احدى الغرف العلوية من الدار ، ثم يقفل عليها » وقد حصلت على خطاب مطول رد به أحمد زكى على (انذار) دار الكتب بغاية فى العنف ومما جاء فيه قوله :

« توفرت على بذل كل ما فى وسعى لتكبيرها — أى المكتبة — وضحيت فى هذا السبيل النفس والنفيس ، وصرفت كل ما ادخرته لنفسى ولبنتى من بعدى وبعت كل ما أملك ، وهو خمسون فدانا بناحية تلا مركز طوخ قليوبية فبعد أن كانت المجموعة لا تزيد فى بداية الوقف على ألفى مجلد (منها ٣٠٠ مخطوط) أصبحت اليوم تضم (١٢ ألف مجلد) منها (ألفان ومائة مخطوط) والباقى تحت التدوين والفهرسة والفذلكة مما لا يقل عن ١٥٠٠ كتاب مطبوع ، ٧٠٠ الى ألف مخطوط ، وكان تأميلى ترك أثر لى فى بلدى .

وقال أن أكبر جناية هى اعدام مثل هذا الكنز النفيس ، وما كنت أظن أن الأم الرءوم (دار الكتب السلطانية) تعامل

ابنتها الصغيرة الوحيدة فى القاهرة (المكتبة الزكية) هذه المعاملة القاسية ، ولا سيما وقد استفادت الأم من جواهر تلك البنت فى طبع كتاب (صبح الأعشى) فقد استعارت الأم منها النسخة القيمة المنقولة بالفوتغرافيا ، وأكملت منها ما كان ناقصا فى نسختها هى .

وقال : اننى لا أرتضى ، لأنه حبس مالى عند غيرى بلا مسوغ، وحرمانى من الاستفادة من كتبى ، وأنا لا أعيش بدونها مطلقا .

وتساءل : لماذا يحصل ذلك ؟ ألأننى أردت خدمة بلدى فحبست عليها كتبى ؟ فتريدون أنتم أن تحبسوا كتبى عنى وعن الناس ، ذلك خارج عن حقكم ، وعن حق كل انسان وكل هيئة .

وقال ان فى مكتبته ما لا يوجد فى دار الكتب ، فان بها ثلاث مكانس كهربائية ثمن الواحدة لا يقل عن ٦٠ جنيها ، وليس فى دار الكتب واحدة ..

وغضب لأن مدير دار الكتب خاطبه باسمه بدون ذكر وظيفته : سكرتير مجلس الوزراء ، أو صاحب الخزانة الزكية وقال : عليكم أن تفهموا أننى (أحمد زكى باشا) سواء كنت فى الوظيفة أو خارجها ، وأن خدمتى فى المشارق والمغارب لأمتى وللغتى ولآدابها وعلومها ومعارفها لا يخفى على أحد وليس لأحد أن يخفيها ، فاذا افتخر أحد بوظيفته فاننى أفتخر بعملى الذى هو التاج الباقى لاسمى .

فى مجال العمل السياسى الحر

وما ان استقال أحمد زكى من وظيفته حتى انطلق الى مجال العمل السياسى حرا طليقا ، وظهر بوضوح اتجاهه العربى ، فقد بدأ على أثر ذلك رحلاته الى الشام ، وزيارته لبيت المقدس . وكتاباته فى الأهرام ، وكشف عن دعوته الى تجديد مجد الأمة العربية ، وحاول أن يتصدر فى مجال الزعامة العربية السياسية الى جوار زعامته الفكرية فوثق صلاته بزعماء العرب والاسلام فى كل مكان ، فما من زائر منهم جاء القاهرة الا وكانت قبلته (دار العروبة) فى الجيزة على النيل يقيم فيها احتفالاته ومآدبه ، ويلقى فيها الخطب الرنانة والقصائد ، ويدعى اليها كل الوافدين على مصر من أعلام سوريا والعراق والحجاز والهند والترك والفرس .

ومن هذه الندوات بدأت دعوته الى « الرابطة الشرقية » .

وكان أحمد زكى معروفا فى أوائل حياته السياسية بالدعوة الى « مصريون قبل كل شىء » حيث دعا فى عام ١٩٠٨ الى ترابط المسلمين والمسيحيين فى مجال الوطنية ، وله فى ذلك رسالة كان ألقاها محاضرة فى جمعية الرابطة المسيحية ونشرتها المقطم فى ٢٧ مارس ١٩٠٨ ، وطبعت فى كتاب ، ولكنا لم نعثر عليها فى دار الكتب .

ثم دعا بعد ذلك الى « العروبة » ، ودعا الى « الرابطة

الشرقية » ، وكان مع ذلك عضوا فى المحفل الماسونى ؛ وفى جمعيات وهيئات متعددة .

وفى الداخل — ومن أجل محاربة الملك فؤاد — كان متصلا بالوفد ، وكان عدوا لدعوة الخلافة التى كان فؤاد يحتضنها ، ومن أجل هذا كانت سقطته المعروفة بمبايعة الشريف حسينا بالخلافة فى ١٠ مارس ١٩٢٦ ببرقيته المشهورة « أهنىء العرب والشرق برجوع قريش الى الحياة العملية لاعادة الاسلام سيرته الأولى على يدى سيدى ومولاى الخليفة الأعظم الحسين بن على أيده الله ، ووفقه لاحياء هذا المجد العظيم » .

وقد أعلن رأيه فى الخلافة (١٤ أيار ١٩٢٦) فى جريدة فلسطين قال : « ان الخلافة كانت صالحة يوم كان العرب كتلة واحدة وقد انقسموا فأصبحت عديمة الجدوى لا سيما وأن معظم الممالك الاسلامية تسيطر عليها دول أجنبية حرمتها من استقلالها ولا يوجد من تصح مبايعته بالخلافة اليوم ، وانى أعتقد بأن مندوبى المؤتمر سوف لا ينادون بالملك فؤاد خليفة للمسلمين ، وأنهم اذا انتخبوه كان عملهم بعيدا عن الحكمة ، وقرارهم غير عملى ، لأن الخلافة منذ القرن التاسع أصبحت رمزا أكثر منه حقيقة » .

٢ — ولقد كان سعى « أحمد زكى » فى سبيل التبريز والشهرة دافعا اياه الى اندفاعات سريعة عاطفية وعصبية متعددة شمالا ويمينا ، ارضاء لرغباته وتطلعا الى الحديث عنه .

وقد شغل أحمد زكى نفسه بالعمل السياسى خلال الفترة

الأخيرة من حياته (١٩٢١ الى ١٩٣٤) ، ولو قصرها على عمله الفكرى وحده لأعطاه ذلك فوق ما يطلب من الشهرة والتبريز . ولكنه كان طموحا متطلعا الى الزعامة ، وقد تحقق له ذلك على نحو بلغ به القمة ، عندما أسفر بين الامام يحيى والملك عبد العزيز فى خلافهما عام ١٩٢٦ ، فقد نجحت الوساطة وكان ذلك نصرا كبيرا ، وقد أتيح له خلال هذه الزيارة أن يلبس العقال والمشلح وتؤخذ له صورة فوتغرافية على هذا النحو ، ويطلق عليه لقب «شيخ العرب» فتمسك بها حتى آخر حياته ، وأصبح اسم « شيخ العروبة» مرادفا لاسمه ، تتصدر به المقالات التى يكتبها ، فتنشر الأهرام تحت عنوان مقاله « بقلم شيخ العروبة » بعد أن كانت تنشر « بقلم العلامة » ويوقع هو مقالاته (عن دار العروبة) بعد أن كان يوقعها (عن جيزة الفسطاط) وكانت قضية فلسطين أيضا مجالا ضخما للتبريز ، فقد شغل نفسه بها شغلا جما ، وأتيح له أيضا عن طريق « الرابطة الشرقية » أن ينتدب لتحقيق تنازع العرب واليهود على حائط المبكى وهو ما أطلق عليه يومئـذ (قضية البراق) فأدى واجبه وبحث المسألة بحثا تاريخيا ، وكتب تحقيقا شاملا باللغة الفرنسية ، بهر به أعضاء اللجنة التى أرسلتها عصبة الأمم للتحقيق :

وتعد قضية اليمن وقضية فلسطين أبرز أعماله فى مجال العمل السياسى العربى .

٣ ـــ الرابطة الشرقية :

وما أن خلّف أحمد زكى أعباء الوظيفة حتى بدأ عمله فى سبيل الدعوة الى الرابطة الشرقية العربية ، فأعلن فى حفل حاشد فى دار ميرزا مهدى مشكى (فى ٢١/١١/٢٦) .

« اننى أرى فى حفلنا هـذا العربى والفارسى ، والتركى والهندى والأندونيسى . واستمع الى اللهجات المختلفة من مصرية وسورية ومغربية من أبناء العربية الى جانب الفارسية والتركية والهندية ، تتجاوب أصداؤها بالتحنان الى جمع الشمل ، والكل يعيش فى جنبات هذا الوطن ، وتحت سماء هذه العاصمة الفاتنة ، ولا تربطكم آصرة التعارف ، مع أن الجميع من صفوة أبنـاء الشرق ، وحملة ألوية نهضته .

لم لا تؤسس رابطة شرقية تجمع بيننا أولا ؟ ثم هى غدا تصبح جامعة بين أممنا الشقيقات ، اذ لا نزاع أن الشرق سيظل شرقا بيمنه وبركته ومفاخره .

اننى أرى أنه من الخير لمصر أن تكون رأسا لشـقيقاتها وجاراتها من بلاد الشرق وأمم العروبة من أن تكون ذنبا لبلاد الغرب وأممه » .

وما ان بدأ العمل لتكوين « الرابطة الشرقية » حتى كان أحمد زكى على حد تعبير الشيخ التفتازانى روح الرابطة وقد تم تأسيسها بداره فى ٩٢٢/١/١٧ ومن أجل هذا انتدب للوساطة بين اليمن والحجاز وتصدر قضية البراق ، وهما قمة مجده فى ميدان العروبة .

وقد كان زكى باشا مؤمنا بارتباط الأمم الثلاث : الفرس والترك والعرب ، وقد دعا الى توثيق الاتصال التام .

يقول : أنا أرى أن الثقافة التركية قد دخلت فى طور جرىء جديد ، وأنا أرى الفارسيين يتحفزون ، بل قد تواثبوا بالفعل لاسترداد مجدهم الصميم القديم .

أما أبناء العرب فهم عاملون على تقطيع أوصال الأغلال التى قيدهم بها الاستعمار فى كل الجهات الا جهة واحدة ..

وأنا أرى أنه لا مندوحة من فوز العرب بالمرام اذا نبذوا الشقاق وعادوا الى الوحدة والاتحاد .

وعقيدتى أن كل أمة من الأمم الثلاث ينبغى لها أن تعمل لنفسها ولحسابها الخاص ، دون أن تربطها أمة أخرى ، أو أن تشل حركتها ، أو أن تتشبث بها فتعوقها وتعوق نفسها عن السير الى الأمام .

وهكذا تتجاذب الرابطة الشرقية الى ما فيه النفع المؤكد ، لأفرادها ومجموعاتها وبهذا التجاذب الذى لا مناص منه يتألف فى الشرق الأدنى كتلة جبارة يمكنها أن تقف فى وجه الاستعمار الأوربى بحيث يرى من مصلحته الحيوية أن يعامل الشرق معاملة النظير ، وبهذه المثابة تعود الثقافة المثلثة (العربية — الفارسية — التركية) الى ما كان لها من رجحان وتتجدد لتلك الطبقة الراقية من أكابر الرجال العارفين بالثلاث لغات [1] .

---

(١) الأهرام — ١٩٢٥/٥/٢٥ .

٤ — والقومية العربية :

وفى نفس الوقت كان زكى باشا ينادى العرب الى اليقظة والوحدة :

« ان العرب قد صدمتهم الحوادث فى هذا العهد الأخير صدمة شديدة تنبهوا لها ، وتفزعوا من هولها ، صـــدمة لا يضارعها فيما نعلم سوى تلك الهزة التى أيقظت سلالة الرومان ، فأهابت بهم الى العودة الى الحياة ، فلعلنا ، ولعلنا يا معاشر العرب نثابر فى هذه النهضة الحديثة حتى نسترد قليلا قليلا ما كان لأسلافنا من السيطرة والرجحان ، ونستعيد مقامنا المحمود فى مجموعة الأمم والشعوب ، فلسنا ورب الكعبة أدنى كعبا من الشعوب ، ولا أقل فى المواهب من ذرارى الرومان الذين تدلوا مثلنا الى الحضيض ، ولكنهم بفضل ضربات الزمان قد استفاقوا ، ثم نفضوا غبار الجهل والعبودية ..

هذا العاجز الذى أخذ على نفسه تنبيه العرب الى مفاخرهم وتذكيرهم بما كان لأجدادهم ، مما يزيد فى احداث هذا الأثر الحميد ، ومما يقرب الأوان لاجتناء ثمراته الشهية .

٥ — ولا يقف زكى باشا عند لقاء الشرقيين والعـــرب ، بل يحتفل بالباحثين والمستشرقين الأجانب ، ويدعو للتعارف بهم أعلام مصر والعرب . ويتحدث اليهم ، وقد أتيح له أن يجمع من المستشرقين :

مرجليوث وسقورث ، ويهود وليتمان ونلينو ، وجويدى ،

ودعا معهم شفيق باشا ، ورشيد رضا ، وعبد الرحمن شهبندر ، وأحمد شوقي ومطران ومرزا رفيع ، وحافظ رمضان ، والتفتازاني والزنكلوني ، وفريد رفاعي ، وسيد كامل ، وفهمي العمروسي ، وتوفيق اسكاروس ، ومحجوب ثابت ، وابراهيم جلال ، وداود بركات ، وهدى شعراوى ، ومي زيادة ، وسيزا نبراوى ، واحسان أحمد ، وألقى فيهم خطابا ضافيا صور فيه هدفه من هذه الاجتماعات المشتركة بين أعلام الشرق والغرب قال :

أنتم تعلمون أنني أغتنم كل فرصة سانحة لأكون واسطة للتعارف بين أكابر الافرنج وأفاضل العرب ، ولى فى ذلك مطمع بعيد المدى ، هو أن يكون هذا التفاهم سببا فى خلق جو جديد من الصفاء والوفاء ، بين الشرق والغرب .

هذه الغيوم التى نشكو من تواليها ، لابد لها من الانقشاع ، وتلك الارهاقات التى نعانيها من سياسة البطش والاستعمار لا مناصر لها من التبدد والزوال .

أما الامتيازات الأجنبية التى تجعل أكبر عزيز فى بلادنا مهانا فى عقر داره ، ومهضوم الحق بازاء الأفاقى الطارىء عليه ، فقد انقضى زمانها ، هذه الامتيازات هى العقبة الكبرى فى سبيل التفاهم بيننا وبين أوربا لأنها أكبر مسبة لكرامتنا القومية ولماضينا المجيد .

ولا دواء لهذه العلل الفاشية الا عن طريق أهل الرأى المجردين عن الهوى وهم أفاضل الافرنج ذوو الأخلاق الطاهرة ، والضمائر الحية ، أولئك الذين لا تعميهم مصالحهم الشخصية .

هؤلاء المستشرقون والمستعربون هم القــــادرون على بث الدعوة بين قومهم ليحملوهم أخـيرا وبعد تمادى الزمان عــلى الإعتراف بأن العرب جديرون بأن يتبوأوا مركزهم تحت الشمس، لأنهم على الأقل مساوون ببعض الأمم العائشة فى النصف الشرقى من أوربا .

مفروض عليكم أن تتضافروا فى تحقيق الأمانى الكبار التى يتطلع اليها أبناء الشرق على العموم ، ويحن اليها العرب بنوع خاص .

مفروض عليكم أن تتضافروا لتحقيق هذه الغاية بقلوب يعمرها الايمان بحقوق الانسان على الانسان .

مفروض عليكم أن تتعاونوا هنا وفى ما وراء البحار على تهيئة الرأى العــام لادراك هذه الحقيقة التى نفعت الحلفاء فى أيام الحرب ، والتى سيحتاجون اليها بلا شك كلما تجــدد الخطب واشتد الكرب .

مفروض عليكم أن تتواصلوا بالفعل والعمل الى المجــاهدة فى ديار أوربا وأمريكا حتى يعترف أهلوهما بأن العرب جديرون بالرعــاية والاحترام ، جديرون بالحــرية الصحيحة ، جديرون بالاستقلال التام .

ولى كل يوم موقف ومقــــالـــة

أنادى ليوث العرب ويحكموا هبوا

٥ ــ دار العروبة :

وأضحت دار العروبة قبلة لأعلام العرب والاسلام من كل مكان « ترى فى داره البدوى والحضرى ، والهندى والصينى ، والتركستانى والتكرورى ، يأتون اليه من كل فج يستطلعون أحوال المسلمين خاصة » .

يقول الدكتور أحمد عيسى ، وهو ممن شهد هذه الندوة « صادفت فى بيته يوما من الأيام جماعة من الأعراب من جـوف الصحراء الكبرى ، الذين ينقلون التجارة على ظهور الابل بالقوافل ما بين مصر وواحة الأدرار وشنقيط حتى يبلغوا بلاد السنغال .

وسمعت من هؤلاء أن اسم أحمد زكى يعرفه جيدا أهـل الصحراء ، وسكان الواحات المنتشرة فيها ، ولا ينسون دفاعه عنهم فى كل ما تسنح له الفرصة ، وكيف دافع عنهم عندما كتب السائح الافرنجى مزاعمه عنهم .

وقال الدكتور أحمد عيسى عن بيت زكى باشا أنه منتدى ، فى كل ليلة يجمع حفلا عظيما من الزائرين ، من العلماء والمستفيدين الذين يسترشدونه فى المسائل العلمية ، وانه كان يمد سـماطه العربى الحاتمى المضروب به المثل ، وما سمعت يوما أنه تناول غداءه أو عشاءه الا اذا كان مريضا فى فراشه وولائمه يصل فيها المدعوون غالبا فوق المائة .

وقد شغل أحمد زكى نفسه فى خلال هذه المرحلة من حياته بقضايا الأمة العربية ، وكتب كثيرا عنها ، وعندما جرى الحديث عن جزائر البحرين ، وهل هى تابعة لايران أو لبريطانيا ، غضب

وثار وكتب يقول : [1] غريب . غريب أن يحتد الجدال ، وأن يحتدم الخصام بين لوندرة وطهران : على .. على شيء هو عربي صميم ..

ما بال هؤلاء الأفاضل فى الشرق وأولئك الأماثل فيما وراء البحر يختلفان فى أمر ليس فيه لأحدهما فتيل ، ولا للآخر قطمير ؟

انهما يختصمان على حطام من البقايا التى تركها لنا جدنا الأكبر « يعرب » هذه مجموعة من الجزائر واقعة على الضفة الغربية للخليج الفارسى ، وداخلة فى أحضان الأرض العربية المحضة ، هى اذن عربية فى موقعها ، واصالتها ، عربية بجلالها فى الماضى والحالى ، ومع ذلك تتعاظل [2] لوندرة بسببها مع طهران ، وهى لا فارسية ولا انجليزية ، بل عوان بينهما .

انتا لا يسوغ لنا فى مصر أن ننسى اخواننا البحرانيين وهم ..

ويهاجم فرنسا فى مواقفها مع سوريا :

[3] يا فرنسا يا فرنسا : هل تعلمين بما يقترفه أذنابك فى بلاد الشام ؟

بعينى رأيت ، بأذنى سمعت ، بقلبى أحسست ،

أما الحرية فهى محظورة على الناس ، أما المساواة فحديث

---

(1) الأهرام — ١٩٢٩/٢/٢٢ .

(2) تتعاظل : بمعنى تختلف أو تتعارك .

(3) الشورى — ١٩٢٥/١٠/٢٩ .

خرافة ، وبقى الاخاء كلمة جوفاء ، لا معنى لها الا التفريق ، وبذر سموم الأحقاد .

ويكتب مرة أخرى فيقول [1] : بين فرنسا وانجلترا تنافس فى السلب والنهب ويثور من أجل ما يلاقى أهـل السويداء فيصرخ : يا ساكنى السويداء وأنتم فى سويداء قلبى [2] .

---

(١) الشورى ١٨/٣/١٩٢٦ .
(٢) الشورى — ١/٤/١٩٢٦ .

رحلة اليمن

سافر زكي باشا الى اليمن مع صديقه نبيه العظمة عام ١٩٢٦ ، من أجل التوسط في الخلاف بين الامام يحيى وابن السعود فقصدا الى اليمن أولا . ثم قصدا الى الحجاز واستطاعا أن يأخذا موثقا على الامام يحيى ألا يبدأ ابن سعود بشر .

وفي مكة أخذا موثقا مماثلا من ابن سعود .

وقد صور رحلته في أكثر من مقال وبحث وجريدة ، وأثار ضجة كبرى برسائله وبرقياته ومقالاته : يقول :

« تأهبت[1] للسفر الى اليمن ، منتدبا نفسي من قبل نفسي ، لا عن هيئة ولا عن جماعة ، ولا عن حكومة ، وقد بدأت ببلاد اليمن قبل الحجاز ، ليقيني بأن الترضية واجبة كل الوجوب لأهل اليمن من (الزيود) [2] على الوهابيين ، وذلك بسبب ما نزل بقافلة الحجاج اليمنيين من قبل النجديين لهم ، قصدا أو بغير قصد .

« ولكي أحتفظ أنا وصديقي بكرامتنا الشخصية وكرامة بلادنا ، أخذنا معنا هدايا وفيرة لجلالة الامام يحيى ولكبار أعوانه ،

---

(١) الهلال أول يوليو ١٩٢٩ .

(٢) نسبة الى الأئمة الزيدية .

لأننا تأكدنا أنه ليس فى صنعاء فندق ولا خان ولا وكالة ، وهم يسمونها « سمسرة » مما يكن لغريب أن ينزل فيه ، ووجدنا أنه لابد من النزول على ساحة الامام ، فأردنا بهذه الهدايا أن نكون خفيفى الظل وأن يكون لنا مجال واسع فى أن نقول للامام كل ما تمليه علينا العروبة .. » .

وقد أسرع أحمد زكى بتوجيه خطاب لاصلاح ذات البين بين الملكين بمجرد ركوبه الباخرة نشرته الصحف :

الى الأعارب ، فى المشارق والمغارب » .

عن ظهر الباخرة جنوى ٢١ يوليو ١٩٢٦ ، فى هذه الساعة تقتحم البحر الأحمر الذى كان مصدر المجادة لأمتنا ، ومنبع السعادة لأجدادنا ، حينما كانت الكلمة متحدة والغاية واحدة ، ذلك البحر الذى أصبح اليوم وليس لنا فوقه راية ، ولا فى مصيره رأى ، منذ تخاذل العرب ، وانقسموا على أنفسهم ، فى هذه الساعة العصيبة نستقبل أرض اليمن ، معتمدين على الله دون سواه ، ومدفوعين بعاطفة العروبة وحدها ، لانذار قومنا بالخطر الداهم ، فلعلنا بتوفيق الله وبحسن نيتنا الخالصة لوجه الله دون سواه ، تتمكن من حسم أسباب النزاع بين القطرين الشقيقين .

ان روح العروبة تناجينا عند دخولنا فى بحر العرب » .

يقول الدكتور أحمد عيسى ، انه فى أثناء مقامه بصنعاء أخذ له رسم فوتغرافى وهو فى ملابس شيوخ الأعراب ، فأراه لسيف الاسلام على نجل الامام يحيى وقال له من هذا ؟ فقال سيف الاسلام : هذا شيخ العرب ، فقال زكى باشا : بل شيخ العرب

والعجم ، والترك والديلم ، وجاء وهو متمسك بلقب شيخ العروبة ..

ويقول أحمد زكى : لقد كانت لى فى كل مكان نزلت فيه كرامة خاصة ، لأنى من الأشراف فأنا كما تعرف (حسينى) وقد ساعدنى هذا الشرف على دخول المساجد ، والتنقيب فى الآثار ، حتى ولو كانت فى محراب الجامع [1] .

---

(١) الهلال ــ مارس ١٩٢٧ .

قضية فلسطين

كانت فلسطين أبرز القضايا السياسية التى عاشها زكى باشا بقلبه واحساسه وعواطفه . ربما كان للصلات والروابط الروحية بالمسجد الأقصى أثرها فى نفسه وربما كان من أجل قرابته ، فهو من بيت النجار من عكا ، وكان يخفى ذلك ولا يقوله لأقرب الناس اليه [1] .

وقد جعل من فلسطين شغله الشاغل ، وشارك فى العمل لها ، وكان أول أسفاره بعد اعتزاله خدمة الحكومة الى بيت المقدس حيث أمضى بها شهورا . ثم عاودها فى زياراته المتصلة للشام ، وكانت له صلات وثيقة بزعمائها .

وقد كشف عن عاطفته نحوها فى عديد من كتاباته المبكرة .

« ما فلسطين عندى الا فرع ذكى من تلك الدوحة الشقيقة « الشام » وما الشام فى نظرى سوى تلك البقعة المباركة الممتدة من جبال العلايا (طوروس) شمالا ، الى شجرتى العريش جنوبا ، ومن ضفاف الفرات الى شطوط البحر الأبيض المتوسط .

أما ما فعلته أحداث السياسة العصرية من تقطيع أوصالها

---

(١) ذكر خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام فى ترجمة لأحمد زكى قوله : سألته عن أصله فقال عربى من بيت النجار من عكا ، وما كان يريد أن يذكر هذا عنه وهو حى .

وتشريح جثمانها وتقسيم كيانها الى دويلات ودويلات كثيرة العدد ، قليلة المعنى ، فذلك أمره الى الزوال قريب ، لأنه مناقض للطبيعة .

لقد مزق الغرب أوصال هذه الأمة المجيدة التاريخ ، النقية الصفحة ، ثم تغلغل فى صميمها ، وسد عليها طرقها ؛ فأصبح أفرادها فى جميع البقاع ، وهم مستعبدون فى بلادهم .

غير أن الهزة العنيفة التى صدمها بها أهل أوربا قد وصلت الى منتهاها ونحن نحمد الله عليها فانها أعادت لنا الشعور بما توارثناه عن أجدادنا من التضامن لدفع عادية الغريب [١] » .

ثم واصل كتاباته للغوث والمناداة ، وفى سنة ١٩٢٩ كتب مقاله الثائر :

اسمعى يا مصر اسمعى ، فالمسجد الأقصى يستغيث [٢] .

وفى عام ١٩٣٠ قام بعمله الكبير فى هذا المجال ، حيث انتدبته الرابطة الشرقية — التى هو مؤسسها — لتحقيق مسألة البراق ، والدفاع عنه أمام اللجنة التى انتدبتها (عصبة الأمم) للتحقيق ، والتثبت من حقوق المسلمين فى جدار المبكى ، وهو أحد جدران المسجد الأقصى .

وكان من نصيبه القسم التاريخى من الدفاع ، يقول الأستاذ التفتازانى :

---

(١) جريدة الشورى : ٢٢ اكتوبر ١٩٢٤ .
(٢) الأهرام : ١٩٢٩/١١/١٧ .

« كنت أظنه سيقصر دفاعه على ما تضمه الوثائق التى يستند اليها المسلمون فى اثبات حق لا نزاع فيه ، ولكنه أخرج للناس سفرا ضخما فى لغة فرنسية بليغة ، حيث رجع بكل فصل من فصول بحثه الى أمهات كتب التاريخ الأوربية .

وكان يقضى أكثر ساعات الليل والنهار فى المكتبة ، ثم يدفع بما يكتب الى من ندبه لتحرير مذكراته على الآلة الكاتبة ، ثم هو يواصل الكتابة بهذه الطريقة دون أن يرجع الى ما انتهى اليه من قبل ..

ولم يحدث مطلقا أنه فقد ارتباط العبارات ، وتوازن الكلمات ، بل يقول لكاتبه : اشتغل ولا تتعب نفسك بالمراجعة ، فان كل حرف تخطه يمينى هو مصور بارز فى ذاكرتى .

وقد أصابه ضغط الدم فى أدق ساعات اشتغاله باعداد دفاعه ، وارتفع الى درجة كبيرة ، فألزموه بالانقطاع حتى عن رد التحية .

وبقينا حول سريره الى ما بعد منتصف الليل حتى هجع واستغرق فى النوم ، ونهض قبل الشمس ودوى صوته القوى ، وهو يضرب بيده أبواب غرفنا قائلا :

« ألا أيها النوام ويحكم هبوا .

انه يوقظنا نحن الذين سهرنا عليه ، أيقظنا لنشتغل معه ، أو على الأقل ليقوم أحدنا مقام الكاتب حتى يحضر » .

فلما حدثناه عن ضغط الدم ضحك وأغرق فى الضحك وقال :

« ان ضغط الدم يرتفع عندى اذا تأثرت من أعماق فؤادى ثم هو ينخفض اذا خفت وطأة التأثر ، وزال الانفعال .

وقد تأثرت حين وصلت فى دفاعى الى نقطة تسامح المسلمين ابان قوتهم وازدهار أيامهم ، واعتدادهم بعظمتهم ، بينا هم الآن تجحد حقوقهم ، ويظلمون لأنهم ضعاف متخاذلون » .

* * *

ثم مثل أحمد زكى أمام اللجنة ، وألقى بحثه الطويل الدقيق باللغة الفرنسية وبطـريقته الخطابية البارعة ، واسـتهله بهذه العبـارات التى تكشف عن ايمـانه بالعروبة وحق فلسطين فى البقاء :

« باسم الحق الذى ينشد أهل العدل المنزهين عن الأغراض أبداً ، أحيى هذه اللجنة بتحية الاسلام فأقول لها : سلام سلام ، وأمام هذه اللجنة التى نرجو أن تكون من بواعث ايجاد السلام فى هذه المدينة « مدينة القدس » مدينة السلام ، أبداً قبل كل شىء ، وأختم بعد كل شىء بأننى باسم المسلمين الذين تفضلوا وشرفونى بالنيابة عنهم ، من ضفاف المحيط الهادى الى شطوط المحيط الأطلنطى ، ومن أقاصى الشمال الى نهاية المعمـور فى الجنوب ، وحينئذ فلى الشرف الذى ليس بعده شرف أن أتكلم باسم الأربعمائة مليون مسلم ، المنتشرين فى كل بقاع الأرض ، فباسم هـذه الكثرة الكبيرة المتضامنة على الاحتفاظ بحقوقها الأبدية الثابتة ، وبمخلفاتها المقدسة ، أتقدم الى اللجنة بتصريح

ابتدائى أساسى هو أننى مع الزملاء أقول قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء :

ان الأمة الفلسطينية أعلنت رسميا عدم اعترافها بالانتداب البريطانى ، وهى لذلك لا تريد أن تتقيد بأى نظام مستمد من ذلك الانتداب أو الاقرار بأية نتيجة ترجع الى ما يسمى بوطن قومى يهودى .

ويقرر المسلمون أن النزاع على ملكية أماكن العبادة ، أو على حقوق مدعى بها على هذه الأماكن ، يجب أن يرجع الى الهيئة المختصة دون غيرها فى الفصل فى أمر الوقف والأماكن المقدسة ، وما عداها فهو غير مختص أصلا ، لعدم وجود حق له فى ولاية الحكم على هذه الأماكن » .

ومع التمسك بهذين التحفظين أتشرف بعرض ما يلى على مسامع اللجنة والعالم كله .. » .

ومضى زكى باشا يدلى بتقريره التاريخى العلمى الرصين .

وقد أمضى فى فلسطين شهرين ونصف الشهر .

ومن يومها توالت صيحات أحمد زكى ، فهو يخطب فى صيدا فى نساء العرب فيقول لهن : علمن أطفالكن احتمال المكاره والمشاق والرماية ليكونوا أبطالا .. » .

ويعود الى القاهرة فيواصل اتصالاته بزعماء العرب والاسلام ، مدافعا عن فلسطين . ويعقد احدى ندواته الضخمة

فى دار العـــروبة ، ويحضرها أعلام من كل دين وطائفة وجنس وشعب ، على حد تعبير الأهرام (٢٨/٩/١٩٣٠) ويخطب فيهم .

ثم يواصل معاركه فاذا جاء عيد الفطر كتب بقول « عيد وأى عيد ، بل حزن متجدد ومستديم ، ويلى عليك يا فلسطين » ثم يواصل لوحاته فى صحف مصر وسوريا وفلسطين ولبنان والحجاز فى كل مناسبة .

مع المستشرقين

تطلع أحمد زكى منذ شبابه الباكر الى التعرف بالمستشرقين ، وأخذ من أساليبهم ووثق اتصاله بهم دوما . فكانوا على صلة دائمة به ، وكان يطلعهم على كشوفه المتوالية فى مجال المخطوطات والتحقيق العلمى .

ولكنه كان معهم تلميذا وندا فى آن ، فهو يقدر بعضهم ويذكرهم بالخير ، ويعدهم من المنصفين من أمثال كرابسك ومولر وجولد زير وكوينزتفلد ..

ولكنه لا يجاملهم فى الرأى بل يقف منهم موقف الصراحة ، ولقد أفاد منهم زكى باشا نقطة البدء ، فأشعلوا فيه جذوة الغيرة على التراث ، وأججوا فيه دافع البحث والتحقيق العلمى ، فكان يردد دائما كلمة مشهورة : هل ننتظر حتى يدلنا المستشرقون على تاريخنا ؟ هل ننتظر حتى يطبعوا كل تراثنا ويحققوه .. ؟

هكذا كان يضعهم أمام نظره ، ويحاول أن يسبقهم فيحصل على ما حققوه ثم يحقق هو جانب آخر يطلعهم عليه فى ازدهاء ، وكذلك كان يفعل فى مؤتمراتهم وهو لا يتوقف عن حث المسلمين والعرب على العمل من أجل ذلك التراث ، واعادة هذه الذخائر التى نهبت .

يقول : « نحن اذا نظرنا الى أهل المشرق والى العلماء

المشرقيين ، نراهم جميعا يتهافتون على الوقوف على كل ما له ارتباط بالحضارة الاسلامية ، ولا شك عندى فى أن الحظ الأوفر فى هذه النهضة المباركة ينبغى أن يكون لمصر ان لم تكن هى القائدة لحركتها ، المدبرة لشئونها ، وذلك نظرا لمركزها العلمى ولما كان لها من الأيادى البيضاء على العلوم والآداب .

.. ولا غرو أن المستشرقين الذين تفخر بهم المدارس الجامعة فى بريطانيا وسائر أوربا وأمريكا لا يألون جهدا فى العمل على نشر الكتب التى صنفها جهابذة العرب ، وبحثوا فيها عن شتى الخواطر والأوهام .

هؤلاء المستشرقون لا يزالون يدأبون على العمل فى التحصيل والدرس ، والبراعة فى التنقيب والبحث ، وبذلك يتيسر لهم أن ينشروا طائفة كبيرة من أمهــات الكتب العربية النفيسة ، وقد ترجموها فى بعض الأحايين الى لغاتهم ، وأن يتخذوها موضوعا لمباحثهم . كما يشاركهم قومهم فى الاستفادة منها ، وهم فى هذا المسعى يبثون فينا روح الأمل باسترجاع كنوز آدابنا الشرقية رويدا رويدا .

ومن المؤكد أن هذا الأمل لابد أن يدخل فى حيز الامكان ، ويتحقق فى عالم الوجود ، اذا ما أمدته مصر بالقسط الواجب عليها من المساعدة على احياء العلوم والآداب العربية » .

وهكذا يربط أحمد زكى صلته بالمستشرقين بالعمل الكبير الذى يتطلع اليه ، والذى عاش له : البحث عن المخطوطات النادرة

واعادتها الى مصر ، والتحقيق التاريخى والجغرافى واللغوى لكل ما تحتويه هذه الذخائر .. واذاعتها .

ولطالما عنى أحمد زكى بكل مستشرق يرد القاهرة أو المشرق، فيدعوه ويحتفل به ، فاذا تجمع عدد منهم فى مناسبة من المناسبات خطب ودعاهم الى أن يحملوا لبلادهم صـــورة منصفة ، وأن يقنعوا قومهم بعظمة مصر والعرب ، وحقها الكامل فى الحيــاة الحــرة ..

ولا يمنعه هـــذا من أن يهاجم المستشرقين الذين يحـــرفون تاريخنا ، عاملا دائما على كشف حقيقة موقف العرب وفضلهم على الحضارة ، وأسبقيتهم فى ميادين كثيرة ..

وهو ليس من الطبقة التى جاءت بعده من الباحثين الذين تابعوا المستشرقين مستسلمين فى كل آرائهم دون تحقيقها ، وفيها الخاطىء والمتعصب ، فاذا جاء باحث وحاول أن يغض من عمله أو يصفه بأنه متعصب للعرب ، دافع عن حقه وانبرى يقول :

« هل يراد بنا أن نسكت عن مفاخر أجدادنا وتترك الميدان لغربى مثل العلامة سيديو ، الذى أثبت اكتشاف « أبو الوفا البوزجانى » فيما يتعلق باختلافات القمر ؟ وأثبت أن العــلامة (تيخوبراهى) الدانيمركى انما نقــل أرقامه وحساباته بالنص والحرف ، واعترف علماء الافرنج لذلك الفلكى الاسلامى بالسبق الى هذا الاكتشاف البديع فضـــلا عن اكتشافاته الأخرى التى أثبتها العلامة (دلامبر) الفلكى الفرنساوى ، وقل مثله عن جابر

ابن حيان ، وعن ابن الهيثم وغيرهما من علماء العرب ، أم يريدون أن نترك لغيرنا اظهار مفاخر أجدادنا ..

قل لى بربك ماذا أفعل غدا وقد وجدت بعض علماء العرب قد سبقوا الى التفكير فى جاذبية الأرض وتكلموا عنها ؟ . أأسكت أم أتكلم ، انى اذا سكت كان سكوتى خيانة للأمانة العلمية ، واذا تكلمت عرضت نفسى لمثل هذه التهم السخيفة .

ثم ماذا أعمل بما أرشدنى اليه بحثى حديثا وهو أن الكندى الاسلامى قد اكتشف ورصد نجما من ذوات الأذناب ؟ هل نترك تحقيق هذه المسألة للأفرنج ونبقى عالة عليهم فى بيان مفاخرنا ؟

أفئن فتشنا عن آثار أجدادنا ، واهتدينا الى الأقل القليل منها أفيكون جزاؤنا مثل هذه التهمة الشنعاء ؟ ..

الحق أبلج والعلم أمانة ..

من الرسائل الزكية

ان رسائل أحمد زكى الى أصدقائه وعارفيه من باحثين وعلماء ومستشرقين فى مختلف أنحاء الأرض ، من أوربا والعالم العربى وآسيا وأفريقيا هى ثروة ضخمة لا شك تكشف جوانب عديدة فى تاريخنا الفكرى والسياسى والاجتماعى ..

ولكن أين هى هـــذه الرسائل ؟ لقد بحثنا عنها فى المكتبة الزكية فلم نجد الا رسائل قليلة انتفعنا بها فى صلب هذا البحث . وأغلبها يتعلق بالمكتبة أو مسائل عامة أو خطابات مرسلة منه الى بعض المسئولين عن مكتبة الاسكوريال أو تقارير فى هذا الشأن .

أما الرسائل المنطلقة من قيود الرسميات ، الجارية عـــلى السجية ، التى تختلط فيها المشاعر بالأبحاث ، والعواطف بالقضايا السياسية فهذه لم نجد منها الا هذا الجانب القليل الذى نورده هنـــا .

ونحن نعتقد أن هناك ثروة ضخمة من هـــذه الرســـائل فى مخلفات منزل زكى باشا (دار العروبة) وقد حاولنا ذلك مع بعض المتصلين بالأسرة ، غير أننا عجزنا فى الحصول على شىء منها .

وتعطى رسائل زكى باشا فى مجموعها صورة نفسه الطليقة الحرة ، وطابعه الجرىء ، وعواطفه المتدفقة ، وذكرياته الحلوة وايمانه بالعروبة والاسلام وصداقاته العميقة ..

— ١ —

الى رواد النادى الأدبى فى حماه :

حياكم الله وبيض بكم وجه العـرب ، وأحيى على أيديكم ما كان للأدب من دولة فى حلب ، وجعـلكم خـير خلف لذلك السلف .

فلقد تلقيت كلمتكم الشائقة فكانت بلسما لفؤادى العليل ، وتجلى له فى خلالها ومن ورائها أفق بعيد المدى ميمون الطالع .

لذلك كان من حقكم عندى ، وكان من واجبى لكم أن أبادر بأسعافكم على انجاز مشروعكم ، لأنه فرض عليكم ، وأعنى به احياء ذلك العصر الذهبى ، عصر سيف الدولة والمتنبى .

رجعت الى قماطرى وأضابيرى ، والى دفاترى وطواميرى ، فوجدت فيها كتابا شرعت فى جمعه وتأليفه وتنميقه منذ زمان طوال ، لا تقل عن العشرين من السنين ، ودونت فيه كل ما وقفت اليه ، واهتديت اليه من الشوارد التاريخية والفرائد الأدبية ، ليكون فى زعمى تكملة لكتاب (الأغانى) منذ عهد أبى الفـرج الأصبهانى الى أيامنا هذه ، واستدركت فيه مالم يذكره أبو الفرج عن نفسه وعما حدث فى نفس عصره ..

وأشرت فيه بشىء من التفصيل الى ما كان من عناية العرب وغير العرب بكتابه الحافل ..

رأيت فى مذكراتى مجلسا من مجالس (جعداء) تلك الأديبة الكاملة والمغنية البارعة ، وهى التى تزاحم على اقتنائها والاستئثار بها رجلان من أكبر رجالات التاريخ ، ومن أعظم زعماء الأمة العربية ، هما الوزير المهلبى فى بغداد وسيف الدولة فى حلب ، فكان الفوز من نصيب ابن حمدان .

فأنا أعلنكم باستعدادى لكتابة هذا الفصل لادماجه فى روايتكم (اذا شئتم) أو لموافاتكم بتفاصيله لتتصرفوا فيه .

أما اذا أردتم بيانات أخرى عن الحركة العلمية والأدبية والسياسية ، وعما جرى من الأحداث الخطيرة فى العلاقات الدولية مع امبراطورية الروم فأنا رهين الاشارة .

جيزة الفسطاط — ١٢ أكتوبر ١٩٢٤
٤ نوفمبر ١٩٢٤

— ٢ —

سيدى رئيس النادى الأدبى (حماه)

يا حسرتاه على الشرق وأشباله

أفكلما تحول نظرى الى مصر من أمصاره ، ارتد طرفى وهو حسير وعاد قلبى الكسير بسهم جديد يتكسر على ما سبقه من النصال .

أم هل أتاك حديث حماه ، التى كانت محمية فى عهد الغطاريف من بنى أيوب أولئك الذين جعلوها ميقاتا لحضارة الاسلام ومنبعا

لعلوم العرب ، ووعاء للكتب فى كل فن مطلب ، فها هى أيضا قد تناولها ما اعترى اخواتها الكثيرات ، فأقفرت معهن أو بعدهن من تلك الكنوز التى كانت تفيض على المشارق والمغارب بنفثات الصدور وثمرات المعارف .

والا فأين ، أين تلكم الخزائن العامرة التى كانت مفخرة المفاخر فى حماه ، وبهجة لحماة حماه والتى كانت تتعطر بتلاوتها الأفواه وتترنم بذكرها الرواة .

بل أين تلك الخزانة الثمينة التى توفر على جمعها السلطان أبو الفدا ، فخلد اسمه الكريم لا عن طريق النسب العربى والسلطان العظيم بل بتصانيفه البارعة فى التاريخ والجغرافيا ، والفلك والرياضيات ؟ ولقد انتفع بها الافرنج قبل أن يصل الينا بعضها عنهم .

فهذا كتابه فى الجغرافية قد طبعوه فى باريس ، ثم ترجموه وشرحوه بلغة الفرنسيس وعن طريقهم — دون سواهم — تناهت الينا هذه التحفة الغالية من تراث أجدادنا الأكرمين .

ليت شعرى أكل هذا ذهب أيضا مع أمس الدابر وأصبحنا نبكيه كما نحن تندب جدنا العاثر .. بما تتلقاه بين كل عشية وضحاها من غوائل أوربا فى كنوزنا ومرافقنا ثم قلوبنا ورقابنا .

ولكن .. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ، وما أجمل الأمل اذا كان مقرونا بشىء من العمل ..

فلئن كان قومى فى حماه قد تسربت من مدينتهم تلك الكنوز الباهرة بما انصبت عليهم من عادية الزمان وبغى الاغراب ، فان

أكبر ظني أن هاتيك القلوب الخفاقة بين جنوبهم قد تحدر اليها أثر من تلك الشهامة التي سجلها التاريخ لأجدادهم ولا أقول لآبائهم .

فسقيا ورعيا لأهل هذا النادي ، ولعلهم .. ولعلهم يتضافرون على تجديد ما كان لمدينتهم من مقام كريم وصيت مجيد .

— ٣ —

عن جيزة الفسطاط ١٣ نوفمبر ١٩٢٤

من جيزة الفسطاط الى حماة الشام

فى يوم الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ (١٦ ديسمبر ١٩٢٤)

سيدى المفضال رئيس النادى الأدبى

سلام الله عليكم وحواليكم وشكواى منكم اليكم

وكيف لا أشكوكم الى أنفسكم وأنا أتوسم فيكم بقية من الانصاف الذى جعل لأجدادنا خير أحدوثة تفاخر بها من يفاخرنا ، وان كانت همتنا قد قعدت بنا حتى صرنا الى ما صرنا ، وكيف لا أشكوكم الى أنفسكم وأنا أعتقد أن فى ثنايا قلوبكم قد انزوت عاطفة العدل التى كانت شعار أجدادكم ، ولا سيما ابن بكران الحموى الذى تولى قضاء القضاة فى بغداد ودرج رحمه الله فيها أو بدمشق الفيحاء سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) فقد كان معروفا عند الخاص والعام بأنه (لا يخشى فى الله لومة لائم) .

ان كنتم أنتم نسيتموه وان كنتم تزعمون أن قضاءه لا يسرى

على مصرى ، لخروجى من دائرة اختصاصه (أو صلاحيته عـلى اصطلاح أهل الشام) فاننى لست أنسى أن حماة كانت داخلة فى حومة مصر على عهد ابن طولون وصلاح الدين وقانصوة الغورى ثم على أيام محمد على .

وما دامت مصر كانت هى الأم فاننى أذكر لكم قدوة حسنة عن قاضيها الأكبر أعنى (خير بن نعيم الحضرمى) وهو قد حكم بنفسه عـلى نفسه لمصلحة خصمين تقدما اليه فى سـنة ١٢٠ هـ (٧٣٨ م) بمدينة الفسطاط ..

ولعل ناديكم الكريم بفتح هذا السبيل بانصافى من أنفسكم فى دعواى ، قد كنت أشكو حيف الزمان على العرب ، وأبكى من جور الاغراب على العرب وعلى مآثر العرب وآثار العرب ، ومن جملة ذلك خزانة « أبى الفداء » .

واذا بجوابكم وافانى اليـوم على لسان رئيسكم سـيدى الدكتور توفيق بك قد أصاب مقتلا أخيرا .

أفرأيتم عليلا يزيده طبيبكم جراحا ، فقد ظن أنه يواسينى ويخفف لوعتى حينما تفضل فأخبرنى بأن كتابى الأول قد حرك الكامن من عزماتكم فأجمعتم أمركم على .. « اصلاح مرقد الملك الكبير أبى الفداء » .

يا لله

هل عدت العوادى أيضا على هذا الحرم المقدس ، حرم العلم والفضل ، حرم المجادة والنبل ، حرم الحجى والنهى والعقل .. أم بلغ الاهمال فى حماه منتهاه .

ذلك مالم يكن لى على بال والله ..

وأوجه الكلام الى ملوك العرب وسادات القبائل ورؤساء العشائر وأرباب البيوتات والى كل ناطق بالضاد ليضعوا أيديهم الكريمة فى يد النادى الأدبى اقامة ضريح لأبى الفداء يكون جديرا بذلك السلطان ، بل بذلك الانسان الذى هو « رجل ولا كالرجال » .

راجيا أن تتبلوا مبلغا زهيدا ضئيلا من المال على هذه النية المباركة وهذا وحقكم جهد المقل وكل ما فى الاستطاعة ..

٣١ ديسمبر ١٩٢٤

— ٤ —

عن جيزة الفسطاط

سيدى المفضال ..

لقد كان الواجب أن أبدأ جوابى اليكم بالسلام عليكم ، وها أنذا قد قمت بهذه الفريضة التى يرتاح لها الفؤاد وتجيش بها عاطفة التضامن بين القطرين الشقيقين مصر والشام .

على أننى أرانى مضطرا الى مزاوجة هذا السلام بشىء من العتاب والى متابعته ببعض الملام .

فلا تعجبن ، يا ابن عمى ، اذا كنت آكاشفك ، أنت وعصبتك الأخيار بما خالج قلبى من الاحتياج الى الاحتجاج ، حينما تناولت فى هذا اليوم دعوتكم الكريمة الى الاشتراك فى تكريم الشيخ (لويس شيخو) أمتعنا الله بحياته .

انكم ضربتم لهذه الحفلة موعدا قصير المدى جدا ، لا يزيد على أسبوعين لمن أسعده الحظ بالمقام فى بيروت ، وضربتم عرض الحائط بمواعيد المسافة التى قررها قانون المرافعات (أو الاجراءات فى عرفكم) لاعلان الشهود أو بالحضور من وراء القفر والبحر وفرضتها رسوم المجاملات بين المتوفرين على خدمة العلوم والآداب .

فما هو السر ..

هل ابتغيتم الاستئثار بهذا الفخار أم بغيتم بغير الحق فى الاحتكار ..

والا فلماذا جعلتم فضيلة هذا التكريم وقفا على أنفسكم ومقصورة على من يلوذ بحومتكم دون سائر الأمصار ثم توخيتم تصحيح مركزكم وتبرير موقفكم بما توسلتم به من شبهة براءة الذمة (أو برو العتب فى اصطلاح المصريين أو غسل اليدين كما فعل بيلاطس النبطى) فتعمدتم قطع الطريق على الجيران وعلى الاخوان بتلك الحيلة البيروتية أو — على الأصح — بتلك الألعوبة الأفلاطونية .

واذا كان رب السماء قد اختار أرض بيروت لتكون مقاما لهذا الشيخ (المرفوع اسمه فى كل حالات الاعراب والمعروف قدره بين الأعراب وغير الأعراب) فليس معنى ذلك أنه أصبح ملكا خاصا لسلالة الألى كانت مدينتهم أكبر معهد لحفظ (الحقوق) واشتراع (القانون) فى أيام الرومان ، وهى فى هذه

الأيام منهل عذب كثير الزحام يتوافد عليه رواد الأدب ويتقاطر اليه طلاب العرفان .

٢٩ يناير ١٩٢٥

— ٥ —

الى السيد مكى آل أورفه لى حاكم الصلح فى بغداد

سلامى اليـــك وثنائى عليك . وأنت أنت الذى جددت لى آية من مظاهر التواصل بين أجدادنا الكرام أيام كان الهناء ناشرا رواقه فيما بين النيل والفرات .

كانوا يتعاطفون برسائل التحية والسلام ، على جناح الحمام ، وكانوا يتعاطون أعمال الدولة وسياسة الأمة بواسطة هذا الطائر الذى هو رسول السلام والرحمة .

لذا رأيناهم وقد تواضعوا على ألفاظ استحدثوها لهـــذا الغرض وجرى العرف هنا وهنا على مصطلحات تناهى بعضها الينـــا .. مثل (بطق) و (طير الخيرة) ومثل (سرح الطائر) و (سقط الطائر) .

حتى جاءت أمم الفرنجة فترقت فيما بدأ به المشارقة بل زادت عليهم وبزتهم ونحن نيـــام نغط غطيطا فما تنبهنا من غفـــوتنا ولا استفقنا من غشيتنا الا وقد كان بعض هذه الأمم آخذا بزمامنا قابضا على نواصينا ومتحكما فى رقابنا وفى مستقبلنا .

نعم .. كان من حسن حظى فى هذا اليوم أن طائر الفرات أتى يرفرف باليمن والاقبال على جيزة الفسطاط وفى طيات أجنحته

المتينة الشديدة ، رسالة أنيقة رشيقة كلها برد وسلام ، وفيها تعريف بل تصوير لذلك القبر الذى يضم رفات امرىء القيس حامل لواء الشعراء الى اليوم والى يوم الدين .

ولكن التعريب لم يكن وافيا بالمرام ، فلذلك جئت أسألك المزيد فى البيان لأننى أريد استيفاء البحث عن امرىء القيس ، وأمره يهم كل ناطق بالضاد .

ولعلك تتفضل بتعريفى عن الذى أخذ صورة القبر ، وفى أى وقت ، وأين كان نشر هذه الصورة ، ومن الذى قال القصيدة المنظومة فيه الى غير ذلك مما يكون قد اتصل بعلمك أو مما قد تتوصل اليه حتى يجىء بحثى عن صاحب المعلقة الكبرى وافيا بقدر ما فى الامكان .

وأنا على يقين أننى طرقت باب كريم ، وكيف لا ، وهو ينتسب الى بلدة الكريم أبى الكريم أبى الكريم جدنا ابراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام .

فعسى ألا ترى فى طلبى هذا شيئا من الالحاح والالحاف ، فان القصد كل القصد هو احياء مفاخر قحطان والاشادة بذكرى أماجد عدنان ..

١٨ يوليو ١٩٢٥

— ٦ —

ولدى أحمد بك حافظ عوض

وردت الفرات ، ووقفت على أطلال معبد للحيثيين فى

« كركيش » على مقربة من طرابلس ، التى خرجت من الأكفان أو كادت ، ثم تجولت فى ميدان (نصيبين) فذكرت فى الأول ما بلغه الأدب العربى من مكانة جليلة ، وذكرت مجد المصريين فى الثانى على عهد رمسيس ، وفى الثالث أيام ابراهيم حيث كتبت بدماء آبائنا صحيفة خالدة من الفخار ، وذكرت جهادك فى ارسال أنوار (كوكبك) الى كل آفاق الشرق ، فبعثت اليك والى قرائك بالتحية والسلام .

« أحمد زكى باشا »

— ٧ —

سيدى العلامة المفضال والبحاثة المدراك .

الشيخ أحمد الصبيحى ناظر الأحباس بمكناس ، حرس الله مهجته .

٢٢ مايو ١٩٢٤ .

نعم أشرقت على دار العروبة أنوار كتاب كريم ، صادر من مكناس الزيتون بالمغرب الأقصى ، وفيه ما فيه من براعة وبلاغة ، الى جانب ما انطوى عليه من دلائل الاطلاع الواسع . قرأت المحاضرة التى ازدانت بها مجلة المغرب ، قرأت يا سيدى أنك قد جعلتها نبراسا للمعجم الذى جمعت أنت مواده والذى أخذت نفسك بالرحلة الى ديار الشرق لتهذيبه واستكماله ، تجديدا للسنة التى جرى عليها الأجداد الأمجاد أيام ازدهار العلم فى ربوع الفردوس

الاسلامى المفقود ، وأيام كانت دولة المغرب الأقصى فى عزها الشامخ وسلطانها العقلى الوطيد الأركان .

فلعل التوفيق مساعفك أنت وأمثالك من الأمير زيدان الى الجد الكتانى الى اخوانكم القائمين برفع الراية فى المغرب الأقصى فى فاس ومكناس ، وفى مراكش ورباط الفتح ، الى ما حول ذلك من العرائس ، الى طنجة وتطوان .

ونحن فى القاهرة نزدهى كلما اطلع علينا شعاع نورانى من برقة الى القيروان ، الى تلمسان ، الى فاس البيضاء . كما أننا نحتفى بأى كوكب يجيئنا من سماء الشرق حتى مطلع الشمس .

نحن نرقب طلوع شمسك من المغرب لتجديد الحياة الفكرية من الشرق والغرب ولتوثيق دعائم الارتباط بين مكناس الزيتون وجيزة الفسطاط .

نفسيته من خلال حياته وأعماله

تتكشف نفسية « أحمد زكى » فى ظل وقائع واضحة من حياته :

* نشأ فى بيئة فقيرة نوعا ، ورباه وكفله شقيقه محمود رشـــاد .

* بدت عليه علامات النبوغ المبكر فى مجال الترجمـــة من الفرنسية الى العربية بالاضافة الى تمكنه فى اللغة العربية .

* أتيحت له فرصة العمل فى مجال القصور ومع الأمـــراء والخديويين والنظار وكانت قدرته وذكاؤه عاملا من عـــوامل حاجتهم اليه ، فقلما كان منهم من يعرف العربية أو يجيدها حديثا أو كتابة .

* أصيب بالصمم فى عام ١٩٠٠ تقريبا ، فأثر ذلك فى نفسه تأثيرا كبيرا .

* لم ينجب ولم يترك ذرية .

* تجمعت فيه عنـــاصر الوراثة من مغربيـــة وفلسطينية ومصرية . قدم أهله من المغرب وأقاموا فى يافا (بيت النجار) ثم انتقل والده الى مصر فتزوج فيها والدته .

* التقى فى مطالع حياته بعلماء المجمع العلمى الفرنسى ،

والجمعية الجغرافية والتفت الى المخطوطات العربية وتحقيقها ، وأتيح له أن يشهد عددا من مؤتمرات المستشرقين ، وأن يزور الأندلس .

هذه أهم العوامل التى أثرت فى نفسية أحمد زكى وكيّفتها على النحو الذى عرف به ، من عنف وجرأة وحدة واندفاع ، ومن انفاق للمال بسرف ، ومن رغبة فى احداث الدوى العاصف ، وتطلع الى الزعامة ، ورغبة فى ترك أثر كبير على ما عبر عنه بقوله : « تأميلى بترك أثر لى فى بلدى » وهذا مصدر تحلله من بعض قيود التقاليد ، ومجاراته للزمن .

ومن هنا يجىء طابع السخرية الواضح فى عبارته ، والفكاهة المنطلقة ، والدقة المتناهية فى البحث والمراجعة ، وقسوته فى الحملة على مساجليه وخصومه ، واعترافه بالخطأ ورجعته الى الحق متى استبان له ، واحساسه بالفراغ النفسى والعمل على شغله بالأعمال المتصلة .

٢ — وكان أحمد زكى — كما هو مزيج من مختلف الوراثات — صورة للانسان العربى فى خلقه وخلقه .

فهو ربعة القامة ، ممتلىء الجسم ، صبوح الوجه ، براق المقلتين . يرى الناظر اليه لأول وهلة أنه شعلة ذكاء ، وهو مع ذلك عصبى المزاج ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، قلق لا يستقر ، يصل دائما غاية الشوط ولا يتوسط فبينما هو مرح يتبسط حتى يظن به السذاجة ، اذ به عنيف مداحر حتى يوصف بالمكر ، وهو كريم سخى مبسوط اليد ، ينفق انفاق الأغنياء ، ولا يخشى من

ذى العرش اقلالا ، ما فى قلبه يبدو على لسانه ، اذا أحب مال بعنف ، ووصل الى آخر المدى ، وكذلك اذا أبغض خاصم بلدد عنيف ، لا وسط عنده ، فيه تلك الطبيعة القلقة المتحمسة المتعجلة، التى تطمح الى العلا ، وتلتمس وسائل الشهرة والظهور ، مع كفاية علمية راسخة ، وقدرة على التحقيق العلمى ، وايمان صادق بمجد العرب ، كونته الأيام والرحلات ، والتجارب والقراءات ، وتلك رسالته التى عاش لها فى مجال العمل الفكرى والعمل السياسى ..

٣ — كان فى مطالع حياته معجبا بنفسه ، ذلك أنه أحرز الدرجة الأولى فى كل مسابقة تقدم اليها ، أو وظيفة سعى لها . فظن أنه فوق الناس جميعا « حتى لم يكن يخطر بالبال أن فى رؤسائى ومن أنا دونهم فى الوظيفة شخصا جديرا بالاكبار والاعتبار ، فكنت أعامل الرؤساء كأنهم مرءوسون » .

ومن هنا عُرِفَتْ عنه رغبته فى الاستئثار بكل شىء فى العمل ، وجرأته فى خوض كل عباب ، ومن هنا وصفه الواصفون له بأنه محيط بكل شىء فى مجال الثقافة ، ولكنه غير راسخ فى شىء .

يذهب فى السذاجة الى حد العجب ، ويخرج من تقرير جهوده فى العلم الى التفاخر به ، تفكيره استطرادى لا يعنى بالوحدة ولا يحفل كثيرا بالتناسق [1] .

---

(١) أحمد حسن الزيات : وحى الرسالة م (١) .

ومن آيات عجبه أنه كان يصدر مقالاته بعبارة رنانة :

« عنى وعنى وحدى خذوا النبأ الصادق » ..

« ودع كل صــوت غير صــوتى فاننى

أنا الطائر المحكى وغيرى هو الصدى »

وقد وصفه بعض عارفيه بأنه يجمع بين البساطة والسماحة وخفة الروح ، وأنه لا سلطة له على قلبه ، وأن حماسة الايمان فيه أكثر من دقة العلماء .

٤ — كان حريصا على تسجيل ســبقه فى كل ظاهرة من ظواهر الفكر والحياة ، فهو أول من جمع المخطوطات من أنحاء العالم ، وهو أول من دعا الى احياء الآداب العربية وعمل له ، وهو أول من حقق دعاوى المستشرقين وأول من دعا الى احياء مجــد العرب ، وأول من ابتكر نقل المخطوطات بالفوتغرافيا من العرب ، بل هو أول من ركب الدراجة من كبار موظفى الحكومة ، ووضع اســمها .

وكان غيورا الى أبعد حد تجاه تراثنا العربى الاســلامى ، ونوادر المؤلفات العربية ، فما ان استكشف هذه الحقيقة حتى جعل بينه وبين ذلك ثارا ظل يقاتل من أجله طول حياته ولم يلق السلاح ، فهو قد آمن بأن ذخائر الأدب العربى والتراث العربى قد أغار عليها المغيرون ، وسرقوها ونهبوها حتى خلت منها بلادنا ، وهى موجودة الآن فى مكتبات الغرب ، فهو حفى بأن يدفع أى مبلغ فى سبيل استرداد هذه النوادر ، ويفخر بأن لديه نسخة من كتاب لا يوجد فى العالم كله منه غير نسختين ، وهو حفى بأن ينقل

بالفوتغرافيا ما يعجز عن شرائه ، وهو مندفع أيضا الى شراء ما جدده المستشرقون وما طبعوه من الآثار والذخائر العربية .

٥ — كانت مكتبته الزكية نافذة من نوافــذ التنفيس عن نفسه ، والتبريز فى مجال الفكر ، وشغل الفراغ ، فهو الذى لم يصنع ولدا أو بنتا ، أراد أن يصنع مكتبة ضخمة تقف الى جوار دار الكتب ، فجمع ألوف المجلدات النادرة ، وسافر وأنفق ونسخ وصور ، وقدم ذلك كله للدولة ومعه قطعة أرض فى المنيرة تبلغ ١٥٠٠ متر لبناء دار كتب تمنى انها تكون الثانية وتحمل اسمه، وقد ربط بين هذا المعنى وبين مكتبته فى كلام على لسانه أشارت اليه اللواء عــام ١٩٠٨ جاء فيه : ان أقاربه الأقربين والأبعدين انقرضوا ، وان لا أمل له فى أن ينسل .. » .

فلما عجز عن ذلك برز فى مجال آخر هو الزعامة السياسية العربية ، فكان بيته بيت العروبة وهو شيخها ، وما من زعيم عربى يرد مصر الا ويجد زكى باشا فى انتظاره ، وما من كاتب غربى أو مستشرق الا ويقصد دار العروبة .

٦ — وكانت اصابته بالصمم عاملا جديدا من العوامل التى دفعته الى التبريز وتأكيد الشخصية ، ولقد كان تأثره بالصمم بالغا حتى وصفه بأنه نقله الى سن الثمانين ، وربما تعزى عنه بأنه حال بينه وبين اللغو .

وقد صور مشاعره ازاء الصمم بعد أكثر من ثلاثين عاما :

« أنا أعتقد أن الله أراد أن يظهر لى محبته بطريق التمحيص والابتلاء حينما أحوجنى منذ عام ١٩٠٠ م الى ترجمان خبيث

خسيس ، الى ترجمان يتجافانى كأنه « القرد الشارد ، الى ترجمان اذا وافانى فلا يساعفنى فى أوقات الضرورة » .

« أنا أظن أن الله قدر لى الخير كل الخير ، حينما نزه سمعى عن وصول اللغو اليه ، وما أكثر اللغو فى الناس وبين الناس .. » .

ولم يقف الصمم أمام عزيمة أحمد زكى وقوته الذاتية القوية ، بل مضى وبرز حتى قال عنه محمود ابراهيم صاحب الاكسبريس أنه كان يقف فى حلقة بين أعاظم المستشرقين فى مؤتمر أثينا فيضع سماعته على أذنه ويجيب ببراعة على أسئلتهم .

٧ — وكان أحمد زكى غاية فى الحيوية يملأ وقته كله بالعمل، لا يكل ولا يحتاج الى الراحة ، يخرج من الديوان الى مكتبته الزكية فيقضى فيها سحابة يومه ، ومعه طعامه وشرابه وقهوته ، حتى ينتصف الليل أو يزيد ، فيذهب الى بيته ليهجع بضع ساعات ، ثم يبدأ يومه من جديد وهو ممتلىء نشاطا وحيوية .

وكان يؤثر القراءة واقفا — كما يقول عنه طه حسين عن معرفة به واتصال — فلا يكاد يبدأ القراءة حتى يندفع فيها وينسى نفسه ، ولا يتعب من البحث والتنقيب عن كلمة واحدة الساعات الطوال ، أياما وأسابيع ، فى كل مظنة من مجلد أو كتاب ، ساعيا بين دار الكتب والمكتبة الزكية ، لا يمل ، فاذا ظفر بها كان فرحه لا يبارى .

٨ — عرف أحمد زكى بالمرح والفكاهة والسخرية فى أحاديثه وخطبه ومجالسه وكان يضفى هذا اللون على كتاباته ، فيبحث مثلا عن (طاسة الخضة) أو (كشكش بك) .

وفى عباراته هذه الفكاهة حتى أنه يتساءل عن رجل من الناس فيقول :

هل هو معمم أو مفندأ ، أم مبوك أم مبوش (بك أو باشا) .

ولما ورد اليمن وقطع الصحراء والجبال حتى بلغ صنعاء واستقبله الامام يحيى محييا : أهلا وسهلا .

قال له زكى باشا : عفوا يا مولاى : أهلا وجبلا ، فاننا ما رأينا سهلا قط .

وعندما نقل مكتبته الى قبة الغورى ، كان اذا عرض لبحث عن السلطان الغورى قال : « صديقى الغورى » .

وكان يصف نفسه فيقول : ألست ذكيا بغير (ذال) ، ولطالما تناولته الصحف بالسخرية : تقول مجلة الفكاهة انه رجل كالبحر فى علمه وكالمحيط فى اطلاعه ، ولكنه بحر ، ولكنه محيط ، لا تحجز مياهه جسور أو شواطئ وانه محتاج الى شركة مساهمة تتولى تنظيمه وترتيبه ليستفيد منه الناس :

وقد ترددت الفكاهات عن كلمتين من الكلمات التى حققها : (بربر برابر بربرة) و (على الحركرك) .

تقول احدى المجلات : رأى بعضهم زكى باشا وكان ضيوفه يجلسون على كراسى وهو جالس (على الحركرك) .

وقد أصيب بزكام شديد وبربر برابر بربرة ، وان بطاقته مكتوب عليها :

راجى عفو ربه المنان أحمد زكى ابن قطحان

وسخرت منه مجلة الكشكول فقالت انه (كتساروس علوم) تشبهه بتاجر الأثاث القديم (كتساروس) .

وقد كانت اندفاعاته عاملا من عوامل الفكاهة والسخرية ، وفى ابان معاركه مع زكى مبارك أرسل برقية الى مفتى القدس فأخطأ ووقعها (زكى مبارك) بدلا من زكى باشا .

فلما عرف ذلك حمل حملة منكرة على مصلحة التلغرافات وقال :

قد يكون حصل لى ذهول فكتبت مبارك بدلا من باشا غير أن الفرق بين باشا وبين مبارك مثل البون الذى يفصل بين الطربوش والعمامة ، كنت أعذر عامل التلغراف لو أنه كتب الابراشى بدلا من باشا .

وأنهى كلامه بقوله :

(الى حكيم العيون . الى مستشفى الرمد يا ناقل التلغراف) .

ولكن زكى مبارك عقب عليه فقال : أرجح أن الخطأ جاء من جانب الباشا فهو الذى كتب بيده الكريمة « زكى مبارك » بدلا من « زكى باشا » ذلك أن زكى مبارك تعود مداعبة الباشا فى مقالاته ، ومن المحتمل أن تكون تلك البرقية أرسلت بعد أن قرأ الباشا كلمة من تلك المداعبات فبقى اسم زكى مبارك فى رأس ساكن الجيزة الفيحاء .

٩ — عرف بالجرأة والمخاطرة وحب الاستطلاع ، فقد صعد كل منارة ، ودخل كل مسجد ، واعتلى كل قلعة ، وانطلق فوق قبة المسجد الأقصى حتى لمس (الهلال) وصعد الأهرام .

وكان فى أول شبابه على حد قوله (يرتع فى برية الاسماعيلية على ظهر الهجين الى حجر البردويل فى العريش) فضلا عن ركوبه الدراجة لأول مرة .

١٠ — كان أحمد زكى يجارى أخلاق العصر : يقول صديقه (محمد كرد على) انه « كان يتجوز فيما لا يتجوز فيه أرباب التقوى ، فكان يتخلق بأخلاق من عاصرهم وعاشرهم ، وما رأى حرجا فى ذلك ، وقد يضطره العبث واللعب الى الاسراف ولذلك أنفق كل ما دخل فى يده من مال قرينته أولا ، ثم من مال شقيقه ثانيا ، وأنفق جميع ما خلفه له أخوه من ثروة ، وهو مبلغ لا يستهان به (وقيل أحد عشر ألفا من الجنيهات) ، وربما أفرط فى ذلك ، ولعل افراطه لكونه لم يعقب ولدا » .

وكان محبا لشراب [١] النرجيلة (الشيشة) ولعب (طاولة النرد) وله بهما سهرات .

ولطالما وصف أحمد زكى نفسه بعبارة « الخبيث » تحديا لما كان يوصف به من السذاجة ، وتحدث فى أكثر من مناسبة عن « الشيطنة » فى حياته وكيف أنه التقى فى باريس بطائفة من الفتيات فقرأ لهن الكف وأنبأهن عن الغيب ومازحهن طويلا . ومن عباراته « أين الأعاريب الرعابيب ، مشتهى الروح ومنية النفس » .

ويكشف أحمد زكى جانبا من معالم نفسيته [٢] .

---

(١) كان قد أطلق عليها أولا اسم (الأركيلة) ثم تحول عنه الى (النرجيلة) .

(٢) المعرفة — يناير ١٩٣٣ .

« قد كنت أفترض دائمـا أن الدنيا مرحة هانئـة ، فينانة سرحاء ، وارفة الظلال ، فلا أنظر اليها نظر أولئك الذين عجزوا عن ادراك كنهها ، والتعرف الى مكنوناتها ، بل كنت أغالط عقلى بعقلى ، فأنتزع البرهان عن نفسى لاقناع نفسى بأن الدنيا تساوى الآخرة ، فكنت أنتهز الوقت وأهتبل الفرصة وأتملك الزمن قبل أن يملكنى بحادثاته وصروفه ، بل قبل أن تعصرنى أعاصـير الحياة عصرا ..

.. لقد انتهزت الفرصة خلال زيارتى لأوربا لامتاع النفس والقلب والفؤاد بكل ما فى لندن وباريس من متع ومسرات ، وظللت أعبر المانش بين العاصمتين الكبيرتين احدى عشر مرة دون أن يصيبنى دوار البحر ، أو ينالنى منه سوء ولم يكن جل همى من تلك الرحلات الا الاستزادة من العلم والتوسع فى البحث » .

* وقد ظل زكى باشا محتفظا بنشاطه وحيويته الى أواخر أيام حياته ، وهو يعزو هذا النشاط الى أنه لا يتبع طريقة خاصة فى المآكل أو الراحة أو الرياضة يقول : اننى رجل أميل الى الحركة والبحث منذ كنت شابا يافعا ، أقتل الليل منقبا عن مسألة ما ، وأجتاز البحار وأقطع القفار للعثور على أثر أو حقيقة ضائعة ، وأعتقد أن الخمول والركود شر ما يجنى على صحة المرء ، فان حركة الجسم وتعويده العمل ، والجهاد فى ميدان الحيـاة يطبعان الأعضاء على النشاط ، لذلك أحب العمل وأتعشقه ، لأنه يمدنى بنشاط لا أحظى به اذا ركنت الى السكون ، كما يجدد فى نفسى همة أرى لها من اللذة والمتعة ما لا أراه فى الرياضة .

حتى انى كثيرا ما أحمل على مائدة الطعام كتابا أو جريدة أتصفحها أو مسألة صغيرة لها أهمية لغوية أو تاريخية خلال تناوله ، ولا أرى فى ذلك ما يسئمنى ، أو يقطع على راحتى وهنائى .

وقد يلذ لى أن أتعب جاهدا متحملا كل صعوبة فى سبيل كلمة أو مسألة صغيرة لها أهمية لغوية أو تاريخية عندى ، فأسعى بما استطعت من قوة للحصول على بغيتى دون أن أجد فى ذلك مشقة وعنتا .

وربما كان لقوة بنيتى التى ورثتها عن أبى أثر كبير فيما أنا عليه من نشاط فان أبى رحمه الله كان سليم البنية ، قوى العضلات ممتلئا صحة وعافية وأذكر أن وجنتيه كانتا متوردتين توردا يدل على ما منح من نقاء فى الدم وانتظام فى وظائف الأعضاء .

لذلك أعتقد أن الوراثة أكبر عامل فى صلاح بنيتى ، ولا عبرة بما يقال عن ضرر التدخين واستعمال النرجيلة ، فانى طالما استعملت النرجيلة دون أن يحدث ذلك فى صحتى ضعفا أو فتورا .

غير أن لى عادة لا أبرحها كل يوم ، وهى أننى أتناول كوبا من الماء المثلج أثر نهوضى من الفراش ، ولا أستطيع أن آكل كسرة من الطعام قبل ذلك ولا أتناول من اللحوم مطلقا ما عدا الدجاج والحمام ، فانى أتناول منه قدرا متوسطا ، ولا أحب أن أشغل ذهنى فى أوقات فراغى بما يكده ، كلعبة الشطرنج مثلا ، بل أحب أن ألهو كل مساء بممارسة النرد مع نخبة من أصدقائى » (1).

(1) الهلال ـ نوفمبر ١٩٢٩ .

❊ وقد عرف أحمد زكى بالحفلات والمآدب الباذخة ، يدعى اليها ضيوفه من أعلام العرب والشرق والغرب ، مع صفوة من أصدقائه .

وتكون هذه الندوات مجالا طلقا للكلام والفكاهة :

وكان لسماط زكى باشا شهرة مدوية ، فقد وصفه محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى فقال : « ان زكى باشا حدث ضيوفه أن لديه خروفا معلوفا سيكون نصيبهم ، والمكان سفح الأهرام ، وقد مد سماط الباشا عشية يوم الجمعة فهرولنا اليه ، فاذا عليه خروفان اثنان ، وكان عدد المدعوين يزيد على العشرين من أحرار سورية ولبنان والعراق وفلسطين .

❊ لبس الطربوش وقاطعة أيام حرب البلقان ولبس طربوشا مغربيا ، ثم عاد اليه وفى السنوات الأخيرة أغرم بالعقال واللباس العربى .

وأحب الاسكندرية مسقط رأسه ، وهام بفلسطين هياما دون أن يكشف صلته بها ، وكانت له رحلات متصلة فى الصيف الى أوربا أو المشرق ، وبعد أن ترك الخدمة كان يقضى سحابة يومه بين دار الكتب والمكتبة الزكية ، فاذا جاء المساء عاد الى داره : دار العروبة حيث يفد اليها لفيف من أصدقائه يدور بينهم الحديث والسمر ، ثم يمد السماط (الحفيف) ، كما كان يطلق عليه ، فيتناول الجميع الطعام بين التصحيحات اللغـوية والتاريخية والمساجلات . وكان بيته على النيل فى جيزة الفسطاط فى موقع جميل يجدد النفس ويدخل البهجة الى القلوب .

* وقد اتجه فى سنواته الأخيرة الى بناء مسجده ، وصرف اليه همه حتى كان أحيانا لا يقرأ الصحف ، وقد أنفق عليه كثيرا ، ونقل اليه طرائف الأحجار وروائع فن الزخرفة من كل مكان فى العالم العربى ، وأهداه الامام يحيى ألف قطعة من العقيق لتزيين المحراب .

ومسجده قريب من داره ، وقد كلف الشيخ عبد القادر الشيبى أمين مفتاح الكعبة أن يرسل الى غار حراء من يكنسه ويجمع كناسته ويحفظها فى وعاء وقد حمل هذا فوضعه فى القبر الذى أعده لدفنه تبركا [١] .

وقيل كان ينزل الى قبره ويتمدد فيه بل كثيرا ما طاوعته نفسه فقرأ وهو ممدد فيه ما يكون معه من كتاب أو جريدة ، وكان اذا سئل لماذا تفعل هذا قال : ان الموت حق ولا يخيفنى أن يجيئنى الموت قبل أن أنتهى من فرائضى الوطنية والأدبية » .

وقد تحقق ما توقعه ، وفاجأه الموت على نحو خاطف مثير [٢] ..

---

(١) رشيد رضا : المنار ـ م ٣٤ ص ٧١٣ .

(٢) أجرينا محادثات عده مع معاصرى زكى باشا وأبرز من استفدنا منهم فى هذا الصدد الأستاذ سيد ابراهيم نابغة الخط العربى والأستاذ الباحث أحمد لطفى السيد المحرر بدار الكتب الذى أرشدنا الى كثير من جوانب حياته وآثاره .

وفاته وآثاره المدفونة

انتهت حياة أحمد زكى (شيخ العروبة) نهاية مفاجئة غـير متوقعة ، فقد كان فى أوج الصحة بالرغم من أنه كان فى السابعة والستين من العمر ، وربما كان يتطلع الى الثمانين ، لتماسك بنيانه وعافيته .

وقال مرة « ما أود الوصول الى الثمانين بالمعنى الذى يريده المتشبثون بالحياة ، واذا ما وصلتها فمالى هناء بها ولا عـزاء ، سوى موالاة الكفاح لخدمة العروبة والاسلام وسوى مواصلة السعى لتقويم الأغلاط الجارية على أقلام الكتاب ، وسوى اقامة الحجة على نصرة الصواب .

« والا فالى الاعتكاف فى المسجد الذى أتولى انشاءه بنفسى ليكون تحفة من تحف الفن العربى ، وطرفة من طرائف الطراز الاسلامى » .

وكأنما كان مسجده منذ عام ١٩٣١ عملا كبيرا يضـع فيه عصارة مشاعره ، وقد عاتبه الكثيرون على انشغاله سنوات فى هذا العمل ، والمساجد كثيرة فى القاهرة ، فكان رده « [١] ترى ما أنا عليه من حال ، وقد حرمت من الأولاد ، فلم أعقب منهم

---

(١) على فراش الموت : طاهر الطناحى .

أحدا وأعطانى الله فضلا من الرزق أحببت أن أبنى منه لنفسى مقبرة ، والى جانبها هذا المسجد .. » .

وكان فى أوائل يوليو — من عام وفاته — على وشك أن يغادر القاهرة الى مصيفه فى بور سعيد فاذا به هو يعــود يوم ٢ يوليو ١٩٣٤ من جولته وقد غمره العرق ، وبينما هو يخلع ملابسه ناداه مناد فى حديقة الدار [١] ، فخرج الى الشرفة قبل أن يجف عرقه ، فأصيب بالتهاب رئوى ، ولم يلبث أن اشــتد به الالتهاب ، وأشرف على الخطر فى مساء اليوم التالى ، ومع ذلك فقد سمر مع أصدقائه ليلة وفاته ، وكان على رغبة فى أن يذهب الى الأهرام ، لولا أن حال زواره دون ذلك ، فقد كانت علامات الشحوب والاصفرار تبدو عليه .

والواقع أن الموت فاجأ أحمد زكى ، وهو فى طريقه الذى كان يظن أنه سيطول ، فاجأه وهو يعمل فى سبيل اخراج معجمه الكبير الذى تطلع الى العمل فيه فى السنوات الأخيرة من حياته ، والذى أعد جانبا كبيرا منه . هذا الى مؤلفاته المتعددة التى كان يعلن عنها فى مقالاته ولما يتمها ، ومن هذه المؤلفات : قاموس الأعلام الأندلسية وملحق الأغانى (يشمل على ما فات صــاحب الأغانى وما جاء بعده) ، ومدن الفن فى الأندلس (وكان قد نشر فصولا منها فى الهلال ديسمبر ١٩٣٤ وما بعده) . وعشرات من أبحاثه ، ومئات من مقالاته فى الصحف .

---

(١) قيل أنه الصحفى (عبد المسيح انطاكى) .

وقد حاولنا التعرف الى هذه المؤلفات أو الأبحاث التى كانت فى مكتبه ولم تستكمل أو شيئا من مذكراته ورسائله ورسائل أصدقائه اليه وهى فى مخلفاته الكثيرة التى تركها فى دار العروبة ، غير أن أولئك الذين وصلت الى أيديهم هذه الآثار ، حالوا بيننا وبين ذلك ، ولقد ظللنا أكثر من ثلاثة أعوام نواصــل اقناعهم بتمكيننا من ذلك لوجه العلم ، ولاستكمال البحث العلمى لرجل عظيم كبير الأثر فى الأدب العربى المعاصر غير أن ذلك كان يقابل منهم دائما بالتسويف ، وهم بذلك قد حمّلوا أنفسهم مسئولية العقوق فى حق الرجــل الذى وهبهم كل ما يملك ، وأصبحت خصومتهم فى هذا مع التاريخ ، أما نحن فقد استطعنا بالجهد الشاق أن نحقق حياة هذا العالم النابه لوجه العلم خالصا ، دون الاستعانة بما يملكون من وثائق ومخطوطات أو الاطلاع على آثار أحمد زكى التى تمثل لمساته الأخيرة فى حياته الفكرية .

(توفى فجر يوم ٥ يوليو ١٩٣٤) .

خاتمة
(مواقف ومقالات)

« ولى كل يوم موقف ومقالة »

١ — هذا شعاره الذى يلخص حياته ، فما قيمة هذا العمل الذى قام به خلال أربعين عاما كاملة لم يتوقف فيها عن البحث والترجمة والكتابة والتحقيق العلمى للكتب والآثار فى مجال التاريخ والجغرافيا واللغة .

هل أضاف جديدا الى الفكر العربى !؟ وهل فتح الطريق الى عمل كبير ؟

الواقع أن نعم ونعم ونعم على طريقته فى التأكيد ، لقد صنع أحمد زكى شيئا كثيرا ، وهو وان لم يخلف موسوعة ضخمة أو كتبا كبيرة ، فقد ترك آثارا فى بطون الصحف والمجلات ما تزال حية نابضة بالحياة ، وما تزال آراؤه ونظراته — بعد مضى ثلاثين عاما على وفاته — حارة مليئة بالحياة تغرى بالنظر فيها على نحو أوسع وأشمل .

لقد كان أحمد زكى خطيبا وكاتبا ، وكان خطيبا حتى فى كتاباته ، التى تحمل الطابع العاطفى الانشائى ، بالرغم من أنها تقوم على البحث العلمى .

وأحمد زكى خطيب مشوق جذاب ، لشخصيته المشرقة ،

ونفسيته المرحة ، وطابع خطابته المليء بالفكاهة ، وصوته الرنان المدوى ، ونجاحه فى كسب الجماهير ، فقد كان يمزج فى رفق بين العلم الدقيق والعبارة الأدبية الطريفة ، بما يجعل تحقيقاته محتملة لدى السامعين .

ولقد ألقى أحمد زكى مئات المحاضرات والخطب والمسامرات، وتحدث فيها عن رحلاته المختلفة فى العالم العربى ، ولا ننسى قصصه الطريفة من أجل تحقيق أسماء البلاد والأعلام والبحار والأنهار ، وفى هذا المجال كان يجد كثيرا من الفكاهات والطرائف، مع قدرة بارعة على السخرية والتهكم بكل من يقع تحت يده من الباحثين الذين قد يفوتهم نص ، أو يخطئون فى النقل أو يحرفون الأصل.

٢ — أما أحمد زكى الكاتب المتصل بالصحافة ، المتصدر فى الصفحات الأولى لأعظمها وأكثرها شهرة وجاها « الأهرام » فهو موضع التقدير والاعجاب ، تعلق الصحف عن مقاله قبل نشره وتعتذر اذا لم تجد المكان اللائق ، وتنشره على متسع من الأعمدة بعناوينه المثيرة .

ولقد كتب أحمد زكى فى مختلف الصحف والمجلات التى صدرت فى مصر فى فترة حياته الأدبية : المؤيد ، اللواء ، الأهرام ، والمقطم والوطن ، وكوكب الشرق ، البلاغ ، الدنيا المصورة ، وكل شيء ، مصر الحديثة ، المقتطف ، الهلال ، المجمع العلمى العربى ، وعشرات من صحف العالم العربى والاسلامى .

ويمكن القول بأنه نشر أكثر من ألف مقالة ما تزال منثورة فى بطون تلك الصحف ، يمكن أن تكون أكثر من عشرين مجلدا

لموسوعة ضخمة فى تحقيقات التاريخ والجغرافيا والآثار والأعلام واللغـــة .

وكانت الصحف حفية به ، ولكنه كان يؤثر المقطم فى الفترة الأولى من حياته والأهرام فى الفترة الأخيرة . وما كتب مـــرة الا ليثير ضجة ، وما حقق نصا الا وجعل منه معركة .

٣ — ولا شك أن أحمد زكى بأعماله الأدبية قد أغنى الفكر المعاصر وذلل كثيرا من الصعوبات أمام الباحثين ، وشق طريقا جديدا كان مطمورا ومليئا بالصخور والأحجار ، فكشف عنـــه وعبده ، فقد خفض حروف الطباعة ، وأدخل علامات الترقيم ، وأحرز وحقق عشرات من المخطوطات القيمة التى كانت مجهولة فى المكتبة العربية ، وكون المكتبة الزكية الضخمة بمؤلفاتهـــا النادرة ، وشارك فى انشاء الجامعة المصرية القديمة . ودرّس بها تاريخ الحضارة وحقق عشرات من الآراء والأفكار المحرفة ، كما حقق عشرات المواقع التاريخية ، والمساجد والقبور ، وزار عشرات المساجد والكنائس والمدن القديمة والقصور التاريخية ، وصعد الى عدد من القلاع والى قبة الصخرة ، وقطع الأرض بالطول والعرض بحثا عن المخطوطات فى الآستانة وباريس ولندن وبرلين، وفتح له قصر (طوب قبو) ولم يفتح لأحد قبله خلال أربعة قرون وستة أعوام ومثل مصر فى عديد من مؤتمرات المستشرقين ، وأثار قضايا ، وألقى أبحاثا ، وكان موضع تقدير العلماء والمستشرقين . وكان جريئا صريحا ، ولم يك تابعا لهم بقدر ما كان موجهـــا ، ومنصفا ، وهو أول مصرى زار الأندلس فى العصر الحديث ،

وقد تحققت له الرحلة فى طلب النص أو تحقيقه على نحو ما فعل العلماءالمسلمون فى القديم ، وحقق الفنون الجميلة فى الاسلام ، وتاريخ السماط ، وحقق آثار العرب فى أوروبا ، ودرس تقويم العرب قبل الاسلام ، واختراع البارود والمدافع ، وما قالته العرب فى ذلك ، ونفى الخطابات المنسوبة الى النبى (ص) فى دير الطور ودير القلمون .

وكتب عشرات البحوث عن الفيوم وأسوان ودارين ، وعن اكتشاف العرب لأمريكا ، وعن مرض النوم الذى عرفه العرب قبل الافرنج ، بخمسة قرون ، كما تحدث عن علاقات المصريين بالأندلسيين وعن أهل الكهف ، وعن الطيران عند العرب ، وفى مواساة العميان ، فى دول الاسلام ، وعن التجارة فى الاسلام ، وعن الأناضول ومآثر العرب والمصريين فيه ، وعن الصخرة الشريفة ، وتحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة ، وعن وفاء النيل ، ومنابع النيل ، وتاريخ البن والقهوة ، وحقق ما نسب الى المعز الفاطمى وحديث « فدك » .. وحقق أغلوطة الانجيل والتوراة السبعينية وعن عشرات من الأعلام : سليمان الفارسى ، والشريف الادريسى والفتية الثمانية المغررين والكندى الاسلامى.

أما أبحاثه عن الأندلس فحدث عنها ولا حرج ، فقد ألقى عنها عشرات المحاضرات ، وكتب أكثر من مائة بحث ، وهو الذى أطلق عليها اسم (الفردوس الاسلامى المفقود) ، وناح عليها وأبكى الناس ، وجدد قصيدة أبى البقاء الزندى ، صاحب المرثية المشهورة فى البكاء على الأندلس .

٤ — وكانت لأحمد زكى فى عمله هذا دعوة واضحة وهدف مشرق هو تعريف أوروبا والغرب بأمجاد العرب وفضلهم ، فقد وكل نفسه بالدفاع عن هذه القضية ، يؤكد أن العرب قد سبقوا الغرب الى أشياء وأشياء ، ولم تكن دعوته هذه مطلقة ، بل كانت محـــددة .

وكانت له غيرة على ذخائر التراث العربى الاسلامى الذى ضاع من بلادنا فى فترات ، محاولا الحصول عليه بأغلى ثمن ، وما لا يستطاع الحصول عليه بنقل ، ثم يحصل بعد ذلك على ما أحياه المستشرقون .

وقد جمع فى مكتبة كل ما كتب عن الحضـــارة الاسلامية والأدب العربى .

ومن ذلك تحقيقاته المتوالية فى أسلوبها العاطفى المـلىء بالحماس « أقول للعرب والأفرنج وللناس جميعا أن غاليلى لم يقل بكرية الأرض ودوران الشمس الا بعـــد أن قررها العلمـاء الاسلاميون فى بغداد وقرطبة والقيروان بأكثر من ثلاثة قرون .

« أقول ان العرب أول من ســبق الأفرنج الى اكتشـــاف ما أكتشف من علم البصريات Optque وكتبوا فى ذلك كتبا تدل على العبقرية الاسلامية ، أعنى به (ابن الهيثم) الذى كان عائشا فى أيام الحاكم الفاطمى ، وقد ترجم الأفرنج كتبه واستفادوا منها ، وشهدوا له بالسبق والفضل .

« أقول للعرب ان الامام الأصفهانى هو الذى أثبت بطريق الاستنتاج المنطقى والدليل الجغرافى على وجوب وجود أمريكا

فى النصف الثانى من هذه الكرة التى نحن عليها وأنه لابد من وجود ناس وحيوان ونبات بها » .

٥ — كان صادق الايمان بضرورة استعادة المصريين لسيادتهم العقلية التى كانت لأسلافهم فى العالم الاسلامى . ولكى يحققوا هذا المقصد النبيل يجب أن يهيئوا العاملين الرئيسيين اللذين لا غنى عنهما أولا وهى المكتبة ودار الطباعة .

وهو يكشف دائما عن جوانب خفية من مجالى عظمة المصريين ويعيب عليهم جهلهم بآثار الفن فى مصر « وهم مع ذلك يتشدقون ويتغنون باسم رافايللى وميكل انج من نوابغ المصورين الذين يفخر بهم الطليان ، أما نحن فنترك قومنا ومجدنا ونتحذلق بمآثر غيرنا ... » .

واذا وجد كاتبا يضيف فضل النهضة الثقافية الى لبنان غضب وكتب فى حماسته المعهودة : « ما كان لبنان معلمـا لمصر » .

« نعم للبنانين أفضال أنا أول من يعرفها ويستشهد بها ، ولكنها لم يكن لها وجود فى أول عهد النهضة المصرية وفى جميع مناحيها ، بل بالعكس كانت مصر هى التى ربت أبناء لبنان فعادوا لهـا بنعمتها فيما بعد [1] ... » .

وهو يتطلع دائما الى أن تحتل مصر زعامة العالم فى مجال النهضة الثقافية ، وبعد عودته من أسبانيا (الفردوس الاسلامى المفقود) يقدم مذكرة اضافية الى فخرى (باشا) ناظر المعارف

---

(١) الأهرام — ١٩٢٨/١٠/١٢ .

عن الكتب المخطوطة فى قصر الاسكوريال فى أسبانيا ، وطالب بأن تحمل مصر لواء نسـخها وطبعها وينبرى لرئيس الوزراء سنة ١٩٣١ الذى قال أن عصر ما قبل الاحتلال فى مصر كان عصر انحطاط ، ويقول له :

أفنظن أن عصر « صلاح الدين » عصر انحطاط ، أو عصر الناصر محمد قلاوون ، وليس على وجه البسيطة مفخرة للاسلام فى العمارة مثل جامع السلطان حسن ، هل نسيت أن دولة المماليك التى جعلت القاهرة أجمل متاحف العالم بما أنشأته من مساجد وقصور وعمائر ، ان أكبر الموسوعات العربية قد ظهرت على ضفاف النيل أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وهى (نهاية الارب فى فنون الأدب) .

أما عصر الانحطاط المصرى الصحيح فهو الذى كانت بدايته مجىء الأتراك الفاتحين سالبين ناهبين مدمرين » .

ويذهب الى الشام فلا يهمه الا أن يذهب الى (مرج دابق) ليحقق موقعتها مع السلطان الغورى ، ويرى أنها المكان الذى ضاع فيه استقلال مصر حيث اندفن سلطاننا الغورى مع استقلالنا المصرى الصحيح » .

ويباهى فى كل مكان يزوره بأنه ابن النيل .

ولا ينتظر لحظة حين يقرأ كلمة سوء توجه الى مصر ...

« غضبت لقومى أن يقال البـاطل عنهم لغايات سـياسية استعمارية ، غضبت للحق ، غضبة مضرية ، بل غضبة مصرية ، فلا يصح لى أن أغمط الحسنات ... » .

وهو الذى هتف بنداء الوحدة بين عنصرى الأمة المصرية عام ١٩٠٨ « مصريون قبل كل شيء » هذا هو الشعار الذى هتفت به على ضفاف النيل فى سلسلة من الخطب أوردت الدلائل والبراهين على أن العنصرين اللذين تتألف منهما الأمة مرتبطان بعروة العمومة والخؤولة »[١] .

٦ — وهو فى مجال العروبة حريص على تحقيق الروايات التى تؤكد (وحدة الأمة العربية) حتى اخواننا فى جزيرة مالطة تجمعنا واياهم روابط عدنان وقحطان « اننى أقول أن الدم الذى يجرى فى عروق أهل جزيرتهم النائية المنقطعة انما هو متسلسل من أصل فينيقى قديم (وعربى صميم) كما أن الكلام الذى يجرى على لسانهم يرجع الى العربية الفصحى فى سبعة أعشاره ، ولو أنه قد اعتوره كثير من التحريف والتصحيف ، كما أن أسماء المواطنين والمدائن وأسماء الرجال والنساء لا تزال عربية خالصة »[٢] .

٧ — كما أعلن أنه تحقق من أن أبناء الأندلس الحاضرين هم سلالة العرب بحيث لو خلعوا (حاضرهم) لتجلت عربيتهم ، بالرغم من لغتهم الاسبانية [٣] .

٨ — وهو حريص على احياء ذكرى الأعلام ، وقد بالغ فى اهتمامه باقامة ضريح وتمثال لابن خلدون (دعا الى ذلك

---

(١) الأهرام ٩/أغسطس ١٩٢٩ .
(٢) الشورى ١٩ ابريل ١٩٢٨ .
(٣) الأهرام ١٣/١١/١٩٣٣ .

عام ١٩٣٢ ، وتحقق عام ١٩٦٢ ، حيث أقيم لابن خلدون تمثال في امبابة أمام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية) .

وكان قد دعا الى ذلك منذ عام ١٩٢٤ ، وفاخر بأن « الخزانة الزكية تباهى باحتوائها على نسخة مخطوطة من تاريخ ابن خلدون عليها حواش بخط الشيخ العطار ، وبها صورة لكل نسخ (المقدمة) المطبوعة فى الآستانة والقاهرة وغيرهما من أمصار الشرق بالاضافة الى ترجماتها للتركية والانجليزية ، وان فخرها الأكبر انما هو فى احتوائها على نسخة (المقدمة) التى صححها ابن خلدون بنفسه ، وكتب ما يفيد ذلك بخطه على كل صفحة من صفحاتها ، ثم توج طرتها بتوقيع يده ، وهو يشهد بأنها أصح ما خرج للناس منها وتداولته الأيدى (وهى منقولة بالفوتغرافيا عن خزانة عاطف أفندى بالقسطنطينية الكبرى) وان كانت خزانتى تفاخر أيضا وتباهى باحتوائها على صورة شمسية تمثل ابن خلدون تمثيلا خلقه الخيال ، بناء على ما وصلنا عنه من معلومات وبيانات .

وأعلن أحمد زكى أن « ابن خلدون مدفون فى القاهرة بمقابر الصوفية ، على ما استفسرناه من السخاوى صاحب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للهجرة » .

٩ — كما دعا الى بناء ضريح لأبى الفداء فى حماة ، وأبى العلاء المعرى فى البصرة ، وكان حفيا بالعلماء الأعلام فى كل مكان

يزور قبورهم ويحقق تاريخ وفاتهم وقد اهتزت لبنان عندما وضع اكليلا على تمثال ابراهيم اليازجي عام ١٩٢٦ . وتحدثت الصحف عن ذلك طويلا .

١٠ — وقد أدخل الى اللغة العربية عبارات جديدة ، وحقق كلمات وتواريخ ومواقع لا حد لها .

أدخل كلمة (السيارة) بدلا من الاتومبيل و (الدراجة) بدلا من البسكليت و (الشطيرة) بدلا من الساندويتش ، وكلمة (الرفرف) وهو الهامش فى الصحف .

قيل لما صدرت (الجريدة) طلبوا منه الكتابة ، فقال سأعطيكم رفرفا ، قالوا وما الرفرف ، قال هو ما يسميه الافرنج (فيتون) واصطلح كتابنا على تسميته الذيل ، ولكن الكلمة الصحيحة هى (الرفرف) .

ومن كلماته : (الكمارك) بدلا من الجمارك ، ودجالون خير من (دجاجلة) وأجرى تحقيقات حول « أمريكى أم أمريكانى » وكشف أم اكتشاف « واوباش أم أباش » وقال : قل القناة ولا تقل القنال . وفى أسماء البلاد : لا تقل الحسيمة ، ولا تقل هوالف (بلاد فى الأندلس) بل هما الخزامى ولبه . لا تقل عطبرة وقل (اتبره) أما الجزيرة التى بالقرب من أسوان ويقولون عنها (جزيرة فيلة) واسمها العربى بلاق وبيلاق ، واوران وصوابها وهران . لا تقل البرتغال وقل البرتقال . وأجرى تحقيقات متعددة منها : الفراعنة أتراك ، كلا ثم كلا ، الفراعنة عرباء ، نعم . نعم وقال ميلاد المسيح : فى بيت لحم وليس فى القاهرة . ويفاخر

بمعرفته أسماء الأشـياء فى عدد من اللغات فكلمة الجزائر مثلا يسموها الفرنسيون الجيرى Algeria والايطاليون (الجـريا) Algeria وفى الأندلس يسمونها (ارجليا) .

١١ — ومن طرائف أبحاثه بحثه عن الفاكهة :

(١) الموز (٢) المانجة والخليفة الوليد بن عبد الملك (٣) شجرة البرتقال (٤) البلح والنخيل فى جزيرة العرب ووادى النيل .

وهو معنى دائما بأن يكشف هذه الحقائق ، فالعرب هم الذين أدخلوا (الموز) الى أوربا فى أواخر القرن الأول ، وذلك عند فتحهم الأندلس ولا يزال نباته وثمرته معروفين فى جزيرة صقلية باسم موزا ، وكذلك الحال فى الأندلس والبرتقال (البرتغال) أخذوه ثم عدلوا عنه الى كلمة (بنان) .

والموز « لفظ عربى صحيح » وأنا لا أوافق المستشرقين الذين قالوا بأن الطلح المنضود المذكور فى القرآن هو الموز وذكر الموز فى مفردات ابن البيطار وتذكره داود ورحله عبد اللطيف البغدادى. والهند أسموه (موجا) ولا جدال ان الأفرنج أخـذوا اسمه عن اللفظ العربى والعلامة فرسكال الذى رتب النبـات الى أجناس وفصائل وضع لفظة Musacées (موازسى) للدلالة على فصيلة الأعشاب المتشابهة لحشيشه الموز .

وله أيضا أحاديث متوالية عن الأطعمة وفكاهاتها .

١٢ — و « الكتاب » آية حياته ، وحب الكتب يغلب عنده على أى عاطفة وصناديق الكتب عنده قصة طريفة تروى ، حتى أنه ليترك كل شىء حتى عمله ، من أجل الكتب : يقول انه كان

في طريقه مع رئيس الوزراء الى بنها ، وفى آخر لحظة جاءته برقية بوصول ثمانية طرود من مخطوطاته من الآستانة الى ميناء الاسكندرية . يقول « تركت أدراجى ؛ ودست على مصلحتى ، وتركت أمرى للأقدار » . وذهلت عن كل واجب وبت أحلم بهذا المعشوق ، وأتصفح صفحات وجهه ، وأتأمل محاسنه ، وبكرت الى الكمرك بكور الغراب وكنت أول من حيا البواب .. » .

والكتب عنده محببة وبغيضة فى نفس الوقت ؛ فهى تكلفه المشقة ؛ وتقضى على كل موارده ؛ وتجعله مدينا دائما ، فاذا جاءت أشقته باعداد المكان اللائق ، والمحافظة عليها من الرطوبة ، وتجليدها ، فاذا وهبها للأمة ، وأعطوه قبة الغورى ، لم تتوقف شكواه وصيحاته ، هذا رجل أجروا له المكان المجاور للمكتبة وعنده صفيح ومواد قابلة للالتهاب ، ويخشى على المكتبة منها ثم من الفيران . وهكذا يعيش زكى باشا بين لذة الكتب ومتاعبها يقول : « ليس لى لذة فى الحياة سوى جمع الكتب وان كنت لا أستفيد منها الا القليل » .

ويقول « كلما سعيت للتخلص من هذه الأحبولة تشابكت خيوطها ، واستحكمت حلقاتها ، فأنا أمدح الكتب رغم أنفى ، وأسعى الى جمعها ، وان كنت أكرهها لما تجره من تعب القلب وفراغ الجيب وضياع الكسب » .

وهو حفى بدراسة الكتب العربية فى العالم ، ما ذهب منها وما بقى ؛ فقد حرقوا تسعة أعشار ونصف وثلث وربع الكتب العربية فى ساحات غرناطة ، وحرق أحد الكراولة فى يوم واحد

نحو ألف ألف كتاب ، ومن قبل أقام التتار جسرا على نهر دجلة من الكتب . فما خلص لنا منها الآن لا يبلغ أكثر من واحد فى الألف مما كتب أجدادنا وقد تسربت الكتب العربية من بلادنا الاسلامية عن طريق الحملات الصليبية فى الماضى ، وفى مصر بالذات عن طريق الفتح العثمانى والحملة الفرنسية ، تلا ذلك تردد الأوربين والأمريكين ، فاستنزفوا ما بقى مختفيا أو متخلفا بوطننا من هذه الثروة العقلية الأهلية ، وقد نهب بونابرت كثيرا من بقايا الكتب النفيسة التى كان أجدادنا قد أخفوها أو وجدوها بعد الفتح العثمانى ، وكل من ذهب الى باريس واطلع على فهرس دار الكتب الأهلية يأخذه العجب العجاب ان لم تساوره الأشجان والأحزان ، فلقد أصبحنا اذا احتجنا الى شىء من مؤلفات المصريين الخاصة بمصر لا نرى منها شيئا فى بلادنا ، وأشار أحمد زكى الى عدم تقدير (دار الكتب المصرية) للمخطوطات ومن أمثلة ذلك أنه حمل اليها كتاب « مخطوط » ثمين فقومته بخمسة عشر جنيها واشترته الارسالية العلمية الفرنسية بالقاهرة بثمانين جنيها وأعطت صاحبه وساما ، وأرسل الكتاب الى باريس ! ، وقد كان أحمد زكى ثانى اثنين يتنافسان على شراء الكتب القديمة ، ويطالعان الصحف اليومية ليروا أى وقف أو أى عظيم مات ولديه مكتبة يشترونها والأول هو أحمد تيمور ، فقد اشتريا معا مكتبة الشيخ طاهر الجزائرى .

ومن أجل الكتب أطلقوا عليه لقب (الفهرست الأكبر) .

ولما هاجمته الصحف لأنه كلف الدولة فى مشروع الأحياء

شططا دافع عن نفسه فقال : لقد ذهبت بمحض ارادتى وعلى نفقتى الخاصة الى خزائن الكتب بالآستانة ست مرات متتالية (١٨٩٢—١٩٠٩) ثم بعثت صديقى (عبد الحميد لطفى) على حسابى الخاص الى باريس وبرلين ولندن أعوام ١٩٠٩و١٩١٠و١٩١١ للبحث عن مكامن طائفة من نوادر الكتب التى تسربت من بلادنا الى ديار الأجانب .

وقد اتخذت طريقة النسخ بالفوتغرافيا ، وقال ان (الناسخ ماسخ) ولا يعول عليه فى تحصيل الكتب النادرة ولطالما هاجم الناسخين وقال : « النساخين مسخهم الله » واتهمهم بأن قاعدتهم هى التحريف والتصحيف والتشويه [١] .

ويمكن أن نصور مدى جهاده فى ذلك حين يسجل انه أمضى عشرين عاما يتتبع مخطوطات (الخطط المقريزية) .

ولا شىء يصور مدى أهمية عمل احمد زكى هذا اكثر من ان نشير الى ما ذكرته الأهرام عام ١٩١٣ — فى المرحلة التى كان غارقا فيها فى تحقيق مشروع الأحياء — ان حالة الآداب فى مصر كانت فى ركود شديد ، وان الرائج من التأليف.والكتب هو القصص والحكايات المملوءة بما ينافى الأخلاق وضروب البهتان والاختلاق والتلفيق ، وقالت الأهرام ان الأمة منصرفة عن العلم وانه قد يمر العام كله ولا يظهر كتاب مفيد واذا ظهر فلا يلتفت اليه أحد .....

---

(١) له أبحاث متعددة عن الكتب مايو ١٨٩٤ ، المؤيد مارس ١٩٢١ ، المقطم مارس ١٩٢٢ .

وقد هاجمته الصحف من أجل طبع بعض المخطوطات وفيها عبارات الفحش والمجون ، ولطالما نسبوا اليه مالم يقل . وقد قرأت فى أحدى قصاصات الصحف التى كان يحتفظ بها عبارة مقتطعة من مقال فى أهرام ٢١ أغسطس سنة ١٩١٩ . قالت ان سم النيكوتين الذى رمتنا به امريكا — قد حاول أحمد زكى ان يجعله من نبات العرب .

وكتب أحمد زكى معلقا على هامش القصاصة .

« لم أقل ذلك . وحسبى الله » توقيع « أحمد زكى » .

١٢ — على أن هناك اجماعا على أن حياة أحمد زكى الفكرية كانت مبعثرة مضطربة ، فقد كانت قراءاته واسعة ومتناثرة ، ومتفرقة ، لا حصر لها ، دون تخطيط معين لبحوث واسعة أو أعمال كبرى ، حقيقة ان لهـا سياج واضح من الايمان بالأمة العربيـة وتراثها وقيمها ، وتطلع صريح الى بعث هذه القيم وهذا التراث واعتباره أساسا لبناء الأمة فى العصر الحديث ...

غير أن الأبحاث كانت متناثرة ، منوعة ، من هنا وهناك ، ترتبط الى حد كبير بما يثار فى الصحف أو فى البرقيات من آراء أو أسماء أو قضايا فكرية ، فاذا هو يدلى بدلوه فيقول كلمته ويمضى ... فيغيب شهرا أو شهرين حتى يعود مرة أخرى الى الكتابة ...

وهو لا يكتب فى موضوع متصـــل ، ولا يتفــرغ للكتابة والبحث فهو مشغول بالسياسة الى جانب البحث العلمى ، وبالرحلة من أجل الصلح بين الملوك أو الدفاع عن البراق وهكذا . وقد

أشار الى ذلك غير واحد : محمد كردعلى ، ومرجليوث الذى قال للكاتبة مى زيادة عندما زارته فى أكسفورد : ان حياة زكى باشا متشعبة مبعثرة يعوزها التنظيم .

١٣ — أما أسلوبه الكتابى فقد تطور من السجع الى الترسل، ومن الجد المطلق الى الجد المختلط بالهزل ، ثم تحول ثمة الى أسلوب واضح له خصائصه قوامه السخرية والتعالى والمقدمات الطويلة — مع مضمون قليل من الحقائق .

ففى أواخر القرن التاسع عشر كان أسلوب السجع والمحسنات البديعة والاقتباس من أقوال الأقدمين ساريا ، ثم ظهرت مدرسة جديدة كان جمال الدين الأفغانى رائدها ، عملت على تغليب المعنى على اللفظ مع مراعاة قواعد اللغة ، ثم كان للطليعة التى تثقفت بالثقافة الفرنسية — التى كانت غالبة اذ ذاك والى أوائل القرن العشرين — دورها فى اعطاء الأسلوب العربى طابعا جديدا فيه رصانة اللغة مع أخيلة وتعبيرات جديدة .

وقد ظل أحمد زكى سنوات متأثرا بالأسلوب القديم ، يغلب عليه السجع — وقد ظل حتى آخر أيامه لما يتخلص من هـذه السمة ، وان خفت كثيرا فى مضامين كتاباته ، وغلبت على عناوين مقالاته ، غير أن أسلوبه أخذ طابعا واضحا مميزا انفرد به ، قوامه السخرية والفكاهة والتعالى ، مع التحقيق العلمى الواسع العميق وكأنما كان يرى مشقة البحث العلمى الخالص وجفافه ، فكان يمزجه بالفكاهة والسخرية ليخفف منه ، وليغرى القارىء بالمضى معه . وكذلك كان فى محاضراته وخطبه ، يضيف شيئا من الفكاهة

والطرافة والنكتة حتى لا يمل سامعوه أبحاثه العويصة ! ومن تعبيراته التى طالما كررها قوله : قل لى بعيشك وقوله يمينا بالله وكتبه واليوم الآخر ... وقوله : يا غارة الله وقوله ارعنى سمعك رعاك الله ، وكان يصف نفسه بقوله : هذا العاجز ويصف داره بقوله « دويرتى » . وكلما ذكر صديقا عزيزا متوفيا قال (سقى الله عهده) وكان ينتفض لأى خطـأ فى مقـالاته ، واذا كتب أعاد وصحح وشطب وغير وبدل وكان كثيرا ما يصحح أخطائه ويكتب تحت عنوان تصحيح لنفسى بنفسى أو تصحيح لتصحيحاتى [1] . وكان يسمى الأخطاء والتصحيفات « القواقع المطبعية » .

١٤ — ومع هذا العمل المتصل والطبيعة المندفعة كان لابد أن يخطىء أحمد زكى وأن تحصى عليه بعض المثالب ، فهو يطبع كتاب الأخلاق وينسبه الى الجاحظ ويظل مصرا على نسبته اليه ، بينما أنكر الباحثون هذه النسبة .

وهو يلقى الكلام أحيانا فى بساطة فيحمله خصوم العـرب ويتخذونه حجة عليه ، كما حدث عندما تحدث عن (فلسطين) وقال انها محتاجة الى أموال اليهود حتى تزدهر فيها الصناعة[2] .

وأحيانا كان يتصدى لبعض الآيات القرآنية محاولا تفسيرها فيقع فى الخطأ ويتناوشه العلماء بالنقد والتقريع .

* * *

---

(١) الأهرام يوليو واغسطس ١٩٣٢ .

(٢) أثيرت هذه العاصفة عام ١٩٢٢ وتجددت عام ١٩٢٩ .

وعلى الجملة فقد كان (أحمد زكى) علما من أعلام الفكر العربى المعاصر ، ترك ثروة ضخمة من الآراء والأفكار والتصويبات والتحقيقات فى مجال التاريخ والجغرافيا والأعلام والآثار واللغة العربية ، وترك عملا ضخما فى مجال احياء التراث العربى ونقله وطبعه ، وكان رمزا على معنى كبير من معانى النهضة فى العالم العربى ، وهو بناء الحاضر على الماضى ، وتأكيد القاعدة الأساسية للأمة العربية والشخصية العربية من قيمنا وتراثنا مع فتح الأبواب للفكر الغربى والحضارة الغربية بقدر ما يزيدنا ذلك قوة ويغنى شخصيتنا — ولا يمسخها — دون أن نكون عملاء أو مستوردين أو تابعين وهو بذلك رائد من رواد المدرسة الوسطى ، مدرسة « البناء على الأساس » .

المراجـــع

احمد شفيق باشا	:	مذكراتي فى نصف قرن جـ ١ ، حـ ٢
يوسف أسعد داغر	:	مصادر الدراسة الأدبية
طاهر الطناحى	:	على فراش الموت
سركيس	:	معجم المطبوعات العربية
خير الدين الزركلى	:	الأعلام
محمد كرد على	:	المقتبس (م ٥ ، ٧)
بشر فارس	:	المقتطف م ٨٥
اسكندر المعلوف	:	مجلة المجمع العلمى العربى م ١٣
أحمد حسن الزيات	:	الرسالة م ٢
الدكتور محمد صبرى	:	الشوقيات المجهولة جـ ٢
الدكتور أحمد عيسى	:	الأهرام ١٦/١١/١٩٣٤
الشيخ عبد الوهاب النجار	:	البلاغ يناير ١٩٣٥
سامى الكيالى	:	الحديث م ٨
الدكتور زكى مبارك	:	البلاغ ـ يوليو ١٩٣٤
الأب انستاس الكرملى	:	مجلة لغة العرب سنة ١٩٢٨
ابراهيم اليازجى	:	مجلة الضياء م٤
لويس شيخو اليسوعى	:	مجلة المشرق م٢٣
« مى زيادة »	:	المقتطف م١٨
الدكتور فارس نمر	:	الاهرام ٢١/يوليو/١٩٣٤

الأهرام / البلاغ / المقطم / الشعب / البلاغ / كوكب الشرق / السياسة / الوادى / مصر (٦ يوليو ١٩٣٤) ـ رثاء أحمد زكى .
الأهرام والبلاغ (يناير ١٩٣٥) حفلات تأبين أحمد زكى

عمر رضا كحالة	: أعلام المؤلفين
محمد كرد على (الاحمدان المصريان المحدثان)	: الأهرام ١٩٣٨/١/١٢
توفيق اسكاروس	: البلاغ ١٩٣٥/١/٢٠
محمود ابراهيم	: المؤيد ١٦ أبريل ١٩١٢
عبد الحميد حمدى	: السياسة الأسبوعية ٧ أغسطس ١٩٢٦
محمد مسعود	: البلاغ يناير ١٩٣٥
سلامة موسى	: المجلة الجديدة م٣
رشيد رضا	: المنار م٣٤
فنديك	: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع
الدكتور شخت	: المستمع العربى م١٩٤٤
طه حسين	: الوادى ٨ يوليو ١٩٣٤
توفيق حبيب	: الأهرام ١٩٣٤/٧/١٢ .
الزهاوى (قصيدة)	: ١٩٣٤/٧/٣٠ الأهرام
كمال حمودة	: الأهرام ١٩٣٤/٨/١٨
مصطفى عبد الرازق	: الأهرام ١٩٣٥/١/١٩
أحمد فهمى العروسى	: الأهرام ١٩٣٥/١/١٩
الشيخ التفتازانى	: الأهرام ٣٥/١/١٩ و ٣٥/١/٢٠
ملف الخزانة الزكية	: (الخزانة الزكية)
تقرير أحمد زكى عن مكتبة الاسكوريال	(مخطوط)

انور الجندى « موسوع معالم الأدب العربى المعاصر »

(١) النثر العربى المعاصر
(٢) الكتاب المعاصرون
(٣) المعارك الأدبية
(٤) تطور الترجمة

* فهرس كامل لأبحاث جريدة (الأهرام) من (١٩٢٠ — ١٩٤٠) مخطوط .
* مجموعات الصحف والمجلات العربية فى فترة ما بين ١٨٩٢ — ١٩٦٣ .

فهرست

صفحة

صفحة